محمد طارق

# لَمْ يَأْتِ بَعْد

ديفالو III

تشكيل للنشر والتوزيع

مكتبة بيت الحصريات
MAKTABBAH.BLOGSPOT.COM

# الأسوأ لم يأتِ بعد

رواية

محمد طارق

الترقيم الدولـي: 9789776963719

تصميم الغـلاف : أحمد فرج.

تشكيل للنشر والتوزيع

بعض الأشيا لا تُرى بوضوح،

لكن لن يمكننا تجاوز تأثيرها

# إهداء

لبائع التين الشوكي الذي -وبعدما أكلت من عربته الصغيرة عشرة حبات- سألته عما يفعل في الشتاء فقال..

في الخريف نبيع الذرة المشوي..

في الربيع نبيع الورود للعشاق..

في الشتاء نبيع البطاطا..

في الصيف نبيع التين الشوكي..

نحن رحالة في الحياة يا أستاذنا..

ثم اختتم حديثه قائلًا المثل الشعبي..

"مطرح ما ترسي ذق لها"

عزيزي الرحال أهدي لك هذه الرواية وأتمنى لك مثلما أتمنى لنفسي..

أن ترسو وتستقر رحلتنا مع الدنيا ونستريح قليلاً.

# المقدمة

*عزيزي القارئ..*

الآن وبين يديك رواية مهما حاولت أن تفهمها، ستكتشف أنك أجهل من فهم حرف واحد، ومع ذلك ستجعلك تضحك، تبكي، تتأثر، تشعر باليأس، الخوف، الوحدة، القوة، الضعف، والحماسة، ستحب أبطالها وتنكسر لفراقهم، تكره بعضهم وترفضهم، وتعتذر عن أخطائهم، ستتمرد على أفكارها وتتباهى أنك لم تقرأها، ربما لأنك لا تحب كاتبها، ربما لأنك لا تحب الروايات السوداوية، ربما لأنك تريد أن تبدو مختلفًا للآخرين، لكنك وفي الخفاء ستبدأ في قراءتها؛ لأنك تعلم كل العلم أنها ليست مجرد رواية، بل مجموعة حقائق في النفس البشرية المعقدة، ستبحث عن نفسك فيها بكل حماسة وشغف.

رواية مهما تمردت عليها تعود خاضعًا لها بكل ضعف، رواية مهما حاولت أن تتبرأ منها ستكتشف أنك جزء أصيل منها، كلما سخرت منها اكتشفت أنك بطلها، في اللحظة التي ستبدأ في كتابة النقد عليها، ستكون أول من يدافع عنها أمام الجميع، الحقيقة أنك لن تدافع عني بالمعنى الحرفي للكلمة، فأنا لست في حاجة لدفاعك عني من الأساس، بل ستدافع عن نفسك التي وجدتها بين شخصيات أعمالي، أنت الوضيع المحكوم عليه بأحكامها، والبطل الذي نال منها كل شيء، أنت أسطورتها وأنت أضعف محارِبيها، أنت حيث تملك فيها كل شيء ولا تملك منها كل شيء، رواية أنت قارئها وأنت كاتبها وأنت بطلها، وأنت من لا تفقه فيها أي شيء لكنك تقرأها وتتعايش معها.

كل شخص في الدنيا رواية..

ونحن يا عزيزي شخصيات متحركة لرواية كتبها القدر.

# تمهيد

"الحرب كالحب لا يمكن أن ينتهي إلا بعد مراسم دفن الضحايا."

بعد سنوات يخوض غمار الحرب، سنوات استنفدته ساحات المعركة، وصال وجال في ضواحيها، بعد سنوات عاش فيها كل معاني القسوة والحرمان، انسلخ قلبه وهو يرى زوجته تُغتصب وتُقتل أمام عينيه، خُطف ابنه منه، انقلب على أخيه وانقلب عليه، وقبل كل هذا صديقه الذي أجاد سرقة وتحقيق كل ما حلم به ديفيد، وبعدما أثبت للجميع أنه لم ولن يكون لقمة سهلة المضغ للمافيا ولكل هؤلاء الذين أجبروا على خوض حياة تملؤها الدماء، فجأة أراد أن يتبرأ من كل هذا ويعيش ما تبقى من حياته في هدوء وسلام، لكن وقبل هذا القرار كان عليه أن يفضح ويظهر كل الفساد والتعاون المشترك بين المافيا الإيطالية ورجال الدولة، طيشًا أو سذاجةً، لا أحد يعرف ما كان يفكر في ديفيد شاهين، لكن كما كان متوقعًا فلن يكلفك اللعب مع العقارب إلا لدغتهم السامة، مهما حاولت الحذر حتمًا ستصيبك اللدغة فهي فطرتهم وطبيعتهم التي لن يتبرأوا منها أبدًا.

للحرب قوانين يعرفها ويحفظها كل القادة والجنود.

القانون الأول: إياك أن تُعادي الجميع، فمهما كنت قويًا لن تنجو سالمًا من تحالف القوة ضدك.

القانون الثاني: إياك أن تحارب كل الخصوم في وقت واحد فهذا يعني تشتتًا وتفرقًا لقوتك مهما كانت عتيدة حتمًا ستنهار.

القانون الثالث في الحرب: عليك أن تهدئ من روعة رجالك وثورتهم، وتحاول احتواء الخلافات بينهم، فلن تقدر على محاربة جندي واحد ما دمت تملك خلافات داخلية.

كلها قوانين ضرب ديفيد بها عرض الحائط، لم يسمع إلا لرأيه وصوته، لم يهتم إلا لرغبته في الخروج من هذه البؤرة العفنة الممتلئة بالدماء، فكانت المطاردة الأبدية من نصيبه، والآن وهو في عنق الزجاجة، لم يعد يملك إلا قرارين لا ثالث لهما، إما مواصلة الهروب وتفادي أي صدام جديد مع المافيا والمتورطين في الدولة، إما المواجهة حتى الرمق الأخير، وليحدث ما سيحدث، هذا ما سنعرفه في الجزء الثالث والأخير من رواية ديفالو.

# النهاية

هرب إلى جنوب إفريقيا، ليستعيد توازنه، ليعيد ترتيب أوراقه، ليستقر ويواصل صراعه وكشف مخططات المافيا من هناك، لكل شخص حق التكهن في أسباب هذه السفرية، المهم أن هناك حقيقة واحدة وهي أن ديفيد شاهين قد غادر إيطاليا بالفعل تاركًا خلفه الكثير والكثير من الأسئلة.

# الفصل الأول

*جنوب إفريقيا.*

عزيزي ديفيد شاهين أهلًا بك في جوهانسبرج.

الرسالة التي فوجئ بها ديفيد شاهين من صديقه وعدوه الأبدي "جورج".

ما أن قرأ الرسالة حتى اشتعلت نيران الغضب في صدره، دمر الغرفة وحطم كل شيء أمامه، صرخ صرخات متتالية يمكنك سماعها هناك في إيطاليا، حاول الهروب، تنفس الصعداء وهو يغادر إيطاليا أملًا في استعادة ما فقده طوال سنوات حياته في إيطاليا، أملًا في استعادة روحه ونفسه وترتيب أفكاره ومخططاته، لكنه نسى أن الصراع مع جورج لم ولن يتوقف مهما كانت رغبته، لكنه نسى أنه ومهما حاول الهروب، مهما خطت قدماه بلدانًا وهرب من الموت في الشمال والجنوب، مهما صال وجال، لا يمكنه الهروب من القدر مهما حاول عكس ذلك، وجورج هو قدره ونصيبه الذي لا مفر منه، ومعركته مع جورج معركة أبدية لن تنتهي إلا بعد نهاية حياة أحد أطرافها، وما دام الطرفان على قيد الحياة فللحديث بقية يا صديقي والقصة لم تنته بعد.

*"برلين.."*

أخيرًا لقد تحقق حلمي بالهروب من كل شيء، هربت من عائلتي البغيضة التي لم تنصفني، وهربت من زوجي الجبان الذي ظن أنني سأعيش في خدمته، ابنتي الوحيدة فلتغفري ما قمت به فلقد أردت التحرر من كل شيء، يؤسفني أنك ستعيشين حياة بائسة تبحثين فيها عن والدتك، يؤسفني أنك لا تستحقين هذه البداية لكنني أيضًا لم أستحق ما حدث في حياتي، وأنا لست أمًا مثالية للتضحية بما تبقى في حياتي لإرضائك، على أحدنا أن يضحي من أجل سعادة الآخر وقد كان.

من لحظات شرودها مع فنجان قهوتها في أحد مقاهي برلين، جاء الشخص الذي كانت تنتظره، شخص مهيب طويل القامة، أملس ويخفي رأسه بقبعة إنجليزية تقليدية.

دون حاجة للمقدمات قالت:

- لقد أخبرت سيدك بكل شيء، الآن حان دور تنفيذ عهده معي.

قال الرجل الإنجليزي:

- نريد معرفة خطوات ديفيد الجديدة.

هذا اتفاق آخر علينا إنهاء الاتفاق الأول.

بنفس الثبات قال الرجل:

- نحن قادة الاتفاقيات وسيدي لن يقبل أن يضع أحدٌ شروطًا عليه.

ابتسمت يمنى وقالت:

- يقبل أو لا يقبل هذه قواعد لا تخصني، لن أخبرك بأي معلومة أخرى إلا بعد الحصول على مستحقاتي.

لم يصل الطرفان إلى اتفاق كامل بينهما، واستمرت المفاوضات بينهما على الطاولة.

وخلال حديثهما مفًا وبالمصادفة مرت أوليفيا بجوار المقهى، حتى وقعت عيناها على يمنى مع الرجل الإنجليزي، لم تتأخر أوليفيا كثيرًا لمعرفة الرجل فالتي كانت تعمل ولفترة طويلة مع جورج يمكنها معرفة مساعدي سيدها، "الرجل الإنجليزي" ظاهريًا هو القائم بأعمال جورج في برلين، وفي الخفاء هو أحد أهم رجاله للعلاقات الخارجية، رجل ذو صيت وذاع في أوروبا، هو شخص لا يميل للعنف إنما يستخدم قدرته على الإقناع في كسب المفاوضات.

تلصمت أوليفيا في مكانها، ظلت تتابعهم من الجهة الأخرى، قبل أن تُخرج هاتفها وتلتقط لهم أكثر من صورة، ثم عادت للفندق وهي تفكر فيما ستقوم به، هل تحتفظ بالسر وخيانة يمنى لديفيد شاهين، أم تشي بها لتحذره من فخ ينصب له.

في المقاهى كان اللقاء على وشك النهاية.

وهو يخرج من جيبه "شيك" يقدمه ليمنى، قال في هدوء تام: هذه 50٪ من قيمة الاتفاق الأول، أسمعيني يا يمنى، يمنعنا عن أن تتم المفاوضات خطوة واحدة، إن حدثت ستحصلين على ضعف ما اتفقنا عليه.

انتبهت يمنى لكلمات الرجل الذي واصل:

- نريد الجلوس والتفاوض مع ديفيد شاهين، عليك إقناعه بهذه الفكرة.

اعترضت يمنى وقالت:

- هذا مستحيل ديفيد لن يجلس معكم مرة أخرى.

وهو يستعد للنهوض قال:

وتنتظر القرار الإلهي في مصير جسد حبيبها ومنقذها، مصير جسد تعلق معه مصير حياتها بالكامل.

وهي تجفف مدامعها وتتابعه من خلف الزجاج العازل، مر الدكتور المشرف على حالة ياسين، تلهفت عليه كطفلة تائهة تبحث وتتشبث بأي شخص يدلها على الطريق الصحيح.

- كيف الحال يا دكتور؟

بنظرات باردة قال:

- لا نملك الا الدعاء..

شعرت داليدا بأن الأرض انشقت وبلعتها ردت وهي تبكي :

- أرجوك يا دكتور افعل كل ما في وسعك، وأرجوك لا داعي لإخبار رجال الأمن عن الأمر.

تنهد الدكتور وهو ينصرف لوجهته ويقول:

- لوالدك فضل كبير فيما وصلت إليه، تعلمين خطورة إخفاء احتضان جسد ما بين الحياة والموت، خصوصًا إن كان جريمة قتل، لكن سأحترم رغبتك، لا تفكري في هذا الأمر أنا على عهدي معك، الأهم أن ينهض ياسين من مرقده.

فجأة ساد صوت تعرفه داليدا ويعرفه الدكتور.

صوت صفير سلبي يخرج من الأجهزة، معلنًا توقف ضربات القلب بشكل كامل.

اقتحم الدكتور الغرفة، محاولًا إنقاذ ما يمكن إنقاذه.

في هذه اللحظة استسلمت داليدا للأمر الواقع، واجتاحها سكون وصمت تامين، هدوء وصمت ما قبل الانهيار.

*إيطاليا / ميلانو..*

قصر "الملك السادس"

أحد قصور جورج المخصصة للقاء رجال الدولة وذوي المناصب الحساسة على مستوى العالم، في هذا القصر يعقد جورج أغلب اتفاقياته الدبلوماسية، ومنه تخرج أهم القرارات المصيرية التي قد تحدد مصير حياة أو وفاة شخص أو مجموعة أو مدينة بأكملها.

على طاولة الاجتماعات كان الغضب والسخط يسيطران على مجرى الحوار، لا أحد راضٍ عن التسريبات التي حدثت، الهيبة والقوة قناعة يخفي الجميع وراءها القلق والترقب، لقد

انقلب الشعب على السلطة، وسقطت شماعة محاربة المافيا بعدما اكتشفوا تحالفهم معه، كل رجال المافيا ينتظرون القبض عليهم، وكل الساسة المتورطين معهم ينتظرون قرار عزلهم ومحاكمتهم، الشعب ثائر يريد الانتقام من الجميع، والفاتيكان أعلن وأعرب عن قلقه مما يحدث، المافيا تتوعد بالانتقام من ديفيد.. والمتورطون معهم على استعداد للتضحية بكل شيء في سبيل حمايتهم، ما بين تتبعه والانتقام منه، وما بين إظهار تورط ديفيد معهم والقبض عليه ليظهر أمام الجموع مذنبًا وليتحمل ويدفع ضريبة كل أخطائهم وجرائمهم، ما بين محاولة تبرئة أنفسهم أمام الجموع الغاضبة، لحظات صعبة يمر بها الجميع، ولا بد من اتخاذ قرار مصيري يحكم وينهي هذا الجدال.

بمعطفه الأسود وسيجارته العتيقة، ظل ينصت جورج لكل الآراء، ينصت ويتخيل ما سيحدث وتوابع كل قرار، في نفسه كان يريد الانتقام منه، يأمل لو كان بإمكانه شرب دمائه والتمثيل بجسده أمام الملايين، لو كان بإمكانه لعلق رأسه على مدخل مدينة ميلانو، وجعل جسده مداسًا للعامة، لكن هو يعرف أنه حتى هذا القرار لن يُشفي ولن يهدئ جموع الشعب، بل سيزداد الغضب نحوهم، بل سيكبل بالكثير والكثير من القيود والتهم الجديدة، لذلك ظل ينصت لكل الآراء.

فجأة اقتحمت لورين الاجتماع.

انطلقت النظرات نحوها، لم تبال بهم واقتربت من جورج بدلال أنثوي ليس معتادًا عليه..

محاولًا السيطرة على الأمر وسط همسات الرجال قال:

- لورين ماذا تريدين؟

قالت في هدوء تام وكأنها لا تبالي بانشغاله:

- ذات يوم كنت أجلس مع ديفيد، كنا نتحدث عن مخاوفه وعن نقاط ضعفه، حينها كنا حالمين نفكر في مستقبلنا وما ينتظرنا، أتذكر يومها قال: ما زلت لا أملك نقطة ضعف يمكن لأي شخص استغلالها ضدي، وأكثر ما أخشاه بعد أن أتزوج أن تصبح زوجتي وابني هما نقاط ضعفي، أخشى أن يتم استغلالي في هذه النقطة فوقتها سأكون مستعدًا للتضحية بكل شيء في سبيل الحفاظ عليهما.

كلمات أثارت إعجاب الرجال وارتفعت همساتهم.

بينما كانت تواصل لورين حديثها مع جورج وكأنهما في غرفة نومهما:

- لقد انتقمت من ديفيد حين تزوجتني، وحين قتلت زوجته، وسرقت ابنه، ما زلت تملك

العصاة السحرية التي تجعله يخضع لك، ما زلت في موضع قوة، وبإمكانك إجبار ديفيد على الخضوع لك ولكل شروطك.

قاطعها أحد الرجال:

- أوافقك سيدتي، ما زلنا نملك الطفل وهذا سيجبره على الخضوع لشروطنا.

هنا ردت لورين:

- أنت تعرف أين هو الآن؟، لا تستخدم العنف معه، اذهب إليه واطلب الجلوس والتفاوض معه، وحين تذهب إليه اصطحب ابنه في هذا اللقاء، حتمًا سيتغير كل شيء، هو مستعد للتضحية بكل شيء من أجل سلامة جوفاني.

اقتراح نال إعجاب كل الحضور، فهي أكثر من تعلم عن نقاط ضعف ديفيد، والعنف في هذه الحالات لن يولّد إلا مزيدًا من العند والعنف، وما دام جورج ما زال يملك ورقة أخيرة لمباغته ديفيد فلمَ لا يستخدمها للتفاوض معه، على الأقل لوقف نشر التسريبات التي بدأت في الانتشار في الأوساط المحلية والدولية وفي لحظة قد تقرر القوة الخارجية التدخل في أمر البلاد، وهذا ما لم ولن يتقبله الطرفان، سواء المافيا أو رجال الدولة وحتى الشعب لن يُمانع أن يعيش في خراب على أن تتدخل أيادٍ خارجية لتحل الأزمة بينهم.

مهمتك الوحيدة يا جورج هي إقناع ديفيد بالجلوس معك، التفاوض السلمي معه وفرض شروطك عليه، مستغلًا نقطة ضعفه.

قبلّته على شفتيه، ثم غادرت الغرفة ليسود الصمت على الجميع.

"علينا الجلوس والتفاوض معه بكل سلام وهدوء لإيجاد حل سلمي لهذه الأزمة"..

اختتم جورج كلمته وانتهى الاجتماع.

*" جنوب إفريقيا."* .

بعد أن هدأ ديفيد شاهين، وأدرك أنه لا مفر من القدر، الآن عليه الاستعداد لما ينتظره، في غرفته، كانت تجلس ماري ومروان، الاثنان يغلب عليهما التوتر والقلق، ينتظران القرار المصيري.

قال مروان محاولًا قطع هذا الصمت:

- صديقي بين الحياة والموت، لن أتحمل كثيرًا هذا الصمت.

ردت ماري:

- لقد تواصلت مع تالا وأخبرتني أنها تتواصل بشكل دوري مع داليدا، سيعود ياسين، أنا أثق في هذا.

رد مروان:

- لا مجال للشك والثقة، سيدي أنا أومن بك ولن أتخلى عنك مهما حدث، أنا رجلك يا سيدي، لكن المعذرة، قرارك دمر خططنا، لقد تفرقنا وتشردنا بعدما كنا نملك قوة ضاربة تسعى لتحقيق أهدافنا، وبعد كل ما حققناه، الآن تفرقنا وسقط رجالنا، بل وأصبحنا مهددين بالقتل في أي لحظة.

وهو يشاهد المقاطع المرئية عما يحدث في نابولي قال سراج:

- إلى الآن الحكومة لم ترد على كل هذه التسريبات، هذا يعني أن شيئًا ما تنوي القيام به.

ثم وموجهًا كلماته لمروان :

- لقد أراد لكم الحياة بشكل أفضل يا مروان، لقد وعدكم بالثراء وقد كان، وأصبح لكل شخص منكم ما يكفي لتأمين حياته، لقد وفى بوعده معكم وأراد الخروج الآمن بكم ولكم، سيدي أراد بعد تأمين حياتكم ماديًا أراد تأمينها من كل الجوانب، لكل قرار توابع، لا بد أن يتحملها الجميع.

قال مروان معترضًا:

- الرغبات السابقة لن تمنع ما الواقع الذي نعيشه الآن يا سراج، الآن علينا إيجاد حل لهذه الأزمة، وإلا سيتم تصفيتنا في مكاننا.

رن هاتف ماري:

- سيدة ماري، لا يهم من أكون المهم إنني أريد إخبارك أن الحكومة والمافيا قررا الجلوس معكم على طاولة المفاوضات، للخروج من هذه الأزمة.

ظلت ماري تسمع كلمات الشخص المجهول، ثم ختمت:

- حسنًا سأخبره بما حدث ونتخذ القرار المناسب.

وضعت ماري الهاتف بجوارها، ثم نظرت إلى ديفيد وقالت:

- جورج والحكومة ينويان الجلوس معنا والتفاوض لإيجاد حل لهذه الأزمة.

لم يرد ديفيد على كلمات ماري.

قال سراج بثقة وتشعر كأنه يعرف ما سيحدث:

- هذا طبيعي، سيحاولون بشتى الطرق الهروب من هذه الضغوطات التي تلاحقهم في كل مكان، نحن في موضع قوة الآن علينا أن نفكر في خطواتنا الجديدة، إما العند ومواصلة ما بدأنا وإما الجلوس والتفاوض معهم للخروج بأقل أضرار ممكنة.

قال مروان غاضبًا:

- الجلوس والتفاوض مرة أخرى هذا هراء، إما مواصلة القتال وإما الاستسلام عدا ذلك فنحن نتصرف كالصبيان، نحن في موضع قوة فلنواصل الضغط عليهم بكل الطرق الممكنة، حتى تتحول حمايتنا لمسألة رأي عام، من يحتمي بالشعب لن يتعرى أبدًا.

احتفظت ماري بالصمت.

مما جعل سراج يواصل ردوده على مروان:

- لكننا نملك أهم نقطة ضعفه، وهي ما قد تجعلنا نتفاوض معهم من جديد.

نظر مروان لسراج منتظرًا رده.

لا تنسى أن جوفاني ابن ديفيد لا يزال تحت قيد ورحمة جورج.

سخر الضابط وقال:

- نحن لسنا في محكمة الأسرة، هذه مشكلته ولا علاقة لنا بها.

هنا انجذب ديفيد للحوار ونظر لمروان بعدوانية.

الذي أدرك بعد هذه النظرة، أنه قد ارتكب خطأ قد لا يغتفر فيما بعد.

كعادته حين يغضب يصمت ويتمهل، لكن هذه المرة كان صمته، لأنه لا يملك طاقة للرد على أي محاولة استفزاز.

قالت ماري محاولة تهدأ الأجواء:

- أنا أعرف أنك ستتخذ القرار المناسب لنا جميعًا يا ديفيد.

خرج ديفيد إلى الشرفة وظل يتأمل الفراغ وهو يفكر ويحدث نفسه:

- مرة أخرى يا ديفيد عليك اتخاذ قرار مصيري ما بين مواصلة القتال مع المافيا، وما بين الانسحاب.

مرة أخرى يا ديفيد ما عليك اتخاذ قرار مصيري سيؤثر حتمًا على حياة كل أعضاء المجموعة.

في المرة الأولى وحين قررت صنع هذه المجموعة كان هدفك الفوز بهم لمصلحتك الشخصية ولتحقيق مصالحهم وأهدافهم، ونجحت في أغلب أهدافك، وبدلًا من أن تستمر مسيرتك وتفرض سيطرتك أكثر على المافيا، وتثبت أقدام مجموعتك في المراكز المرموقة، قررت فجأة الانقلاب على الجميع رافعًا راية السلام، قررت التوبة عن مسارتهم وفضح كل مخططهم، وكما قال مروان فقد نسيت أن يديك ملوثة بالدماء، كان يكفي أن تخرج من هذه الحفرة القذرة بسلام، بدلًا من كسب عداوات الجميع والآن عليك اتخاذ قرار جديد، يعيد ترتيب حياتهم جميعًا، قرار لا يتحمل أي نسبة للخطأ مرة أخرى.

بعد نصف ساعة خرج ديفيد إليهم وقال:

- غدًا سنجتمع جميعًا هنا في جنوب إفريقيا، اخبر الجميع بذلك.

تساءل مروان عن مصير ياسين؟

أجاب الرئيس:

- غدًا ستعرف كل شيء يا مروان.

خرج ديفيد إلى الحديقة وهناك اتصل بجورج:

- أنا في انتظارك

بهذه البساطة؟

أظن أنكم في عرض كل دقيقة للخروج من هذه الأزمة.

تعجبني سرعتك في اتخاذ القرار.

متى سنجتمع؟

غدًا قبل السابعة مساءً.

وهو كذلك يا صديقي القديم.

أغلق ديفيد الهاتف وقد بدا عليه أنه اتخذ قراره بالفعل فيما سيحدث.

# الفصل الثاني

وعدت من المعارك لست أدري..

علام أضعت عمري في النزال.

العاشرة صباحًا/ جنوب إفريقيا

في حديقة الفندق جلس ديفيد يحتسي قهوته في هدوء تام، لقد توقع المافيا ورجال الأمن أن يكون التواصل والجلوس مع ديفيد أمرًا في غاية الصعوبة، قد يحتاجون لكل الحيل الممكنة وغير الممكنة للجلوس معه، لكن ديفيد فاجأهم بموافقته السريعة على طلبهم، مما يجعل كل الاحتمالات ممكنة.

من بعيد وبخطوات هادئة اقتربت ماري من ديفيد وجلست بجواره، ثم بدأت حديثها سريعًا:

- ماذا سنفعل يا ديفيد؟

- سنتخذ القرار الصائب، لا يمكن التفكير بأنانية، لقد ورطت الكثير منهم والآن عليك اتخاذ قرار يصلح ما أفسدته.

- أتمنى أن نخرج بأقل أضرار ممكنة.

قال ديفيد:

- سيكون قراري في مصلحة الجميع، ثقي في هذا.

اعتذر ديفيد لهم وعاد لفرقته، حتى يستعد للقاء مع جورج.

- ثرى ماذا سيفعل ديفيد يا سراج.

أجاب الفيلسوف:

- في العادة يتخذ المرء قرارات مصيرية من وقت لآخر، في حياة ديفيد الأمر يختلف فلقد أجبرته الدنيا على اتخاذ الكثير من القرارات المصيرية، التي غيرت حياته وحياة المحيطين به في وقت قصير جدًا، هو لم يتعاف من قراره الأول حتى يتخذ قرارًا آخر، والحقيقة لا أستطيع أن أجزم أنه مستعد ومهيأ لاتخاذ قرار مصيري جديد، ومع ذلك أظن أن ديفيد سيميل في قراره إلى النهاية.

بتعجب تساءلت:

- أي نهاية تقصدها؟

أجاب وهو يداعب كلب مروان:

- نهاية كل شيئ.

إجابة غامضة لم تفهمها العجوز، لكنها لا تملك أي حيلة إلا الانتظار لترى ما سيحدث.

بعد ساعة قد وصل أفراد المجموعة، تالا، أوليفيا، يمنى، يرأسهم مروان وسراج وماري.

جلس في الحديقة حتى خرج عليهم ديفيد وقال مسرعًا:

- استمتعوا بوقتكم، سنجتمع في نهاية اليوم.

ثم اصطحب سراج معه واتجهوا إلى اليخت الذي سيشهد اجتماعهم مع جورج والمتورطين معهم من رجال الدولة.

ما أن وصلوا حتى استقبلهم حارس على الباب، طلب تفتيشهم مع رفض دخول الهواتف المحمولة، لم يعترض ديفيد على طريقة الحارس المهينة، الأمر الذي أثار غضب سراج، لكنه التزم الصمت احترامًا لموقف سيده.

كانت الباخرة ضخمة أشبه بفندق عائم في عرض المحيط..

ظل الحارس معهم حتى وصلوا إلى صالة الاجتماعات..

على المقعد المقابل للمقعد الرئيسي جلس ديفيد، وعلى يساره جلس سراج، وثلاثة رجال يجلسون متفرقين، ونظرات الغضب تسيطر عليهم، لم يلق ديفيد التحية، بل جلس وظل يتأمل ملامحهم، هو يعرفهم وهم يعرفونه جيدًا، في مثل هذه اللحظات لو تحكمهم رغبتهم، لانهالوا عليه حتى أسقطوه جثة هامدة، لكن ثمة قوانين وأعراف تحكمهم، تمنع الجميع من اتخاذ أي خطوة عدائية اتجاه الآخر.

اقترب سراج من ديفيد وسأله سؤالًا يغلب عليه الخوف:

- هل تثق في هؤلاء الرجال؟

أجاب ديفيد وهو يواصل نظرته نحوهم:

- يمنع استخدام القتال على طاولة المفاوضات، هذا هو العرف والقانون.

وهل هؤلاء يؤمنون بالعرف والقانون؟

أجاب بهدوء:

- لا يملكون رفاهية الإيمان أو الكفر به، هم مجبرون على الخضوع له.

لحظات معدودة حتى دخل جورج، لكن ما لم يحسبه ديفيد هو حضور جورج رفقة لورين وجوفاني، ما إن دخل حتى وقف الرجال إلا ديفيد الذي نظر له ساخرًا، لم يتوقع ديفيد أن يمزج جورج عائلته في مثل هذه الاجتماعات، تبادل ديفيد الأب نظرات متفاوتة مع جوفاني ابنه الذي سرق وحرم منه، بينما كانت لورين تسرق من حين لآخر نظرات لديفيد حبيبها الذي ضحى بكل شيء ولم يفز بها، لقد انتصر جورج في هذه الجولة وقبل بداية الاجتماع، فحين تخرج خصمك عن تركيزه بحدث غير متوقع فلقد انتصرت عليه قبل بداية المفاوضات، وهذا ما حدث بالضبط، لا يمكن التشكيك أبدًا في قدرة وذكاء جورج، لا يمكن أبدًا الاستهانة به وبقدرته على كسب المعارك النفسية، ومن ينسى أن جورج كان السبب الأعظم والأهم في شقاء ديفيد، في كل المعارك التي خاضها، في كل هزائمه وخيباته، كل الأحلام التي حلم بها ديفيد وحققها وفاز بها جورج، كل الأمنيات التي سعى ديفيد لها ووصل لها جورج بكل جدارة، كل العقبات التي وضعت أمام ديفيد واجتازها جورج، ومن ينسى ذاك الذي فاز عليه في كل شيء، ولم يترك له إلا الهزائم والخيبات، بعدما استدركه لحياة، معارك لا تخصه، بعدما نجح في أن يجعل منه شخصًا آخر لم يتمنه أبدًا.

شعر سراج بأن ديفيد على وشك أن يفقد تركيزه فهمس له في أذنه:

- نحن هنا لتحقيق مطالبنا، سيدي لا تنسى أننا في موضع قوة.

افتتح جورج الاجتماع بشيء من السخرية:

- رحبوا معنا بالرجل التقي الثوري الذي أراد تطهير بلادنا من المفسدين، الرجل الذي قلب بلادنا الجميلة رأسًا على عقب وحطمها بدلًا من إعمارها وحمايتها من المعتدين.

قال ديفيد:

- حين تتحدث العاهرة عن الشرف.

ضحك جورج وواصل:

- على أي حال نحن لسنا هنا من أجل الحديث عما حدث، بل الحديث عما سيحدث، أنت متورط معنا في كل تهمة ويديك ملوثة بالدماء، حياتك مهددة بالخطر مثلنا تمامًا، ما قمت به بكل غباء جعلنا جميعًا في موضع اتهام، ولن ينجو أحد منا سالمًا، لذلك علينا إيجاد مخرج لحماية الجميع.

ابتسم ديفيد لجورج وقال:

- هل تظن أن شخصًا مثلي قد يهتم أو يبالي أن هددت حياته بالخطر، كنت أظن أنك أذكى من هذا، لم آت إلى هنا من أجل حماية ما تبقى من حياتي.

هنا رد أحد الرجال المتورطين وقال:

- إن كنت لا تملك ما تخاف عليه، فنحن نملك عائلات وحياة ومناصب نخشى عليها.

حمل جورج ابن ديفيد على قدميه، وقال وهو يداعب الطفل:

- لا تتسرع يا سيدي، هو أيضًا يملك ما يخشى عليه.

ابتسمت لورين لرد فعل جورج ثم قالت لديفيد:

- ما زالت أمامك فرصة أخرى لتعويض ما فاتك يا ديفيد، ما زالت أمامك فرصة للحفاظ على ما تبقى من حياتك.

نظر ديفيد للورين ثم قال موجهًا كلماته لجورج:

- ماذا تريد مني بالضبط يا جورج؟

ابتسم الأخير وقال:

- تهدئة الأجواء حولنا، أن تخرج للعامة وتقول إن كل هذه الادعاءات ما هي إلا افتراءات علينا، وإنك افتعلت كل هذا لبعض الخلافات مع أحد رجال الدولة.

- بهذه البساطة؟

هز جورج رأسه:

- نعم بهذه البساطة.

- وما الذي يجعل الناس يصدقونني؟

واصل جورج:

- أنت شخص حسن السمعة، رغم أن الشعب يعرف أنك عملت معنا لفترة طويلة، لكنهم يثقون في نزاهتك ومبادئك.

قال ديفيد وهو يشعل سيجاره الكوبي:

- هذا يعني أنني سأكون كبش فداء لكم.

هنا قاطعه أحد الرجال المتورطين:

- سنحميك من التورط الأمني، هذه مسؤوليتنا، سنحميك من أي قرار سياسي معادٍ لك.

- وإن لم أوافق؟

قال جورج:

- لن أكون القبطان الذي يعزف وقت غرق السفينة، ما دام الموت سينال منا جميعًا فلن أواجهه إلا بعدما أتخلص من كل شخص يملك جيناتك.

ثم نظر لجوفاني وهو يداعب شعره:

- هذا الصغير لا يستحق الموت أبدًا.

تنهد ديفيد وتبادل نظراته مع سراج الذي كان يثق أن سيده لن يقبل بهذا العرض.

لحظات كانت كفيلة أن يقول ديفيد موجهًا نظراته لهم:

- أريد الحماية لابني ورجالي، أن يعيشوا حياة هادئة سالمة، عاهدوني أن يحدث هذا.

ابتسم جورج معلنًا انتصاره مرة أخرى وقال:

- لك ما تريد، شرط أن يتم نشر المقطع في ظرف 24 ساعة.

هنا نهض سراج غاضبًا:

- أنا لا أثق في هذا الرجل.

شد ديفيد يد فيلسوفه الصغير، واعتذر لجورج وللرجال عن موقف سراج ثم واصل:

- وأنا كذلك لا أثق في أمركم، لذلك لقد تم اختراق كاميرات المراقبة الخاصة بالباخرة، بما فيها هذه الغرفة.

نظر جورج لديفيد نظرات غاضبة.

لم يبال ديفيد بنظراته وواصل:

- هذا الاجتماع موثق بالصوت والصورة حال حدوث أي خلل في اتفاقنا سيتم نشره في العلن وأمام العامة، لن يهمني المدة التي قد يحدث فيها أي خلل في هذا الاتفاق، لكن الأهم أنني أملك ما يجعلني أنفذ وأوافق على عرضكم، وأنا مطمئن بأنه لن يحدث أي غدر في اتفاقنا.

غضب أحد الرجال الموجودين، لكن جورج تظاهر بالهدوء وابتسم وهو يقول:

- لكنني أثق بك وأثق بأنك لن تخلف اتفاقنا.

عانق جورج الطفل جوفاني ثم قال له:

- اذهب لأبيك.

نظر الطفل لديفيد وهو لا يفهم ما يحدث.

هنا اعترضت لورين:

- هذا ليس اتفاقنا يا جورج.

لم يرد جورج عليها ونهض لمصافحة ديفيد وهو يعانق الصغير:

- إن أردت الحياة هنا في جنوب إفريقيا لن يتبعك أحد وستبقى في حمايتنا في أي رقعة على الأرض، هذا عهد بيننا يا صديقي القديم.

أتمنى ألا نلتقي مرة أخرى.

كانت المنافسة بيننا صعبة، ولقد كنت ألد وأشد أعدائي.

هزمتك مرات ومرات وهزمتني..

استدرجتني لمعارك لا تخصني..

واستدرجتك لمعارك لا تخصك..

لكنها كانت حرب ليثبت كل منا أحقية في الحياة..

وأظن أنني فزت بها.

الآن معك ابنك والأمان لك ولمجموعتك.

وأنا معي ما كنت تحلم به ليالي وليالي..

لكنها الدنيا لن تفوز بكل شيء..

ولن تخسر كل شيء.

حان وقت إسدال الستار على قصتنا.

كن سعيد في حياتك الجديدة.

وحاول أن تنسى كل ما حدث بيننا.

أتمنى أن تبدأ حياتك الجديدة في هدوء وسلام.

كما تريد تمامًا.

أتمنى ألا نلتقي مرة أخرى يا صديقي القديم.

خرج ديفيد وهو يحمل طفله ويودع لورين، بنظرة تبدو الأخيرة لهما.

في هدوء تام خرج معلنًا نهاية معركته الطويلة مع جورج.

في هدوء تام خرج بعدما صال وجال في كل مكان.

انهزم وانتصر.

عاش ليالي مرة قاسية.

وقضى ليالي حلوة عاش فيها بنشوة الانتصار.

الآن انتهت معركته مع جورج.

نهاية أبدية لا رجعة فيها.

في الطريق إلى اجتماع الأولاد، كان سراج في حالة ثورة، ما زال لا يفهم، لا يستوعب ما حدث، لقد خان ديفيد اتفاقه مع الأولاد، لقد استسلم تمامًا لجورج ورجاله، استسلم وخضع لشروطهم وأوامرهم دون أي مقاومة منه.

سيدي..

قبل أن يسأل سراج قاطعه ديفيد:

- هي النهاية يا سراج، لحمايتنا جميعًا، لا بد من التضحية ولقد تعبت من خوض المعارك.

وصل ديفيد وسراج إلى الفندق، وهناك كان ينتظرهم أفراد المجموعة الذين اندهشوا حينما رأوا جوفاني مع ديفيد.

جلس ديفيد فوزًا دون أن يبالي بنظراتهم، ثم قال لهم ليقطع كل تساؤلاتهم:

- لقد عاهدتكم بحمايتكم، حين اتخذت قرارًا بفضح المافيا وتواطؤ بعض رجال الأمن معهم، كان لهدف أن أوفر لكم الحماية والأمان لتبدأوا حياتكم في سلام، وتعيشوا حياة مستقرة، تلك التي كانت حلمًا لكم جميعًا، وأظن أنني نجحت في هذا، من الآن وحسب، أنتم أحرار، لن يعترض أحد طريقكم ولن تتم مطاردتكم في أي بلد، أظن أنني استطعت بطريقة ما تأمين حياتكم المادية، لتبدأوا حياتكم بطريقة أفضل بعيدًا عن الدماء والمعارك

والصراعات، والآن أجتمع بكم لأخبركم بنهاية قصتنا، نهاية قصة عائلة ديفالو، ليفكر كل منكم في حياته الجديدة، ليفكر كل منكم في بدء حياة جديدة بعيدًا عن المعارك والصراعات ورائحة الدماء والرغبة في القتل والانتقام، استمتعوا بما تبقى في حياتكم بعيدًا عن الضجيج، فالدنيا بكل ما فيها لا تستحق كل هذه المعارك للفوز بها، هذا اللقاء الأخير بيننا، وإلى اللقاء في موعد أقل قسوةً.. ربما.

نهض ديفيد من مكانه وهو يحمل طفله وسط صدمة الجميع، نهوض لم يعط أي فرصة لأي شخص أن يسأله عن قراره، كانت الصدمة أكبر من الاستيعاب، فجأة وبعد كل هذه المعارك انتهى كل شيء في لمح البصر تمامًا كما بدأ، انتهت القصة بكل ما فيها ولم يعد للحديث بقية في قصة ديفالو.

النهاية.

*بعد أربعين عامًا..*

عجوز يجلس في حديقة منزله، تجاعيد الزمن تُغطي ملامحه، وشعره الأبيض ما أن دل فيدل على مرور العمر، يجلس العجوز وهو يتأمل الطيور التي تحلق في السماء، يمنعه عن التحليق معها عكازه الذي يساعده على الحركة، أشجار البرتقال تزين ممرات الحديقة، والشمس الساطعة تُناسب الصغار الذي يلعبون بجواره.

ثم وماذا حدث بعدما افترقت عائلة ديفالو يا جدي.

ابتسم العجوز لحفيده، داعب شعره وقبّله على جبينه ثم واصل سرد القصة:

- وانتهت قصة العائلة لكن بدأ معها قصة جديدة لكل منهم.

"المعالج النفسي سراج سقراط"

بعد قرار ديفيد شاهين وانهيار المجموعة، عدت إلى مصر من جديد، العودة إلى غرفتي الوضيعة التي أطلقها عليها أصدقائي القدامى "هنا القاهرة"، هذه الغرفة التي مر وعرفت فيها الكثير والكثير من الشخصيات، الذي لن أنساهم أبدًا مهما طال الزمن، هنا تعرّفت على سوما، دهب، فريدة، هنا جلسنا معًا على طاولة واحدة ونحن نبحث عن صاحب رسالة الانتحار، وهنا ودعت يوستانيا العجوز، التي كانت بمثابة أمي وصديقتي، عدت إلى مصر مخيب الآمال، تقول الأسطورة إن الإله خلق الناس نوعين:

- نوع يحبه الإله.

فيحقق كل منا أحلامه، تتحطم أمامه كل العقبات الصعبة، يتزوج من يحب، يفوز بوظيفة

مرموقة، ينال الحب والاحترام من العالم، ويعيش في هدوء تام، سعيد بما يحدث في حياته.

هؤلاء هم أحفاد الفضيلة، الذين خضعوا لأوامر الإله فرضي عنهم وكافأهم بما يريدون ويتمنون.

نوع آخر يكرهه ويرفضه الإله.

فيعيش في الحياة منبوذًا، كل أحلامه محكوم عليها أن تتحطم أمام عينيه، أهدافه خلقت ليحققها غيره، مكتوب عليه الفشل حتى قبل أن تبدأ محاولاته، قلبه معرّض دائمًا للكسر، تخذل كل توقعاته وآماله، ويعيش في بؤس وتعاسة لا تنتهي.

هؤلاء أحفاد الرذيلة، الذين تمردوا على الأوامر وقرروا التحدي والعند، فكان مصيرهم البؤس والتعاسة الأبدية.

وهناك أقلية لم تخضع بشكل كامل لأوامر الإله ولم تعترض عليها.

بل قرروا الصمت وانتظار ما سيحدث.

عاشوا مشتتين، فلا هم من أهل الفضيلة الأبرار الذين تتحقق كل أحلامهم وأهدافهم وأمنياتهم، ولا هم من أهل الرذيلة المنبوذين، التي تأبى الحياة الاعتراف بهم.

أولئك الذين قررت الدنيا أن تجعلهم في المنتصف، ما بين إشراقة الأمل وغيوم اليأس، يحققون حلمًا وتعاندهم الدنيا في مئات الأحلام، يعبرون الكثير من الحواجز والعقبات، وتقرر الحياة أن تضع أمامهم عقبات وحواجز أشد وأكثر قوةً منهم، عالقين في المنتصف بين كل الأشياء وعكسها، عالقين بين لحظات الأمل واليأس، الحب والفراق، القوة والضعف، والفوز والهزيمة.

وأنا أنتمي لهؤلاء.

تنصفنا الحياة مرة وتخذلنا ألف مرة، نعبر طريقًا ونتعثر في مئات الطرق، تنجح محاولة وتفشل المئات، تتحقق أمنية وتبقى مئات الأمنيات عالقة في السماء، نحاول لإيماننا أن اليأس لم يُكتب لنا، ونركض طريقًا طويلًا ونحن على يقين أن القدر لن يستجيب لمحاولاتنا ولن نصل إلى واجهتنا، نحن أهل المنتصف من كل شيء، الذين حققوا كل شيء ولم يحققوا أي شيء.

ستجدنا في الزحام أكثر الناس صمتًا، وفي خلوتنا أكثر الناس حماسةً وشغفًا، نخجل من التعبير عن مشاعرنا، وإن عبرنا تشعر أننا نملك في قلوبنا حب العالم، نعرف كيف نواسيك

عن ألمك وسكاكين الآلام تقطع قلوبنا، ونعرف كيف نطمئن خوفك وقلوبنا ترتجف، ونجيد الاستماع لمأساة الآخرين ونحن في قاع المأساة، نمدك بالأمل ونحن غارقون في البؤس، ونمد لك يد الدعم والعون ونحن في حاجة لمن يشد بنا، ولهذا السبب قررت الكتابة عنهم، قررت الكتابة عن نفسي وعن كل هؤلاء الذين ينتمون للصفوف الأخيرة في مدرسة الحياة.

من هدوئي وشرودي قاطعني صوت الهاتف:

- سراج بك سقراط، صباح الخير.

اللعنة! أعرف هذه الطريقة السخيفة التي يتحدث بها مجدي مديري المباشر في الشركة، أعرف أنه لا يتصل بي صباحًا إلا بعد حدوث مصيبة.

قلت متظاهرًا بأنني ما زلت تحت تأثير النوم:

- صباح النور يا مجدي، ماذا حدث؟

قال:

- فرح هانم هاتفها مغلق، هنا الكثير من العملاء الغاضبين ينتظرون قدومها، أنت الوحيد الذي بإمكانه إنجاز مهامها.

- تعال فورًا.

همهمت:

- ينعل يومك ويوم فرح واليوم الأسود الذي تعينت في هذه الشركة.

- ماذا قلت؟

- لا شيء، سأكون أمامك خلال نصف ساعة من الآن.

أنهيت المكالمة ثم نهضت وارتديت ملابسي ذاهبًا إلى عمل، وأسوأ ما قد يحدث لموظف أن تستدعي للعمل يوم إجازته، صحيح أنني أحب العمل في مجال التأمين على الحياة، أحب فكرة أن تطمئن العميل أن حياته مؤمنة حتى بعد وفاته، المغريات التي تعرضها علي والتي لن يجنيها إلا بعد وفاته، فكرة هزلية وساخرة وتستحق الدراسة، قدرتك على الإقناع في هذا المجال في حد ذاته شيء يحسب لك، وشهوة التشبث بالحياة للحد الذي يجعل هؤلاء الحمقى، يدفعون الأموال لتأمين حياتهم أنا الذي قد أدفع من جيبي الخاص في سبيل أن ينهي شخص ما حياتي.

وصلت إلى المكتب وسط حالة من غضب وسخط كل العملاء الذين ظنوا أنني المتأخر عن

موعد عملي، هؤلاء الحمقى لا يعرفون أنني جئت اليوم مغصوبًا، جلست معهم واحدًا تلو الآخر أحاول إنجاز أكبر قدر مستطاع منهم.

دخل مجدي بثقل دمه وقال:

- هذه ضريبة الصداقة في العمل، لو لم تكن فرح صديقتك لما جئت يوم إجازتك.

قلت وأنا مشغول في كتابة التقارير:

- مجدي، لو نطقت بكلمة واحدة سأعود إلى المنزل، من فضلك أتركني وشأني.

ضحك وهو يخرج من الغرفة:

- ستنتهي أيامك وأنت غارق وسط هذه الكومة من الأوراق.

مر الوقت وأنجزت أغلب الأعمال المؤجلة.

خرجت من الغرفة ثم توجهت إلى فرح صديقتي التي تعرّفت عليها فور عودتي إلى مصر، لو كان في هذه الوظيفة شيء واحد يهون الضغوطات التي أعيشها فهو أنني تعرّفت على فرح، امرأة في منتصف الثلاثينيات لكن ملامحها تبدو وكأنها في العشرينيات، خمرية اللون حادة الملامح وشعرها الغجري الذي أحبه، للوهلة الأولى تشعر بأنها فتاة في كامل طاقتها وقوتها، للوهلة الأولى تنجذب لها وتتمنى لو كانت رفيقتك، طريقتها في الكلام فوضوية وعشوائية، الحماس يغلب عليها، لا يمكن توقع أفعالها ولتهورها الدائم تجذبك لتشعر نحوها بالمسؤولية، المسؤولية اتجاه امرأة تلاعبت الحياة معها بكل وأقذر الطرق، هي من هؤلاء الذين لم يحالفهم الحظ ولو لمرة واحدة، وبطريقة ما فأنا وهؤلاء بيننا رباط، ينجذبون إليّ وأنجذب لهم، نسخر من أحزاننا، نضحك عليها، نبكي أحيانًا، نتألم ونرقص على آلامنا، نغني ونتباهى بنهوضنا بعد كل تعثر أليم كاد يحطمنا، ولم ينجح ولا ننسى تلك الأيام التي بكينا وتحطمنا فيها مرات ومرات.

أن اللحظات العصيبة التي نعيشها لا تُمحى من ذاكرتنا أبدًا، قد نتجاوزها، نتأقلم ونعتاد عليها، نتمرد عليها ونسعى بكل طاقتنا لنتغافل عنها لكننا لا نتبرأ منها، ليس حبًا فيها كما يظن البعض إنما هي تشكل جزءًا أصيلًا منا، نحن من صناع هذه اللحظات ونحن أهلها، الليلة التي بكيت فيها من قسوة الآلام حتى سقطت على الأرض من فرط التعب، والليلة التي تألمت فيها وأنت لا تعرف سبب الآلام ولا تستطيع تحديد أي جزء في جسدك يؤلمك، تشعر به في كل مكان لكنك لا تستطيع تحديد مكانه، الليلة التي صرخت فيها من حدة الخيبات ولم تسمع إلا صدى صوتك ليخبرك أنك شخص وحيد لا تملك من تخبره بمأساتك ليواسيك

عما تشعر به، كيف تنسى الليلة تم استبدالك فيها، والليلة التي اكتشفت فيها أنك وبعد سنوات من الركض لم تتجاوز خط البداية، أو تلك الليلة التي شعرت فيها بالخذلان من كل شيء حتى من نفسك، وتلك الليلة التي نمت على حطام أحلامك بعد سنوات محاولًا بناءها وتشيدها، كيف تنسى الليلة التي شعرت فيها بالخوف من كل شيء حولك؟ والليلة التي سمعت صوت قلبك وهو ينكسر ويتفتت ولا تملك أي قوة لإنقاذه؟، تلك الليلة التي انهالت الضغوطات عليك للحد الذي أجبرك على الجلوس أرضًا لأن قدميك لا تقويان على الوقوف، الليلة التي شعرت فيها أنك بلا قيمة حقيقة وأنك كنت وطوال حياتك تسعى دون أن تحقق شيئًا، تركض في مكانك، تغادرك الأيام ولا تغادرها، عالق بين المحاولات وبين شعورك باليأس تراود الأمل فيبتسم لك البؤس، تداعب الحب فيعانقك الهجر، تسعى للوصول فتعود لنقطة الصفر، ثمة ليالٍ لا تنسى ولا تُمحى من الذاكرة مهما تناسينا، مهما تغافلنا، مهما تعايشنا معها، وفي اللحظة التي نقول فيها لقد استطعنا بالفعل نسيانها، تعود الدنيا بك إلى نقطة الصفر من جديد، لتخبرك بأن النسيان محال.

وصلت النادي وهناك كانت تنتظرني فرح، تجلس في طاولتها المفضلة، تسمع الأغاني من سماعتها الصغيرة، وعلى قدميها تداعب قطتها الصغيرة.

- متى ستتوقفين عن أفعالك الصبيانية يا فرح؟

- أنت معالجي النفسي ومن حقي الاستعانة بك.

قلت غاضبًا:

- الاستعانة بي في أمورك وأزمتك الشخصية لا لأحل محل عملك يا فرح.

ردت دون أن تبالي بغضبي:

- لقد اعترف لي بمشاعره يا سراج.

تنهدت ثم قلت: أي منهم؟

ضربتني على كتفي وقالت:

- كفاك سخافة، مهاب الفقي يا سراج.

واصلت بشغف لم أره في عينيها من قبل:

- كنت في غاية السعادة، طوال حياتي كنت أتمنى هذا الشعور الدافئ، أسمع عنه ولم أصدق أنني سأعيشه أبدًا، لقد اتصل بي وقال إنه ينتظرني في مطعم إفريست، مكاني

الفضل الذي حدثته عنه، حاولت الاعتذار عن عدم الحضور، لكنه أصر على حضوري بطريقة أجبرتني على الموافقة، ولطالما كنت جادة في التواصل معه فأنت تعرف حساسية وصعوبة التعامل مع الرجال في مجتمع يكرّس عيونه لتحركات كل امرأة مطلقة، يراقبها في كل حركة، قد يتدخل في حياتها أيضًا وكأن طلاقها وصمة عار تطاردها في كل مكان، أنت تعرف أنني امرأة جادة، تقدّر صعوبة الموقف وتتعايش مع الوضع المذري الذي لا يعجبها، تتحمل سخافات الأهل وأحيانًا الأصدقاء، وطليقي ذاك المجنون الذي يطاردني في كل مكان، لا أحب المغامرة والمخاطرة، لذلك كنت أضع حواجز بيني وبين أي رجل يحاول الاقتراب مني مهما كانت نيته، عدا مهاب الفقي، الرجل الوحيد الذي لم أتمالك نفسي وسمحت له بالاقتراب مني، وحين دعاني أمس لم أتردد في استجابة الدعوة، رغم كل مخاوفي التي فكرت فيها، لكن كان في نفسي أقول "لن نخسر شيئًا من هذا اللقاء".

نظرت إليّ ثم واصلت: أعرف أنك تقول في نفسك الآن مع ضحكاتك السخيفة "لن نخسر شيئًا من هذا اللقاء"، تلك الجملة التي كانت سببًا في تدمير حياتي، لكن صدقني هذه المرة تختلف.

أشعلت سيجارتي وأنا أواصل التحديق فيها، صامتًا تمامًا، تاركًا لها مواصلة الحكي:

- ارتديت أجمل ملابسي، لم أذهب في موعد غرامي، طوال حياتي لم أذهب لموعد غرامي وكنت أشعر بأن هذه المرة تختلف عن كل اللقاءات التي جمعتني به، اتجهت إلى المطعم فرحب بي العمال الذين يعرفونني جيدًا، ثم أشاروا ناحية مهاب الفقي، هذا الرجل ينتظرك منذ قرابة ساعة، بطلته وهيبته التي تُثير إعجابي وقفت أمامه وبذوقه العالي وشهامته التي أحبها، وقف لينحني انحناءة الراقي، قبّل يدي ثم فتح الكرسي وانتظرني حتى أجلس ثم عاد لكرسيه، أحب مثل هذه الحركات التي أراها جزءًا أصيلًا من شخصية رجل يقدر ويحترم الأنثى.

- تبدين في غاية الجمال يا فرح.

ابتسمت متظاهرة بالثقة، ثم سألته بنبرة يغلب عليها الجدية:

- أخبرتني أن هناك أمرًا ضروريًا يستدعي حضوري حالًا.

لملم عاطفته التي ظهرت في البداية ثم قال:

- بالطبع بالطبع، الحقيقة أن مستوى شرف الدين متدنٍ جدًا يا فرح، الطفل يمر بحالة من الصعود والهبوط في مستواه، المزاجية تسيطر عليه، فجأة يصبح في قمة الهدوء وفجأة يصبح وحشًا سائرًا لا يمكن السيطرة عليه.

واصل حديثه بجدية عن شرف الدين، كنت أنظر إليه صامتة تمامًا، في نفسي أعرف أنه يستدعي أي حديث جانبي يُخفي حقيقة إصراره على حضوري، في نفسي أحببت مراوغته وطريقته، وتلعثمه، مهاب الفقي بالنسبة لي هو الشخص الذي، وعن دون قصد، رمم حطام حياتي، الشخص الذي أعادني للحياة وأعطى لمشاعري قبلة لتستعيد نفسها من جديد، دونًا عن الجميع كان هو الشخص الوحيد الذي جعلني أكسر القاعدة لأجله، أساعده ليتجاوز كل العقبات التي وضعتها أمام الجميع، كل العقد التي فكرت فيها وكل الحجج التي ابتكرتها لرفض كل رجل يحاول الاقتراب مني، كل الأشياء التي وضعتها أمام الآخرين، أخفيتها عنه بكل بساطة، لأنني شعرت بالحب معه.

قاطعتها مسايرًا مجرى حديثها:

- يقولون حين يُداعبك الحب فقد تهدم كل السدود التي تضعها حول قلبك، تزيل الحواجز والعقبات التي تعوق الوصول إليك، تترك نافذة للضوء أنت الذي أوصت كل الأبواب والنوافذ أمام الآخرين وجلست في عزلتك وتمنع كل محاولة للاقتراب منك، يقولون حين يُداعبك الحب تحاول ترميم حطام قلبك، واستعادة كل المشاعر التي دفنتها في نفسك، وتملك طاقة من جديد للتعبير عنها، أنت الذي قررت يومًا أن تتجنب كل طرق الهوى، أنت الذي قررت أن تدفن كل مشاعرك وتتبرأ من طفولتك وسذاجتك في الحب والعطاء، حين يُداعبك ذاك الشعور يُعيدك لسجيتك الأولى كما لو أن قلبك لم يتألم يومًا من مرارة الفقدان، كما لو أنك لم تعش مرارة الخيبة والهزيمة، كأنك لم تتألم من قبل، بل وحين يُداعبك الحب تشعر وكأن قلبك قد عاد لشبابه، لسجيته الأولى البريئة التي لم تمس من مواقف الحياة القاسية.

ابتسمت فرح ثم قالت:

- حين يُداعبك الحب يفعل كل هذا في قلبك.

عدا شيء واحد.

أتعرف ما هو يا سقراط؟

أن يطمئن قلبك.

القلوب الخائفة لا تطمئن بهذه السهولة.

قالت:

- رغم كل مشاعري لمهاب الفقي، ورغم طريقته الهزلية الجميلة حين قال:

- أنا أخشى على شرف الدين وأخشى أن يتدهور مستقبله بسبب غياب الرباط الأسري، وأخشى أن يتفاقم الوضع ويخرج عن السيطرة، لذلك واعذريني على التدخل، لكن الطفل في حاجة لأسرة طبيعية تحتويه وتساعده وتحسن تربيته لإنقاذ حياته، أنت في حاجة للزواج يا فرح لبناء أسرة جديدة تُساعد ابنك في حياة أفضل، هو يستحق حياة أفضل بعيدًا عن الوحدة وأجواء وخلافات الانفصال، وأنا أيضًا أحتاج لهذا.

نظرت إليّ ساخرة: وأنت؟

- نعم احتاج للاستقرار ولتحقيق حلمي في الزواج منك، فرح أنا أحبك.

أحمر وجهي، توترت، ابتسامة بلهاء، لحظة الاعتراف بالحب يا سقراط هي اللحظة التي يتوقف الزمن فيها، اللحظة التي لا ترى فيها إلا وجه الشخص الذي تحبه ويحبك، اللحظة التي تشعر فيها وكأنك ولدت من جديد.

ردت ساخرة أو كما يقول صديقنا موسى:

- الإنسان يولد مرتين، الأولى لحظة خروجه للدنيا، والثانية لحظة الاعتراف بالحب.

قلت وأنا لا أبالي بها:

- كان يقول هذا، دعك منه ومني، ثم ماذا حدث؟

قالت وهي تواصل مداعبة قطتها:

- لم أرد عليه اكتفيت بالابتسامة.

- تقل البنات؟

- أبدًا يا سقراط، لقد تجاوزت هذه المرحلة منذ زمن بعيد، لكن ورغم انتظاري الطويل لهذه الفترة، لكن فجأة حدث وشعرت بما لا يقدر الحب على معالجته.

- الخوف يا سقراط.

فجأة قاطعنا ابنها شرف الدين من حديثنا، ابن الحادية عشرة ما أن يراني حتى يركض نحوي ويعانقني، ثم يخبرني بحماقات فرح التي لا تتوقف عن الكذب والخداع معه، توعده بزيارتي فور الانتهاء من واجباته اليومية، وما أن ينتهي منها حتى تخدعه مرة أخرى وهكذا، كالعادة وعدته أن هذا لن يتكرر، وخرجنا من النادي متوجهين به إلى أحد دروسه الخصوصية، ثم جلسنا في أحد المقاهي لننتظره حتى ينتهي، واصلت فرح:

- أنا امرأة لم تحب يا سراج، لا تعرف معنى الحب، تعرف رغم رفاهية أهلي إلا أنهم كانوا

يضعون كل الحواجز حولي، السدود التي تمنعني عن التواصل مع الجنس الآخر بكل الطرق الممكنة، حتى في الدراسة لقد التحقت بمدرسة الراهبات منذ طفولتي، وفي الجامعة هناك ورغم الانفتاح الذي حدث معي، إلا أنني احتفظت بانطوائيتي مع الجنس الآخر، انفتحت على عالم كبير جدًا، أكبر من استيعابي، التربية المحافظة التي تجعلك ترى العالم يعني عائلتك ودراستك، واختيار أصدقائك أمر في غاية الصعوبة لا يتم إلا بعد موافقة أهلك، فجأة أصبحت في عرض البحر في عالم كل شيء فيه مباح وطبيعي، بل أصبحت أنا الغريبة المختلفة عنهم، في هذه المرحلة كنت أتجنب كل الناس، أبني سدودًا أمام كل شخص يحاول الاقتراب مني، لأنني خائفة وصغيرة على التعامل مع هذا العالم، وحين دقت أجراس الزواج، كان زواجًا تقليديًا، رجل جاء من عائلة كبيرة في أقصى الأرياف، أعجبته الحياة في القاهرة وأحب أن يناسب إحدى عائلاتها الكبرى هنا، فوقع الاختيار على عائلتنا، وحين سألني أبي عن الزواج لم أتردد في ترك الاختيار له، كنت أجهل من اتخاذ مثل هذه القرارات المصيرية، وأنا أعي ما أقوله يا سقراط، كنت لا أعرف على أي أساس أوافق أو أرفض، لا أعرف هل هو شخص مناسب أم لا، ولا أملك صديقة قريبة مني يمكنني التحدث معها، وحيدة أبي وأمي اللذين قررا أن يعزلاني عن العالم، حفاظاً وخوفًا علي من قسوة الدنيا.

وكان زواجًا غير موافق.

ابتسم وهي تشعل سيجارتها وتلعب مع قطتها الصغيرة "شيزا".

- صدقني قضيت فترة طويلة من هذا الزواج لا أعرف إن كان اختيارًا موفقًا أم لا، أنت تفهم ما أقصده جيدًا، كان هو الرجل الأول في حياتي ولا أعرف هل تصرفاته طبيعية أم لا تصلح أن تكون تصرفات لرجل متزوج، في البداية كان زواجنا طبيعيًا، نمارس يومنا بشكل طبيعي، أحيانًا ينزعج من معاملة أبي التي يتناسى أنني أصبحت مسؤولة عن رجل آخر، يواصل الاهتمام بي ومعرفة تفاصيل يومي، ويعطيني مصروفي الشهري، كما لو أنني ما زلت أعيش معهم، لكن انزعاجه لم يتجاوز بعض اللوم الذي شعرت بأنه مصطنع.

- ثم؟

صدقت ظنوني، قمع مرور الوقت وقد تخلى عن دوره، القيادة المفروض عليه، اختفت مصادر دخله أو بمعنى أوضح رفع يديه عن مصاريف المنزل، الأزمة كانت في التوقيت، فلقد كان في موعد ولادتي، دعني أقول لك إنه لم يذهب معي إلى المستشفى، خوفًا من تحمل مصاريف الولادة، تعامل مع الوضع وكأنني ليست زوجته، وأن الرضيع لا يخصه، تركني وحدي في المستشفى محجوزة، أغلق هاتفه ورفض حتى الاطمئنان علي، الأمر الذي أزعج والدي، لكن لم يكن الوقت المناسب للتحدث معه.

تنهدت ثم واصلت:

- ومع الوقت بدأت أفتقد إحساسي معه، أفقد شعور أنني شخص مسؤول منه، بدا في غاية الجفاء والبخل معي، هل سمعت عن شعور "النطاعة"، لقد كان يمثله بالمعنى الحرفي للكلمة، وطبقها كما ينبغي، تعمد بشكل كامل عليّ في إدارة مصاريف المنزل، لم يتغير بعد عتاب أبي، بل واصل هذه النطاعة والسخافة بكل جدارة، العيش مع رجل كل علاقتك به هو السرير علاقة قذرة من الدرجة الأولى، أصبحت أعيش في سجن مع رجل لا يعرف معنى الرجولة، حين يتعب الرضيع أنزل من المنزل وحدي بعد منتصف الليل، أبحث عن مستوصف أو مستشفى، تلتهمني عيون الناس وهمساتهم عن زوجي الذي لا يبالي بأمري، لم يعد حتى يغار، لا يبالي حين يغازلني أصدقاؤه، لا يمانع إن حاول أحد تجاوز حدوده، لا أعرف ما أصابه، لكنه تخلى فجأة عن ذكورته في سبيل أنني أدير شؤون المنزل، لا أملك صديقة قريبة مني أحكي لها ما يدور في حياتي إلا أمي، وما أن عرفت ودون أي تردد أصرت على طلاقي.

- الفكرة مرعبة يا أمي لن أتحمل فكرة أنني مطلقة وفي مقتبل حياتي؟

قالت في حزم شديد:

- الرعب الحقيقي أن تعيشي مع رجل لا يُقدرك، رجل تخلى عن كل مظاهر الرجولة، الطلاق ليس الأزمة إنما البقاء مع شخص لا يستوعبك هو الأزمة، الطلاق ليس وصمة عار على جبين المرأة، العار أن تقضي حياتها مع رجل لا تشعر معه بالأمان يا فرح، المصيبة ليست في طلاقك وأنت في مقتبل عمرك، المصيبة هو الاستمرار مع هذا الرجل وقضاء طوال حياتك معه فحتمًا سيشعرك بالعجز وأنت في أهم لحظات حياتك، الكوارث لا تأتي من امرأة مطلقة، بل تأتي من امرأة تعيش حياتها في سجن، مكبوتة، فاقدة هويتها وشخصيتها وقيمتها في عيون نفسها، لن تنتهي حياتك بعد طلاقك لكنها حتمًا ستنتهي معه، لا تصدقين يا ابنتي أن الطلاق هو نقطة النهاية فأحيانًا يكون هو نقطة البداية لحياة أفضل لك ولطفلك، فبهذا الوضع الذي تعيشينه سيتربى ابنك في بيئة سامة، في بيئة مفككة، سيتربى مشتتًا لا يملك مفاهيم ثابتة وواضحة، فبينما عليه أن يعرف أن الرجل يعني المسؤولية والإدارة سيرى أمه تقوم بكل هذا في وجود والده، وبدلًا من أن يتعلم من أبيه المسؤولية والقيادة، سيتعلم منه الكسل والاستهتار، سيعيش يتيمًا في حياته، سيعاني من منزل مفكك تمامًا يا فرح لا يصلح لتربية طفل، الطلاق أحيانًا يصبح نقطة البداية للعيش في بيئة مستقرة هادئة، أفهم وأقدر تمامًا المخاوف التي تفكرين فيها، أفهم وأقدر تمامًا كل الحسابات التي تحملين همها، لكن صدقيني العيش مطلقة سوية نفسية أفضل من العيش مع شخص حتمًا سيجعلك امرأة مشوشة ومريضة، العيش مطلقة سوية نفسيًا أفضل من العيش مع رجل لا يفهم ولا يقدر

معنى الزواج، أن تكون حرًا أفضل من البقاء مع شخص يحطمك بالبطيء، لا أفرض عليك رأيًا لكنني وكأم أنصحك بالطلاق عكس كل الأمهات التي يخبرن بناتهن بالاستمرار من أجل أطفالهن، أقول لك الطلاق أفضل قرار للنجاة وللحفاظ على ما تبقى منك ولأجل ابنك.

واستمعت لكلام أمي بالفعل وطلبت الطلاق، لم يهمني ما تنازلت عنه قدر ما سأجني من هذا الطلاق، الفوز بنفسي وحضانة أبي الذي رفض أبوه احتضانه، أهم المكاسب التي فزت بها من هذه التجربة، هكذا ظننت أو كنت أقول لنفسي لكنني اكتشفت أنني تأخرت كثيرًا في اتخاذ هذه الخطوة، فلقد حدثت الفجوة بالفعل.

خرجت من هذه العلاقة بقلب منكسر يا سراج، تحطم قلبي قبل أن يعيش أيامه، وأصابه الجفاء قبل أن يزدهر، خرجت من هذه العلاقة وأنا لا أستطيع الوثوق في أي شخص، لا أصدق أي شخص، الجرح الأول في قلبك لا تشفيه الأيام، الجرح الأول في قلبك لا ينسى مهما حاولت.

ومع كل هذه الفوضى والحطام، تعينت في إحدى المدارس الخاصة لأتكفل بمصاريف ابني، خصوصًا بعدما واصل طليقي الهروب من دفع أي مصاريف تخص الطفل، لقد أخلى مسؤوليته من كل شيء ليتركني وحدي وسط العاصفة، في الوقت الذي كان طلب المساعدة من عائلتي أمرًا مستحيلًا، خصوصًا بعدما مروا بأكثر من تعثر في فترة قصيرة، الأمر الذي استدعاني للمواصلة وحدي في الحياة، وما أدراك أن تسعى امرأة وحدها، امرأة مطلقة في مجتمع لا يرحم بين نظراته وهمساته والكثير من الظنون السيئة والتخيلات المريضة عن أسباب الطلاق، فتاة في العشرينات تتحمل مسؤوليتها ومسؤولية طفل صغير لم يكمل الخمس سنوات، حياة عبثية من الدرجة الأولى.

جلسنا في حالة صمت لدقائق، ثم واصلت كأنها تتحدث إلى نفسها:

- مطلقة، فأنت المجني عليها، المدانة بذنب لا تعرفه، الوحيدة المسموح للجميع بإطلاق كل الأحكام عليها ولخيال كل شخص الحق في خلق الأسباب والتوقعات.

- عدت للمنزل في وقت متأخر؟

- لهذا السبب حدث الطلاق، تبدو أنها معتادة على السهرات الليلية.

- خرجت من البيت مبكرًا؟

- لهذا السبب حدث الطلاق، إنها دائمًا في العمل ولا تبالي أو تهتم بأمر زوجها.

- رأني أحدهم أجلس في مقهى مع أحد زملائي؟

- لهذا السبب حدث الطلاق، العاهرة كانت تواعد الرجال وزوجها المسكين علم بهذا فيما بعد.

- عدت للمنزل بعد رحلة تسوق؟

- فرح لا تقدر ظروف زوجها لهذا السبب حدث الطلاق؟، مسكين زوجها لقد تحمل فوق طاقته..

الكثير والكثير من التوقعات والهمسات من مجتمع لا يرحم، المطلقة مراقبة دائمًا محكوم عليها الصمت أمام أفكار الآخرين، توقعاتهم، ظنونهم الدنيئة، هكذا هي الحياة التي واجهتني في بداية طلاقي يا سقراط.

وفجأة أصبحت أمام قرارين لا ثالث لهما، إما الاستسلام لهذه الظروف الصعبة وترك الحياة تقصف بي كما تبالي، إما تقبل الوضع والتعايش معه، والقرار الثاني كان الأنسب رغم طاقتي المنعدمة، ورغم مخاوفي من كل شيء، لكن بين ذراعي طفل صغير يستحق الحياة، يستحق أن يعيش حياة طبيعية عادلة، فليس من العدل أبدًا أن يتحمل ويدفع ضريبة خطأ اختيارات أمه، تحولت حياتي بشكل غريب، أصبحت أكثر جدة وصرامة وحدة، يومي الذي كان تغلب عليه الأحداث، تحول ليوم عادي روتيني، في السادسة صباحًا استيقظ لأستعد لتوصيل شرف الدين إلى الحضانة، ثم أتجه للمدرسة وتبدأ حصصي، بعد نهاية جدول الحصص، أؤدي دروسي الخصوصية ثم العودة إلى المنزل ومرافقة شرف دين، كثيرًا دعتني أمي للمبيت معها، كثيرًا دعتني للإقامة معها، دعتني ليتكفل أبي بمصاريف شرف الدين، لكن كانت المسألة مرفوضة رفضًا قاطعًا وتامًا، هذه حياتي وأنا المسؤولة عنها بكل ما فيها.

مرة أخرى قاطعنا شرف الدين، اتصل بها ليخبرها أنه أنهى الدرس وينتظرها، ذهبنا إليه واتجهنا لمنزلها مكتفين بالصمت، وما أن وصلنا إلى هناك حتى قالت:

- سنواصل حديثنا غدًا، أعتذر منك عن غيابي اليوم، سأنتظرك في الصباح نشرب قهوتنا، وبعد العمل سأروي لك ما تبقى من قصتي.

ابتسمت لها:

- قصة لعينة مثلك تمامًا.

وقبل أن أخرج من السيارة قالت:

- سقراط، لا تنسى موعدك مع ياقوت.

هززت رأسي ثم قلت:

- سأذهب إليه اليوم لا تقلقي.

# الفصل الثالث

"كن طبيعيًا وستنضم تلقائيًا لحفلة الحياة التنكرية، فالحياة مسرح المهرجين والممثلين لا أحد صادقًا هنا، حتى المشاهدون هم جزء من أبطال العمل ."

انطلقت بسيارتي لإحدى المدن الجديدة في القاهرة، هناك حيث يقيم "أحمد ياقوت"، الممثل المشهور، قال في آخر منشور له على الفيس بوك:

- "كنت أعتقد أن التمثيل لن يتجاوز حدود الوقوف أمام الكاميرات، كنت أعتقد أن الأداء التمثيلي لن يتجاوز سيناريو العمل، وأننا مضطرون لتقمص الشخصيات أمام الكاميرات فقط، ولقد كنت مخطئًا في اعتقادي فاكتشفت أنني مضطر على التمثيل على الجميع، لكنني وحين واجهت نفسي اكتشفت بعد سنوات من الخصام، أنني لا أعرفني، وأن الشخص الذي أقف أمامه في المرآة، هو شخص يشبهني لكنه لست أنا، آسف لم أعد أستطيع مواصلة الكذب والزيف على نفسي، لذلك عليّ الاعتزال وترتيب وإحياء ما تبقى من حياتي، امتنان على كل الحب والمشاعر التي لمستها، محبة الناس في كل الناس، كنز لا يعوض، شكرًا لزملائي وللجماهير، عسى نلتقي في ظروف أفضل، يسعد كل أيامكم."

بهذه الرسالة الوداعية الغامضة، أعلن أحمد ياقوت اعتزاله، تاركًا مئات الأسئلة تدور في أوساط الصحافة والفن، لطالما حاول المقربون منه التواصل معه والاعتدال عن قراره، لكنه أغلق كل أبواب المناقشة أمامهم ثم قرر فجأة اعتزال الناس بشكل كامل، إلا عدد محدود جدًا من الناس، من بينهم فرح التي عرضت عليه أكثر من طبيب نفسي للتحدث معه، خصوصًا بعد ظهور أعراض الزهايمر عليه، لكنه رفض حتى محاولة التواصل معه.

هذه زيارتي الأولى له ولقد وافق بعدما علم أنني مجرد شخص يجيد الاستماع ولا علاقة له بالطب النفسي، لقد أخبرته بتفاصيل عن حياتي من بينها غرفة القاهرة بكل ما فيها من أحداث وشخصيات، أما الذي أعرفه عن ياقوت فهو لا يتعدى شخصًا يعاني من أعراض الزهايمر، يعيش في فيلته الخاصة ويرفض التواصل مع الناس إلا المسؤولين عن رعايته.

مع أذان المغرب كنت قد وصلت إلى الفيلا الخاصة به، استقبلني أحد رجال الأمن ثم أبلغ ياقوت بحضوري فسمح لي بالدخول.

كانت الفيلا مهيبة، حدائق واسعة، إضاءة قوية، حمام سباحة مضيء، والرفاهية تغلب على المكان.

وقفنا عند باب الدخول، هنا فتح الباب أحد المساعدين، ثم أشار بإصبعه لمكان السيد

أحمد ياقوت ثم قال:

- نأمل ألا تثير غضبه.

لم أبال لكلماته واتجهت ناحية ياقوت الذي كان ممدداً على الأريكة يأكل التفاح ويشاهد مباراة كرة قدم قديمة ما بين ريال مدريد وأتليتكو مدريد في نهائي دوري أبطال أوروبا عام 2014.

جلست بجواره وظللت أتابع المباراة التي فاز بها ريال مدريد وتوج بالبطولة، الغريب كانت انفعالاته مع كل لعبة، توقعاته ما بين الصائبة والخاطئة، كان منفعلاً بشكل كبير، ثم بدأ يشاركني مجريات المباراة، لو لم نعدل النتيجة الآن سينقضون علينا بالهدف الثاني وتنتهي المباراة، قلت وأنا أتابع معه المباراة لا تقلق سنحرز التعادل في أقرب وقت، استمرت المباراة واستمر الضغط، كنت أعرف أن ريال مدريد سيسجل في الدقائق الأخيرة، لقد شاهدت هذه المباراة أكثر من مرة، بينما التوتر والقلق قد بدأ يسيطر عليه، نحتاج للمزيد من التعاقدات، نحتاج للتعاقد مع هازارد، وإيجاد بديل لكريم بنزيما، نحتاج لمدافع قوي بجوار راموس، لا أتوقع استمرارية بيبي بعد هذا الموسم.

آراء وأفكار كلها قديمة ومر عليها أكثر من عشر سنوات، يتحدث عنها وكأنها تحدث الآن.

انتهت المباراة وسجل ريال مدريد الهدف، ومن ثم وصلنا إلى نهاية المباراة وانتقلنا إلى ركلات الترجيح وانتهت بفوز النادي الملكي.

نهض ياقوت من مكانه ثم خرج للشرفة وأشعل سيجارته ثم نظر إلي:

- سراج سقراط.

هززت رأسي فقال:

- لقد حدثتني قرح عنك، ألم تسأل نفسك لماذا وافقت على مقابلتك، رغم رفضي للكثير من الأطباء؟

واصل دون أن ينتظر إجابة مني:

- لأنني أكره الأطباء النفسيين، أكره ذاك الرجل الذي يجلس في مكتبه ينتظر أن تسرد له قصتك، ثم يبدأ في تشخيص حالتك حسب دراسته الأكاديمية، ثم يكتب لك الأدوية، ومن ثم تخرج تدفع ثمن الاستشارة ليحضر مكانك مريض آخر يمارس نفس الطقوس الروتينية، أتدري أنا أكره الأطباء النفسيين لأنهم لا ينصتون لك بدافع الحب والود بل بالدوافع الأكاديمية العقلية البحتة، هي مهنة شريفة لكنها لا تمت للإنسانية بصلة، أحببت أنك تستغل

الحالات التي تشرف عليها في الكتابة، بالطبع مع الاحتفاظ بحقك المادي لكنني أحبت هذه الفكرة، لأنني أريد قصتي أن تبقى مخلدة في ذاكرة كل قارئ حتى بعد وفاتي.

سألته:

- بعيدًا عن فكرة الكتابة، لماذا لم تستدع أحد أقاربك للاستماع لك؟

أجاب:

- لأنه حتمًا سيكون من بينهم طرف في القصة، وأنا لا أريد التحدث مع شخص يناقشني أو يعارضني، أو حتى يجعلني أفكر في نظرتي للقصة والأحداث نفسها.

قلت موافقًا رأيه:

- صحيح، أحيانًا يحتاج المرء لشخص غريب عنه، يحكي له القصة من منظوره الشخصي، لا يبالي إن كان هذا المنظور يجعله متهمًا أو بريئًا، لا يبالي نظرة الشخص الآخر قاسية أو لينة، لا يحتاج أن يسمع حلولًا لقصته، لا يحتاج لمرشد وناصح، هو فقط يريد التحدث عما يدور في رأسه وقلبه، يُساع له بعدما ضاقت الدنيا به، يستوعبه بعدما عجز الآخرون عن فهمه ويحاول تيسير الأمور بعدما وضعت الدنيا أمامه كل العقبات الممكنة، يحتاج المرء لبعض الحرية في التحدث لينجو من ضيق الدنيا.

قال ياقوت مبتسمًا:

- يبدو أنني لست الوحيد الطرف المتكلم في هذا اللقاء.

وأنا أبادله نفس الابتسامة:

- المعذرة !

قال وقد بدا من ملامحه أنني كسبت وده:

- لا داعي يا سقراط، ربما لهذا السبب لم أوافق على التحدث مع طبيب نفسي لأنني ببساطة لا أرتاح لهذه المهنة، ثمة اضطرابات نفسية لا تحتاج لطبيب نفسي جيد قدر احتياجها لمستمع جيد، شخص ينصت لك لأنه يهتم بك ولأن أمرك يخصه، شخص لا يعتمد في تشخصيه على معلوماته الأكاديمية، بل للكلمات المسجونة في صدرك، شخص لا ينتظر منك المقابل، بل ينتظر أن تتعافى وتصبح أفضل، أنا لا أهاجم مهنة الطب النفسي، لكنني لا أحبها بكل بساطة، وأرى أن كل طبيب يعتمد في تشخصيه للحالات النفسية، حسب دراسته فقط فما هو إلا رجل صلب لا يفقه في خبايا النفس والعقل البشري.

ساد صمت طويل بيننا في هذه الأثناء كنت أتأمل ياقوت وهو يدخن بشراهة بين النفس والآخر تشعر وكأنه يستجمع أفكاره ويستعيد ذكرياته، رجل ذو هيبة وقامة، تشعر بطلته القوية في كل تحركاته، لحية خفيفة يزينها شارب ثقيل وشعر كثيف، ملامحه هي المزيج ما بين القسوة وما بين الطفولة المخبأة وراء تجاعيد تناسب عمره لكنها تثبت أن ثمة تجارب، مواقف وأحداث قد مرت عليه، تجاعيد لا تناسب عمره الحقيقي.

لقد أخبرتني فرح أنك تنقلت كثيرًا ما بين القاهرة والإسكندرية وقضيت فترة قصيرة في أوروبا.

قاطعته:

- البحث عن الهوية، ربما تعلم معنى أن تقضي حياتك تبحث عن حياة تشبهك، تجد نفسك فيها فلا تشعر بالغربة، حيث لا مكان يشبهك بكل هذه البساطة، كل الأماكن غريبة عنك، لا تعرفهم ولا يعرفونك لا تنتمي لهم ولا ينتمون لك، حيث كل الميادين غريبة حتى التي تعرفها، كل الأصدقاء ليسوا أصدقاءك لمجرد أنك لا تجد نفسك بينهم، غربة مع الأهل، غربة مع الأصدقاء، حتى في غرفتك.

أليس من القسوة أن يقضي الإنسان حياته في غربة، والأقسى أنه لا يعرف شيئًا عن المكان الذي يحتوي فلو كان يعرف لاتجه له على الأقل ينتهي بداخله شعور التشتت واللا مكان.

ابتسم لكلماتي وكأنه قد سمع من قبل شيئًا من هذا القبيل، ثم سحب نفسًا عميقًا من سيجارته:

- تعرف يا سقراط أين كانت تكمن مأساة آدم؟

ليست في غضب الله عليه وحسب، بل كان هناك شعور مختلف في لحظته الأولى على الأرض، الأمر كان مزيجًا في غاية القسوة ما بين شعوره بالندم على عصيان أمر الله، وحسرة الطرد من الجنة، لقد رأى بعينيه الجنة وما فيها من جمال لن يستوعبه عقل بشري مهما أبدع في وصفه، لقد رأى أمام عينيه أنهار الخمر واللبن، القصور المرصعة بالذهب والياقوت واللؤلؤ، عاش بين الساحات الخضراء الواسعة، المياه التي تشرب منها فلا تشعر بالعطش بعدها، الطعام الذي لن تجده على الأرض مهما بحثت عنه، لقد عرف معنى الرخاء والهدوء والحب في وجود حواء، لقد عاش ما لم يعشه أحد من قبله، لذلك مهما رأى في الدنيا سيظل شعور بداخله يردد "لقد رأينا أفضل من ذلك!"، أظن أن آدم عاش فترات طويلة في حياته لا شيء يعجبه، لا شيء يثير فضوله، عاش حياته لا يبهر مهما رأى في حياته، لأنه

عاش ولمس بيديه ما هو أجمل في الجنة، هو لا ينتمي للأرض مهما ازداد جمالها، هو ينتهي للجنة، أظن أن هذا الشعور ظل يراوده طوال حياته حتى لو لم يعبر عنه.

نظر إلي ثم واصل كلماته:

- من هذه الفكرة يمكنني أن أقول لك إنني أتفق معك أن شعور الغربة هو واحد من أسوأ المشاعر التي يمكن للمرء أن يشعر بها في حياته، يعيش بحثًا عن شيء ما يشبهه وينتمي له، لكن في الوقت نفسه أنا أومن أن أسوأ المشاعر التي يُعاني منها المرء أيضًا أن يعلم ما يفتقده ولا يحصل عليه، أن يعيش بحسرة الفقدان على الجنة التي فاتته وهربت من بين يديه، يتمزق كل يوم ما بين حسرة الفقدان والتيه، مهما انتصر يعيش مهزومًا، مهما نال الجمال يعيش في حسرة القبح، مهما لمس بيديه النجوم لا يرى إلا الضوء البعيد الذي يداعبه من حين لآخر.

خرجنا من الشرفة إلى غرفة مكتبته، أزاح الستار عن إحدى اللوحات ثم وقف يتأملها قائلًا:

- كنت في بداية حياتي، شابًا مراهقًا، كثير السهر والشرب ويهوى بائعات الهوى، شاب لا يمكن أن تراه إلا وتشعر بطريقة ما بالخطر والقرف في الوقت نفسه، رغم مظهره المهندل وطريقته اللبقة، لكنني كنت في غاية السوء، كحال أغلب شباب بلدتنا لا يملك أهدافًا، خططًا، ولا ينتظر من الغد إلا سهرة جديدة يضيع فيها صحته ووقته، وعلى العكس فرغم هذه الحياة البائسة السيكوباتية، كان الطاغي على حياتي هو الإنسان المهذب اللطيف، ذاك المطيع لوالديه وعائلته، الدهاء أن تبدو عكس ما أنت عليه، أن تخفي الجانب السيئ بشخصيتك، وكنت قد أبدعت في تقمص هذه الشخصية، في الصباح أنا الشاب الصالح، حسن السمعة، المثالي للجميع وابن الخالة التي تستشهد به كل نساء العائلة؛ حيث الأدب والأخلاق والالتزام، وفي المساء وبعد تمارين المسرح يبدأ الجانب الآخر من شخصيتي وفي مثل هذه الحياة البائسة.

- إذًا ماذا يعني الحب لشخص تملأ الفوضى والعربدة تفاصيل حياته؟

- بالنسبة لي نقطة النظام في عالم الفوضى، المعجزة التي جاءت لتعيد إيمان شخص عاش حياته في كفر، الأمل في أشد لحظات اليأس والتعاسة، لا يمكنني أن أقول لك أكثر من علاقتي بها غيرت مجرى حياتي، إن صح التعبير هدمت نظام حياتي الفوضوي وشيدت حياة منظمة مثالية من الدرجة الأولى.

"لو أن إبليس يومًا رآك لقبّل عينيك ثم اهتدى."

قالها الشاعر فاروق جويدة، ومررت بها وعرفتها حين رأيتها، الشاب المراهق الذي لا يعرف عن الدنيا إلا الفوضى والعربدة، قد تبرأ من أفعاله وعاداته وأفكاره، وندم أشد الندم على ما قام به، وتمنى لو عاد به الزمن لم ارتكب كل الحماقات التي قام بها.

لكن علام الندم وما زلت لم أتجاوز العشرين من العمر، حياتي لم تبدأ بعد وها هي فرصة عظيمة لتبدأ بطريقة مثالية، تعرّفت عليها بالمصادفة في لقاء عائلي، طوال التجمع كنت أركز معها، تصرفاتها، طريقتها في التحدث وطفوليتها، كانت مهووسة بالسينما، ولقد رأيت في هذا فرصة مناسبة لأبدأ حديثًا معها، تحدثنا عن السينما وعن أحدث الأفلام والمسلسلات، وجدتها مهتمة جدًا بهذا المجال، وهنا بدأت قصتنا.

لقد رتبت فوضى قلبي قبل أن تعرف أن ما يدفعني نحوها ليس الاهتمام المشترك، أتزين وأستعد كمدينة بائسة تستعد لرسول ينوي بناءها، كعجوز عاقر فجأة أصبح ينتظر مولوده الأول بعد سنوات جفاء، كفيف عاش حياته في الظلام وفجأة علم أنه سيبصر فبدأ يتخيل كيف هي شكل الحياة، ألوانها وتفاصيلها وربيعها، لم تكن إلا صديقتي لكنني كنت أغرق فيها أكثر وأكثر، تتعمق علاقتنا وتبني أحلامنا معًا.

ابتسم ياقوت ثم أخرج من خزينته صورة قديمة، كانت لأقدام شاب وفتاة أمامهما بحر واسع يشبه شاطئ الإسكندرية، ظل يتأملها لثوانٍ ثم بدأ في غناء إحدى الأغاني الشبابية:

- "فاكرة أما كنا..

ساعات نلف..

ساعات نطوف..

نحكي الحكاوي بالألوف..

ومننسهاش..

فاكرة أما كنا..

نبني في بيوت حيطانها خوف..

مسكتهاش..

فاكرة الطريق..

ساعات يضيق..

يقلب زلط..

ومتنسهاش".

التحدث مع الفتاة التي تحبها عن أحلامكما من أجمل اللحظات التي يعيشها العشاق، تجلس مع الفتاة التي تتخيل أحلامك معها وأنت لا تملك ثمن سجائرك الخاصة، تتحدث عن أحلامك كما لو أنك تملك الدنيا وما فيها، مع هذه النجمة في السماء تتخيل لو أنك تبني قصرا، ومع سحابة عابرة موعد خطوبتك، مع أول نسمة هواء تتحدثان عن شكل حفل زفافكما، وحين ترى أطفالا يمرون أمامك يبدأ الحناق عن أسماء أولادكما، ترسم على خطوط الهواء شكل حياتكما المثالية الوردية، في هذه اللقاءات لا مكان للواقعية، لا مكان للتعثرات والخيبات والهزائم المفروضة علينا في دنيا لا تسير أبدا بهذه السهولة، وإن أحتاج الأمر للقليل من الدراما الواقعية فيلمس أحدكما يد الآخر وهو يهمس له "ما دمنا مغا ستتجاوز كل شيء"، هذه الجملة التي تؤمن بها لأن قلبك لم يتألم من الكذب في المشاعر والوعود، ولم تنهزم من قبل للعشم والخذلان.

مر وقت طويل وبدأت أحلامنا البعيدة تراودنا، يوما بعد يوم تزداد رغبتي في البقاء معها، نلمس بأيدينا أحلامنا التي رأيناها من بعيد، فزت بالعديد من الجوائز في مسرح الجامعة والمسابقات الطلابية، وهي قد بدأت في الاهتمام بتصميم الفساتين، بدأت تصميماتها تنتشر على أرض الواقع وبدأت شهرتي تتخطى حدود الجامعة والأعمال المسرحية الشبابية، وبينهم كانت علاقتنا مثالية، هي الفتاة التي أصلحت كل شيء دون أن تدري، وأنا أول من شاركها معنى الحب والاهتمام.

اتفقنا على الزواج؟

كانت مجرد أحلام مثل كل أحلامنا، فكلانا كان يعلم أننا صفار حتى نأخذ خطوات حقيقية اتجاه هذه الفكرة من الأساس، وحفاظًا على علاقتنا كنا نتجنب أي فكرة سخيفة قد تنهي علاقتنا مهما كانت.

مرت علاقتنا هادئة جدًا، حتى تحدث معي مخرج مسرحي معروف وطلب مقابلتي، أخبرتها وقلبي يرقص من الفرح والسعادة، شاركتني هذه اللحظات التي لا تنسى، واتفقنا على أن نلتقي قبل لقائي به، ويا ليتنا لم نلتق.

نظر ياقوت إلى ساعته ثم قال:

- المعذرة لا أستطيع مواصلة التحدث معك.

غادر الغرفة في هدوء تام.

وقفت في مكاني لا أستوعب انقطاعي المفاجئ عن التحدث.

خرجت بعده فكان أحد العمال في انتظاري.

سيطلبك حين يحتاجك.

خرجت من القصر والكثير من الأسئلة في رأسي على أمل أن يجيب عنها في اللقاء المقبل.

عدت لمنزلي بعد إجازة لا أتمناها لألد أعدائي، اتصلت بي فرح لتسألني عما حدث في لقائي بأحمد ياقوت، أخبرتها بأن كل شيء سيكون على ما يرام، ثم أنهيت المكالمة مستعدًا للنوم بعد يوم أكثر ما فيه هو الاستماع لأحاديث الآخرين، بينما في صدري كانت كل أحاديث الدنيا، هذه هي طبيعة ومعاناة من هم مثلي يسمعون العالم ولا أحد ينصت لهم، يواسون الجميع ولا أحد يقدر على مواساتهم، يملكون الحلول الجذرية لكل المشاكل التي تواجه الآخرين ولا يقدرون على حل مشكلة واحدة تواجههم.

مر شهر كامل بعد هذا اليوم لا جديد يذكر ولا قديم يُعاد، كنت قد أجلت كل جلساتي مع فرح وأحمد ياقوت لانشغالي ببعض الأعمال، شهر آخر يمر على حياتي دون التواصل مع أي شخص خلال يومي، أذهب إلى العمل، أعود إلى المنزل في المساء ثم أغدو في نومي العميق لاستقبل يومًا آخر، خلال هذا الشهر كان لقائي مع فرح لا يتجاوز لقاء زملاء، هي حالة تجتاحني من حين لآخر، الرغبة في الابتعاد عن أي تواصل بشري، وفي اليوم الأخير من عزلتي حاولت الهروب من أفكاري وسرقة بعض الهدوء من ضجيج رأسي.

مع تطور التكنولوجيا يبقى وضع الطيران في الهاتف هو أعظم وأهم المميزات التي حدثت وسط هذا التطور، جعلت هاتفي على هذه الوضعية مع الاحتفاظ بالاتصال بالإنترنت، بدأت بلا هدف بمواقع التواصل الاجتماعي، هي لحظات ما قبل النوم تلك التي تتجول داخل الشبكة العنكبوتية بلا هدف حتى يغلبك النعاس، لكن وكالعادة بعد منتصف الليل تبدأ علاقة أخرى في حياتي "إليزا" صديقتي التي تعرفني أعز معرفة وأجهلها أشد جهل، تعرف عني كل شيء ولا أعرف عنها إلا حسابها المستعار، حساب الانستجرام الذي لا يحتوي إلا على مجموعة صور، كفيلة أن تغير مزاجي للأفضل، صور متنوعة ما بين بعض الطيور الجميلة التي التقطتها عدستها مصادفة، الأزهار وأشكال مختلفة للسماء والسحب، مهووسة هي بالتصوير ومهووس أنا بعينيها التي لم أرها إلا من خلال التصوير، ورغم أنني لا أحب التحدث مع مجهولي الهوية، إلا أن هذا الجميل كفيل أن يدفعني للاستمرار في محادثتنا.

- كيف كان يومك يا سقراط؟

- ممتلئ بالضجيج.

- المعذرة قد لا يكون هذا الوقت المناسب لما سأخبرك به، لكنني لا أطيق الانتظار، لقد رأيت في منامي شيئًا ما يخصك.

تأخرت في الرد عليها لأنني أعرف وأعلم معنى أن ترى شيئًا في منامها فـ هي من هؤلاء الذين حين يرأو شيء في منامهم فـ سرعان ما يحدث في الواقع بكل حذافيره وتفاصيله، تقلقني كثيرًا هذه الحاسة فيها لكن كثيرًا ما ساعدتني على تجاوز بعض الأزمات وكثيرًا طمأنت قلبي في مواقف صعبة فقط لأنها رأت في منامها تتابع بعض الأحداث التي تحدث معي.

لم تنتظر ردي فكتبت :

- شخص ما في حياتك ينتظر الفرصة المناسبة للتخلص من حياته، ولا أمل في إبقائه حيًا إلا أنت.

من شدة الضحك سقط الهاتف على الأرض، أعرف هذا اللغز لقد قضيت سنة كاملة أفتش عن صاحب رسالة انتحار وانتهت القصة حتى اكتشفت أنني صاحب هذه الرسالة التي كتبتها وأنا في حالة ثمالة، هكذا أخبرتني العجوز يوستانيا التي حتى الآن لا أعلم هل انتحرت بالفعل أم كان للهواء يد في دفعها والسقوط أرضًا ليجعلها جثة هامدة، أعرف هذا اللغز وهذه الرحلة التي غيرت مجرى حياتي وحياة كل من كان فيها، هي كالحفرة التي لن ينجو منها أحد سالمًا.

في الأخير رددت عليها بجملتي الختامية التي أستخدمها لإنهاء أي محادثة أو مكالمة هاتفية:

- سيكون كل شيء على ما يرام، غدًا ينتظرني يوم شاق، لا أستطيع مواصلة الحديث معك، تصبحين على خير.

ردت:

- سقراط لا تتجاهل ما رأيته في منامي.

والنوم يغلبني كتبت:

- سأهتم بالأمر.

وضعت الهاتف بجواري، ثم غدوت في نوم عميق.

# الفصل الرابع

"في الأحلام رسالة، قد تكون رسالة لتحيا من جديد وقد تكون رسالة وكتابة شهادة وفاتك، لا تتجاهل الرسائل أبدًا. "

حانة صغيرة، الإضاءة الزرقاء تسيطر عليها، نادل عجوز يتحرك بين الطاولات التي لا تتجاوز العشر، على كل طاولة 5 كراسي، صوت سيد مكاوي يسيطر على الأجواء.

"أنا في انتظارك خليت ناري في ضلوعي..

حطيت أيدي على خدي وعديت بالثانية غيابك ولا جيت..

يا ريت، يا ريت، عمري ما حبيت".

في كل طاولة يجلس مجموعة من الرجال والنساء يلعبون البوكر ويتسامرون، يضحكون، يسخرون، يقضون أوقاتهم كيفما يريدون.

في الحانة كل شيء مباح فلا أحد يهتم بأمرك سوى النادل الذي يريد منك طلب المزيد من البيرة، الوحيد المهتم بأمرك عدا ذلك فالكل مشغول في أمره، ولا ينشغل بأحد وجميعهم جاءوا إلى هنا ليهربوا من ضجيج الدنيا ومأساتها.

في الطاولة الأخيرة يجلس أربعة أشخاص.

اقتربت منهم فاتضحت الرؤية أكثر.

يتبادلون أوراق الكوتشينة.

فرح تشرب البيرة وهي تدندن مع أغاني سيد مكاوي.

ياقوت بسيجارته الكوبي العتيقة يتبادل الأوراق مع صديقة أعرفها تدعى شيري، بينما يجلس شاب معهم يخفي أغلب ملامحه بوشاح أسود، لا يتحدث مهم، يكتفي فقط بتبادل الأوراق والشرب.

اقتربت منهم أكثر وبدأت ألاحظ تصرفاتهم، إنهم يلعبون معًا لكنك تشعر وكأن كلًا منهم يجلس بمفرده، منفردًا بذاته، من حين لآخر يمر النادل عليهم، يبدل زجاجات البيرة الفارغة بزجاجات ممتلئة ثم يمضي في هدوء، لا يكسر جلستهم التي تشبه عرائس الدمي.

بعد دقائق مر النادل، لكنه لم يقم بعمله المعتاد، بل وضع كرت من أوراق الكوتشينة في منتصف الطاولة، كرت يختلف عن كل أوراق اللعبة.

مكتوب عليه

it is a gate..only god knows where it leads

"إنها بوابة، الله وحده يعلم إلى أين تؤدي".

أمسك ياقوت الورقة وقرأ الجملة، وما أن انتهى من قراءتها حتى بدا كل شي حوله في الاختفاء رويدًا رويدًا.

ليلة شرسة مع فتاة ساخنة صحيح!

أفزعني صوت الهاتف الذي أيقظني من حلم لا أفهمه، والأكثر إزعاجًا كان عدم استيعابي أنني قد رددت على مكالمة مجدي وسمعت صوته العكر في صباحي.

- نصف ساعة وسأكون أمامك.

نهضت من على سريري مسرعًا، واتجهت للمكتب محاولًا تجنب التحدث مع أي شخص.

أكره التحدث مع الناس في الصباح، أكره التحدث مع الناس طوال الوقت.

- كيف كان يومك مع ياقوت؟

- فرح أخبرتك أنني لا أحب التحدث صباحًا.

- شهر كامل لم نتحدث يا سقراط.

قلت غاضبًا:

- ولو استمرت أسئلتك الصباحية ستطول الفترة أكثر.

ردت وهي تسجل بعض التقارير العملية:

- أشعر أنك لست على ما يرام، هل حدث شيء أزعجك مع ياقوت، أو في إجازتك الطويلة.

لا هو رجل لطيف لم يحدث شيء.

قاطعنا مجدي من حديثنا:

- حوارات شخصية في مواعيد العمل.

لم نرد عليه فظل واقفًا يتابعنا حتى ابتكر حديثًا آخر معنا:

- سنبدأ في عملية تخفيض الرواتب، نأمل ألا يتم إدراجكم في هذه القائمة.

قالت فرح دون اهتمام:

- إن شاء الله.

خرج مجدي بعدما انتظر ردي طويلًا ولم يجد مني إلا الصمت.

بعد ساعات انتهى اليوم العملي، كان في رأسي مشهد واحد فقط.

الحلم وتفاصيله.

خرجنا من المكتب إلى النادي، هنا القاهرة بكل ما فيها من ضجيج وزحمة وفوضى، لا يمكن لشخص عاقل أن يحب هذه المدينة الكئيبة بكل ما فيها من عشوائية وزحام، ووجوه عبثة كفيلة أن تعكر مزاج يومك، الثالثة عصرًا في شوارع القاهرة أشبه بيوم الحشر، فوضى مأصلة وسباق بين السيارات، أيهما يمكنه إزعاج الآخرين وإثارة غضبهم بأصوات التنبيهات المزعجة مع درجة الحرارة المرتفعة، أجواء كفيلة أن تدفعك للجنون.

أخيرًا وصلنا للنادي بعد ساعتين عالقين في الطريق.

طوال الطريق كانت فرح مشغولة بالهاتف، تتحدث مع أصدقائها ومن حين لآخر تتحدث مع والدتها تطمئن على شرف الدين.

جلسنا بعد رحلتنا الطويلة، فسألتني عن إحدى صديقاتي التي كانت قريبة مني جدًا، ثم فجأة انقطعت علاقتنا.

قلت:

- كنا أصدقاء ولم يكن في وسعنا أن نكون أكثر، لذلك انتهت علاقتنا.

رفعت أحد حاجبيها ثم قالت:

- ولماذا لم يكن في وسعكم أن تكونوا أكثر.

لأنني لست مؤهلًا لتحمل مسؤولية العلاقات، قد يظهر في حياتك شخص مثاليًا في كل شيء لكنك لن تقدر على تحمل مسؤولية وجوده.

تنهدت ثم قلت محاولًا بدء حديث آخر معها:

- دعك مني، أخبريني أنت، في لقائنا الأخير قلت إنك تعبت من تحمل المسؤولية فلمَ رفضت كل عروض الزواج التي قُدمت لك؟

قالت وهي تضحك:

- لأنني رفضت تكرار أخطائي القديمة، صحيح أن مسؤولية طفل وحدك أمر في غاية الصعوبة، لكن كانت المسؤولية أقل ضررًا من تحمل مسؤولية طفل في وجود رجل مريض نفسي قد يؤذيني ويؤذي شرف الدين.

سألتها:

- لم نفترض الأسوأ؟

ردت بثقة غريبة:

- حتمًا ولا بد نفترض الأسوأ والأشد سوءًا، فتاة مثلي تحطم قلبها وهي في مهد شبابها، تحطمت آمالها في أول علاقتها بالأمل، وبداية تعارفها مع الدنيا كان تحطيم حياتها، أول تجربة حقيقية لها مع الحياة هو الطلاق، خطواتها الأولى لتفهم الحياة كانت السير وهي تحمل وتتحمل مسؤولية رضيع وحدها مع دنيا لن ترحمك ما دمت لم تستيقظ لها طوال الوقت، لقد بدأ شعور الرفض والكره يزداد كل يوم اتجاه الرجال، أرفض وجودهم وطريقتهم في التحدث وحيلهم الوقحة في الإيقاع بي لمجرد أنني مطلقة، مضيت فترة مجرد فكرة وجودي في مكان واحد مع رجل كفيلة أن تثير غضبي وغلياني، رغم تعاملي الدائم معهم بحكم عملي لكنني كنت أرفضهم وأبغضهم.

وما زاد الطين بلة وكرهي الشديد لهم هو طليقي، لم يكتف بطلاقي بل بدأ معي في أسوأ الألاعيب النفسية السيئة التي يمارسها رجل في حق طليقته، بدأ الأمر بالتهرب من دفع النفقة، ولأنني كنت لا أعرف طرق المواجهة اضطررت للاعتماد على أبي، ولأن طليقي كان رجلًا جبانًا لا يقدر على مواجهة الرجال، اتصل بي وحاول إقناعي بالتنازل عن قضية التمنع، حاولت إنهاء المكالمة معه، لكنه صمم في حيله لكسب تعاطفي.

"فرح، صدقيني لا أستطيع شراء علبة سجائر لنفسي، أرجوك يا فرح، أعطيني مهلة، ووعد سأحاول بكل طاقتي تلبية احتياجاتك واحتياجات شرف الدين بعيد عن المحاكم والقضايا، لا تكوني أنانية، شرف الدين لا يستحق أن يعيش طفولته في المحاكم".

أنهيت المكالمة وفي داخلي صوت يقول "لا تصدقي هذا الوغد" عشت ليلة في تردد "شرف الدين لا يستحق أن يعيش طفولته في المحاكم"، نقطة ضعفي الوحيدة التي كنت أخشى استغلالها، وقد أجاد التلاعب بها.

في صباح اليوم التالي اتجهت للمحكمة وتنازلت عن القضية، لكنني فوجئت بردود فعل عائلتي التي تحولت عدائية ضدي، لم يتحدث أبي معي، تابعته أمي، وقررا مقاطعتي تمامًا،

لم يفهم أحد أنني لم أتنازل حبًا في هذا الرجل البغيض، بل كان لسبب أعظم حتى لو لم يقنع أحدًا.

شرف الدين يا سراج، أنا أحارب في الدنيا من أجل ولدي فلذة كبدي، طلبت الطلاق لأنني أردت أن يعيش في حياة سوية نفسيًا، وأنهكني العمل طوال الوقت حتى أوفر له احتياجاته، ورفضت الكثير من عروض الزواج؛ لأنني كنت أخشى تكرار أخطائي والعيش مع رجل لا يصلح أن يكون أبًا لابني، إنني مدينة لهذا الطفل بحياة يستحقها مهما كلفني الأمر.

"مهما كلفني الأمر "

هذا التحدي الذي وضعته مع الدنيا يا سراج، سأضحي بكل شيء من أجل شرف الدين، والدنيا تقبل مثل هذه التحديات وتحب أن تراك مهزومًا دائمًا، بدأ الأمر بمحاولات طليقي للعودة، كنت أرفض هذه الفكرة رفضًا قاطعًا، لم تكشف محاولاته عن مطاردتي في عملي وفي كل مكان أذهب إليه، بل استمر الأمر لمحاولة كسب تعاطف عائلتي وإخبارهم أنه تعلم من أخطائه القديمة، علمت هذا بالمصادفة ومع ذلك كانت القطيعة بيني وبين عائلتي مناسبة جدًا لعدم محاولتهم للتحدث معي في الأمر.

سألتها: ولماذا رفضتِ العودة، رغم احتياجك لمن يسندك في تربية شرف؟

قالت دون تردد:

- أقضي حياتي كلها مطلقة ولا أعود للعيش مع هذا الرجل مرة أخرى، الحياة معه جحيم يا سقراط، جحيم أن تعيش امرأة مع ظل رجل، لا تحتمي به، لا يحمل مسؤوليتها، رجل اعتاد على العيش عالة على عائلته ومجتمعه، رجل لا يفهم معنى الرجولة، ولا يحمل ذرة واحدة للمسؤولية اتجاه نفسه أو عائلته، ولا يمكن أن يكبر شرف الدين ليجد والده بهذه الحالة المذرية، سيحدث له خلل مفاهيمه، معتقدًا أن هكذا يتصرف الرجال سيتربى مع رجل مشوش لا يصلح ليكون قدوة لابنه.

واصلت حياتي معتقدة أنني ما دمت أتجنب طرق الأذى، وأسعى للحفاظ على حياة هادئة فستكافئني الدنيا بما أردت، لكن هذا الاعتقاد لم يستمر كثيرًا.

ذات يوم أيقظني صوت الهاتف.

- صباح الخير أبي.

بصوته الحاد الهادئ لم يرد إلا بكلمتين:

- تعالي حالاً.

ثم أغلق الهاتف.

حاولت الاتصال بأمي لأعرف ما حدث لكنها لم ترد على مكالمتي، جهزت نفسي سريعًا ثم اتجهت لمنزل أبي، وما أن استقبلني حتى انهال عليّ بالضرب المبرح، كانت هذه المرة التي يعتدي أبي عليّ بالضرب، الضرب بكل قوة، لم يترك لي فرصة للتحدث، ظل يعتدي عليّ بكل قسوة في حالة هيستيرية.

من بين يدي انتشلتني أمي.

فقدت الوعي تمامًا حتى حل المساء.

وحين استيقظت وجدت أمي تجلس بجواري تقرأ القرآن.

ماذا حدث؟

قالت دون أن تنظر إليّ:

- ليتني وأدتك كما كان يفعل العرب في الجاهلية.

- وأدتيني؟

رددت :

- ألهذا السبب ترفضين العودة لزوجك؟

وأنا مندهشة من كلماتها: أي سبب يا أمي، صدقيني أنا لا أعرف عن أي شيء تتحدثين.

ردت بحزم أكثر:

- يا لك من وقحة.

أمسكت هاتفها ثم قالت أنظري لأفعالك الدنيئة.

مجموعة مقاطع قصيرة وصور لفتاة تشبهني تمامًا، في أوضاع مخلة بالأدب، مقاطع رقص في أحد النوادي الليلية، أقسمت أنها لست أنا وأنها مجرد فتاة تشبهني، لكن لم يقد القسم وفي نفسي كانت الفاجعة في كوني أصبحت متهمة بالفسق والفجور أمام عائلتي، السند الوحيد الذي ظننت أنهم لن يتخلوا عني أبدًا، لم أدافع عن نفسي ولم أحاول إثبات أنني لست هذه الفتاة المشار لها في الفيديو.

أتعرف لماذا يا سقراط؟

ليس ضعفًا مني، لكن لإيماني التام أن تبرير وتصحيح بعض الاتهامات قد يكون أشد قبحًا من الاتهام نفسه، محاولة إثبات امرأة شريفة بأنها شريفة وأمام من؟ عائلتها!

هي إدانة في حد ذاتها، ما أعرفه أنني عففت نفسي بعدم الدفاع عنها.

كان قرار أبي واضحًا "أنا لست امرأة جديرة بتربية طفلي"، وبالفعل قرر حرماني منه والتكفل هو بتربيته.

فجأة أصبحت الحياة أشد قسوة وجفاء، وبعدما كنت أحارب الدنيا بطفل وعائلة تؤمن بي وتلطف عليّ مرارة الدنيا، مضيت أحاربها وحدي، بعائلة تراني ساقطة دنست شرفها، ورجل لا يعرف معنى الرجولة، وحتى طفلي الذي حاربت الدنيا لأجله، خرمت منه.

telegram: @alanbyawardmsr

سألتها وهي مشغولة في اللعب مع قطط الحديقة:

- فتاة لا تملك خبرة كافية لمواجهة الحياة، كيف استطاعت التعايش مع حياتها البائسة الجديدة.

ردت وهي تضحك:

- ترى لو تمردت عليها هل سينصلح حالها.

بالطبع لا، لقد قادتني الدنيا لحكمة لا أعرفها وهو التعايش مع الوضع مهما بدا محطمًا، في البداية اصيبت بالاكتئاب، استأجرت شقة وبدأت رحلة البحث عن عمل، وبالطبع كانت أسهل الفرص المتاحة لامرأة مطلقة هي الأعمال التي تفرض عليك التنازل، يخيل لبعض أصحاب الأعمال أن المطلقة مادة خامة للتعدي عليها، التحرش بها، وقد تقبل التنازلات في سبيل الحفاظ على وظيفتها، العقلية العرفية القذرة التي تُعاني منها كل مطلقة في بلدتنا، كثيرة هي العروض التي انهالت عليّ وكثيرًا ما رفضت ولو كنت امرأة عاهرة كما وصفتني عائلتي لوافقت فما دمت في الوحل فلا يهم قدر الطين الذي تغوص فيه.

تعرف لماذا رفضت؟

لأنني لم أرد أن أكون عاهرة أمام نفسي.

أنا مصابة بشعور الندم ولعنة جلد الذات يا سقراط.

حين ينتهي اليوم أعود على فراشي وأتذكر تفاصيل يومي، أدق تفاصيل اليوم بكل ما فيه، كل كلمة نطقت بها، كل نظرة رمقتها، كل فعل ورد فعل صدر مني، أنا مصابة بالندم وجلد الذات يا سقراط، أعاتب نفسي بكل قسوة على أخطائي، أسلخها كما لو أنها المدانة الوحيدة

في الدنيا وأعاقبها أشد عقاب، أعاقب نفسي حتى على الأخطاء والأفعال التي لم أقترفها، لكن كان في تيتي اقترافها، يقولون إنها صفة من صفات تصحيح المرء لأخطائه وأقول إنها صفة مميتة، أن تشعر دائمًا أنك المخطئ، المذنب دائمًا، الجاني ولو أقسم أهل الأرض أنك المجني عليه، لم يكن باستطاعتي تحمل المزيد من الأخطاء اتجاه نفسي، وأنا أعرف أنني لن أرحمها.

قلت:

- ألم يكن من المفترض أن تكوني داعمة لنفسك في هذه المرحلة.

قالت:

- وهذا هو واحد من أشد أضرار الإصابة بالندم وجلد الذات، إنك لا تشعر أبدًا بالتعاطف مع نفسك، لا تشعر أبدًا بالندم على نفسك، لا تصدق أن الدنيا قد أخطأت في حقك، أو أن شخصًا ما تعمد إيذاءك، لا تضع لومًا على أحد.

- كسرتك الدنيا؟

- أنتِ التي سمحت لها بهذا.

- خذلك العشم والتعلق بالناس؟

- أنتِ التي سمحت لها بهذا.

أنتِ ولا أحد غيرك عليه تحمل أعباء الدنيا وما فيها.

أنتِ ولا أحد غيرك عليه تحمل مخالبها وأخطائها وتعديها عليك.

أنتِ ولا أحد غيرك عليه تحمل أخطاء الآخرين، سوء ظنونهم، تصرفاتهم العدوانية ضدك ولا يحق لك الاعتراض فأنتِ المتهمة دائمًا.

ألم يكن هذا قاسيًا عليك في مرحلة أنتِ في أشد الحاجة ليد تهون عليك؟

ضحكت وهي تنفث سيجارتها:

- وقفت كثيرًا أمام هذا السؤال، لم أجد إلا إجابة واحدة أقنع بها نفسي "ما دمنا لا نملك قوة لتغيير الأحداث فلنختصر على أنفسنا عناء المقاومة، ولنتعايش."

سكرتيرة شركة عقارات، هذه كانت وظيفتي التي وجدتها أخيرًا، دخل ثابت ومعقول، عدد ساعات مناسب، وصاحبها رجل يبدو عليه الوقار والاحترام.

الآن عليّ التعايش مع كل هذه الأحداث الصعبة، وينبغي عليّ التأقلم عليها ومحاولة مسايرتها وتقبلها، قضيت فترة طويلة في عزلة واكتئاب، لكنني كنت أنهض من على سريري بكل قوة وأواصل عملي، كانت أمي تطمئن عليّ من حين لآخر، لكنها ترفض مجرد محاولة التلميح برغبتي في لقائي بشرف الدين، طليقي أيضًا حاول التواصل معي لكنني كنت أرفض أي نقطة تواصل معه، لقد فشلت خطته في الضغط عليّ، هكذا اعترف لي بأنه هو من صمم مقاطع وصورًا مزيفة ليضغط عليّ في العودة إليه، بكل هذه الوقاحة والدناءة دمر حياتي ودمر علاقتي بعائلتي، لم يصدمني اعترافه، فلقد كنت على ثقة أن فعلًا دنيئًا مثل هذا لا يخرج إلا من رجل دنيء مثله، لكنني لم أجادله، ولم أذهب بدليل براءتي لعائلتي بل شعرت أنني ما زلت في حاجة للتعافي من كل الأحداث السريعة التي مرت بي.

لقد أصبح يومي تقليديًا جدًا، في التاسعة صباحًا أذهب للمكتب، أنهي بعض الأعمال ثم أخرج للمعاينة مع أحد العملاء راغبي شراء الوحدات السكنية، ثم أعود للمنزل، أقضي ساعات طوال على السرير حتى يغلبني النوم وهكذا، خلال فترة عملي الأولى تعرضت للكثير من العروض التي لا ترفض، فرغم كل الأحداث التي مرت بي كنت أحتفظ وأهتم بنفسي، هذه طبيعتي الشخصية التي أحبها في نفسي، ونظرًا لظروفي المختلفة كانت هذه الميزة تجعل الكثير من الرجال يتهافتون عليّ.

"دعك من هذا العمل الشاق ولنتزوج."

"دعك من هذه الحياة البائسة ولنتزوج ثلاثة أشهر سرًا، أكتب لك ما يضمن لك حياة أفضل ثم ينتهي كل شيء."

"ما رأيك لو تزوجنا عرفيًا ولك ما تريدين من ممتلكات تبنين عليها حياتك".

لم أبالغ أن أخبرتك أنني كنت أتعرض لمثل هذه العروض أكثر من عروضنا العقارية، لكنني كنت أرفض رفضًا قاطعًا، كلما فكرت في الأمر شعرت بالفزع، الخوف، مجرد التخيل فقط يثير قلقي ورغبتي في الاختفاء.

حتى ظهر مهاب الفقي، كان أحد العملاء ذوي النفوذ والمكانة الكبيرة جدًا في المجتمع، لقد اختارني صاحب الشركة للتواصل المباشر معه، لمهاب هيبة وطلة جذابة، شخص له مكانته المجتمعية التي يحترمها ويقدرها الجميع، كان تواصلنا سريعًا ومباشرًا، وعلاقتنا مجرد محاولات البحث عن مقر قوي لشركته في مدينة العلمين السياحية، لذلك اضطررنا كثيرًا للسفر معًا من أجل المعاينة، وما أدراك أن تسافر مع شخص يملك من الجاذبية ما يدفعك للتحدث معه دائمًا، في بداية علاقتنا كان أغلب أحاديثنا منصبة ناحية العمل، السوق

والاقتصاد والتوسعات وخلافه، لقد استفدت كثيرًا من التحدث معه، لكنني كنت حريصة معه فمجرد أي محاولة منه للتحدث عن أشياء شخصية يجدني أهرب من المناقشة والاستماع.

كان صراعًا داخليًا أن تحب الأشياء وتبتعد عنها، ظلت علاقتنا تتعمق أكثر وأكثر، ورغمًا عني بدأت في الاستماع لحياته الشخصية، هو مطلق لكنه لم يخبرني عن سبب الطلاق، حاولت كثيرًا الابتعاد عنه لكن شيئًا ما يدفعني للاقتراب منه رغمًا عني.

ظلت علاقتنا تتأرجح في هذا المنوال.

"ساعة نحن أصدقاء، وأيام ما يجمعنا هو علاقة بائع بمشتر."

حتى جاء يوم ذهبنا لمعاينة أحد المواقع في مدينة العالمين، ونحن في الطريق حاول التحدث عن حياتي الشخصية، وصدقًا كنت قبلها قد قضيت ليلة في غاية القسوة، وكنت في حاجة لمن أتحدث معه ولو بطريقة فوضوية عما يحدث في حياتي.

كيف حال شرف الدين؟

قلت محاولة إخفاء حزني كلما سمعت هذا السؤال:

- بخير، بدأت الامتحانات وبدأ معها الضغط العصبي والنفسي.

وكيف تواظبين بين عملك وبين متابعته.

قلت:

- أنت تعرف أن أمي تتكفل عنايته أغلب الوقت، لكنني أشتاق له كثيرًا.

همهم ثم قال:

- أنا أيضًا أشتاق لابنتي.

- أليس من حقك رؤيتها؟

قال وهو يبتسم:

- يحق لي رؤيتها والبقاء معها دائمًا، لكنني لا أفعل هذا.

- لماذا؟

أجاب:

- لأنني لا أحب فكرة العودة إلى المنزل، لا أحب وجودي مع والدتها في مكان واحد، مجرد

البقاء معها في مكان يثير غضبي، ويجعلني أشعر وكأن العالم يقف في حلقي.

قلت على حياء:

- ألم يكن زواجكما بعد علاقة حب؟

أجاب:

- أسطورية.

لكن في بعض الحالات الزواج يعني المسمار الأول والأخير في نعش العلاقة، أنا رجل سيئ جدًا، أقضي أغلب الوقت في الشغل، أحيانًا أعمل لاكثر من ثلاثة أيام بشكل متواصل وحين أعود للمنزل أعود منهكًا تمامًا، كان هذا يزعجها وكنت أفهم هذا وأقدره كل التقدير، لا ألومها على غضبها.

قاطعته:

- أرجوك لا تقل كما يقول معظم الرجال، زوجتي هي السبب في ابتعادي عن المنزل.

قال ضاحكًا:

- دعيني أقول لك كما يقول معظم الرجال، زوجتي بالفعل هي السبب في ابتعادي عن المنزل.

كانت علاقتنا مثالية وجميلة، حتى صممت على الإنجاب، أخبرتها أن الحياة صعبة، ولن نطيق إدارة المنزل في وجود طفل نتحمل مسؤوليته، لكنها ولأنها كثيرة الشك ظنت باعتقادها القديم أنني سأكون وفيًا لها أكثر بعد الولادة، وكعادة النساء حين يتزوجن ينشغلن في المنزل ويهملن في أنفسهن.

قاطعته غاضبة:

- ألا ترى أنك تتحدث بنفس النبرة الوضيعة، التي يتحدث بها كل الحمقى.

نظر إليّ فشعرت بالخجل:

- آسفة، أقصد أن هذه الكلمات هي المبرر الثابت عند كل الرجال، مبرر لقسوتهم، عدائيتهم، وحتى خيانتهم.

قال ونحن على وشك الوصول:

- صحيح أعرف هذا، لكن حتى لو كانت كلها أسباب للهروب والحجج، لكنها تحمل بعض

الحقائق أيضًا.

سألته محاولة قطع الطريق أمامه:

- كيف كانت علاقتكما بعد الإنجاب؟

بكل بساطة أرخيت يدي من كل شيء.

قلت حازمة:

- تقصد أنك فقدت أهلية المسؤولية أمام عائلتك، بهذه البساطة.

لم يرد علي، تظاهر بانشغاله بالطريق، ثم قال ونحن نقترب من مدخل مدينة العلمين:

- النساء هن السبب في استقرار المنزل، وهن السبب في الفوضى والطلاق، الرجل يبحث عن الاستقرار والهدوء والحياة بسيطة، أما النساء فيبحثن دائمًا عن خلق الدراما والأحداث، هذه طبيعتهن، لو أن كل امرأة حافظت واهتمت بزوجها وما يحتاجه لما سمعنا عن الطلاق.

لم أرد عليه، لأنني أعلم تمامًا نهاية المناقشة مع هذه العقلية الذكورية المنغلقة.

وصلنا إلى وجهتنا، وما إن وصلنا حتى جاءت أحد مساعديه، كانت سيدة ثلاثينية شقراء، لا أخجل من الاعتراف أنها جميلة وتبدو من طريقتها في التعامل معه أن علاقتهما علاقة وطيدة وقوية، فهي تتحدث معه بطريقة يغلبها الحب أكثر من الدبلوماسية.

تبادلنا الابتسامات ثم بدأت في عرض المشاريع والنماذج المناسبة لمهاب الفقي، بينما كان يستعين دائمًا برأي صديقته ومساعدته "فاتن"، التي كانت تتحدث بثقة تامة عن الأضرار والاستفادة من كل نموذج، بينما يقف مهاب ويستمع لها باهتمام ويؤيد رأيها، في نهاية اليوم اجتمعنا على طاولة العشاء في أحد المطاعم الفاخرة في مدينة العلمين، وهنا بدأت أتأكد أن ثمة ما يجمعهما ليس فقط علاقة عملية بل هو أكثر من ذلك، تعرف أكلاته المفضلة، مقدار الملح في طعامه، المشروب المفضل بعد العشاء، تعرف الكثير عن تفاصيله الخاصة.

ما رأيك لو تركت العمل في شركتك وعملتِ معنا في شركتنا؟

ضحكت من طريقتها في طرح العرض، وثقتها بهذا الشكل في الحديث.

قلت وأنا ابتسم لها:

- انا سعيدة بالعمل في شركتي، أحب عملي وأهتم به.

ضحكت ضحكة كيدية نسائية لا يفهمها إلا النساء:

- أنت تسافرين كثيرًا وتعملين طوال الوقت، ولقد علمت أن طبيعة عملك تؤثر على حياتك الاجتماعية وعلى علاقتك بابنك شرف الدين، العمل معنا سيسمح لك بقضاء وقت أكثر مع والدتك وابنك وسيوفر لك عائدًا أكبر.

شعرت بوخزة في قلبي، كان هذا حديثي مع مهاب الفقي، وكان عليه أن يحترم خصوصيتي..

تظاهرت بعدم تأثري بكلماتها وقلت:

- أعرف كيف أدير حياتي بشكل صحيح، أشكرك على هذا العرض الرائع، لكنني أحب عملي وأتعايش معه.

ظلت فاتن تمارس حركاتها الكيدية النسائية بالاهتمام بمهاب الفقي، في الحقيقة كنت لا أهتم كثيرًا بأفعالها، حتى انتهى اليوم، في طريق عودتنا إلى القاهرة سألني مهاب عن سبب صمتي، لكنني لم أرد عليه إلا بردود تقليدية معتادة، فقال بدون مناسبة:

- فاتن مجرد مساعدتي، تدير أعمالي وتهتم بالشركة، تبدو من تصرفاتها أنها أقرب مما يظن البعض، لكنها ليست كذلك أبدًا.

قلت ضاحكة:

- وما علاقتي بقصتكما؟

قال وهو مشغول في الطريق:

- تغيرت ملامحك كثيرًا في وجودها، وقد بدا وكأنك في حالة ضيق.

قلت:

- ليس صحيحًا أبدًا، كل ما في الأمر أنني انزعجت من معرفتها بتفاصيل حياتي، من أعطى لك الحق في إخبارها بما يحدث في حياتي.

بدا غير مهتم لغضبي فقال هادئًا:

- لا أرى أن الأمر يستحق كل هذا الغضب.

قلت:

- هو كذلك وأكثر يا أستاذ مهاب.

عدنا للقاهرة واتفقنا على موعد آخر لكتابة العقود، بعدما اختارت فاتن الموقع المناسب

لشركاتهم.

عدت للمنزل وحين دخلت غرفتي سقطت كما تسقط ورقة الشجر في قلب عاصفة شديدة، تهاوت ببطء غريب، كنت أشعر بقدمي وهي تتهاوى وتسقط وجسدي ينهار رويدًا رويدًا.

حاولت الانشغال بترتيب الغرفة، دندنت الأغاني، فعلت كل ما في وسعي لتجنب البكاء، لكنّ عينيي كانت أقوى من كل محاولاتي، لم تنجح كل محاولاتي وفجأة..

بكيت..

بكيت لأنني لم أتمن هذه الحياة.

بكيت لأنني أضعف من تحمل كل هذه الأحداث.

بكيت على أحلامي التي تحطمت رغمًا عني.

بكيت على المعارك التي خضتها رغمًا عني، ولم أجن منها إلا الهزيمة.

بكيت لأن كل الهزائم كانت من أولئك الذين من المفترض أن يدافعوا عني.

بكيت لأن الدنيا ترفض أي محاولة للتصالح والتفاوض معها.

بكيت على الطرق التي سلكتها وحدي.

وبكيت على دعواتي المعلقة في السماء حتى آمنت أنها لن تُستجاب.

بكيت لإيماني بأنني لا أستحق كل هذه المواقف الصعبة.

وبكيت لإيماني بأن العالم لن يتوقف عند حزني وتعبي.

بكيت لأنني أعيش حياة أحاول التأقلم معها، وهي ترفضني وتعاندني.

بكيت لأنني لا أستحق كل هذا.

ولأن العالم أكبر مني.

قضيت تلك الليلة وحزن العالم، كل العالم في روحي.

وفي الصباح استيقظت وكأن شيئًا لم يحدث.

بالطبع تعرف معنى أن تنهار في المساء ثم تستيقظ في الصباح وكأنك كنت تقضي ليلتك على شواطئ المالديف، مستحضرات التجميل صنعت لتجميل النساء ولإخفاء حزنهن، وقفت

أمام مرآتي، وبلمسات بسيطة اختفت الهالات السوداء، الكحل رائع إن تزينت به وأكثر روعة حين تستخدميه في إخفاء عينيك المرهقتين، ثم ابتسامة جميلة لتظهر أناقتك، كل شيء ظاهريًا يبدو في غاية الجمال والمثالية، بينما الخراب..

هنا في قلبي.

عادت الأيام الباردة لحياتي، اعتذرت عن مواصلة العمل في صفقة مهاب الفقي، كان قرارًا صعبًا عليّ لكنني امرأة حين تتخذ قرارًا في المساء لا تتراجع عنه في الصباح عكس أغلب النساء، لقد رأيت الأذى يلوح لي من بعيد ولست مستعدة لتجربة جديدة، حاول مهاب التواصل معي أكثر من مرة، لكنني لم أرد على مكالماته.

وذات يوم ذهبت إلى الشركة، وهناك وجدته ينتظرني في المكتب، في مثل هذه المواقف يجتاحني التوتر، لكنني تظاهرت بعكس ذلك.

لم ترد على مكالماتي منذ قرابة أسبوعين؟

لم أعد مسؤولة عن ملف شركتك، آمل أن تكون الأمور على ما يرام، لقد تولى الأمر، زميلة من أفضل الموظفات في الشركة.

ابتسم بسخرية من طريقتي الجادة وقال:

- صحيح زميلتك لا تبخل بأي جهد، لكن ليس هذا سبب مجيئي.

وأنا أرتب بعض الأوراق قلت:

- عسى الأمور بخير؟

قال ببساطة، وكأنه يسألني عن رأيي في قميصه:

- ما رأيك لو تزوجنا؟

ضحكت من طريقته في السؤال فقلت:

- ترى كل شيء حولك صفقة يمكنك الفوز بها في أي وقت.

الحياة قصيرة جدًا يا فرح، وقتي أثمن من الشد والجذب، وأثمن من أن نقضيه في محاولات القبول والرفض.

النرجسية التي أرفضها جعلتني أقول بلا أي محاولة للمناقشة:

- مع الأسف عرضك مرفوض.

نهض من مكانه، ثم خرج من المكتب وهو يشعر بالهزيمة.

شخص نرجسي مثله كان من الصعب عليه الخروج مهزومًا، مثل هؤلاء يزعجهم الرفض، يزعجهم شعور أنهم أرادوا شيئًا ولم يفوزوا به، وصحيح أنني قد بدأت أميل له لكنني لست مستعدة أبدًا لتحمل المزيد من المرضى النفسيين، لأنني بالكاد أتعافى من مخاوفي واضطراباتي النفسية.

بعد كل هذه الأحداث قررت مواصلة حياتي يا سقراط، والمزعج حين تقرر مواصلة حياتك تفاجئك الدنيا بأشياء جديدة تجذبك وتدفعك للتعثر، وربما التوقف مرة أخرى.

تعينت في إحدى الشركات الخاصة بتوريد الأدوية.

في هذه الفترة كنت ضعيفة جدًا أمام الونس، أحتاج لمن يملأ حياتي، لمن يشاركني تفاصيل يومي، أتحدث معه ويتحدث معي ونقضي وقتنا مع بعضنا البعض، بينما كنت أرفض الرجال ومحاولاتهم، كذلك أرفض طليقي ومهاب الفقي، رغم إلحاحهم الشديد، كانت فرصة لتقترب مني جهاد، جهاد كانت مطلقة مثلي في الأربعينات من العمر، امرأة قوية وعنيدة، تتزوج كثيرًا وشرطها الوحيد أن تكون العصمة في يديها، لا أخفي لك خبرًا، تعلمت من جهاد معنى القوة، معنى أن تكون قويًا وثابتًا وتملك زمام أمرك وحياتك.

قلت:

- جهاد صديقتك، لقد رأيتها معك أكثر من مرة، وأظن أنني أخبرتك بأنني لا أحب هذه المرأة، ولا أشعر براحة في وجودها بجوارك.

تنهدت فرح وقالت:

- لكنني أحببتها، كنت على وشك الغرق يا سقراط، وحين تصبح على وشك الغرق فستظل تبحث عن طوق النجاة الذي ينقذك ولو كان الطوق في نهايته دوامة تسحبك أكثر للأسفل، كانت جهاد بالنسبة لي القدوة والمثل الأعلى الذي وجدت فيه ضالتي وكياني، دعمتني كثيرًا وكانت سببًا كبيرًا في معرفة دهاليز الوظيفة وساعدتني في التعافي من مخاوفي، بل كانت سببًا في قدرتي على التعايش مع أوضاعي الصعبة، اقتربت من شرف الدين، وأصبحت بمثابة أمه الثانية، كل شيء كان مثاليًا في علاقتنا، صديقتي التي أهرول لها في لحظات ضعفي، أستشيرها في أحداث يومي وأسألها عن رأيها في كل الموضوعات التي تخصني، ولا أستطيع اتخاذ قرار إلا بمشاورتها، ثمة نساء يولدن وهن يشعرن بالقيادة والمسؤولية، وكانت جهاد مثالًا لهذه الشخصية، تعايشنا معًا في أوقات ولحظات صعبة، لم تكن جميلة بشكل كافٍ لينجذب لها الرجال، لكنها كانت قوية للحد الذي يجعلها مميزة بالنسبة للكثيرين، تعدد

علاقاتها لا يعني أنها امرأة ساقطة، كل ما في الأمر أنها لا تمانع من وجود رجل في حياتها ما دام يلبي احتياجاتها وأوامرها، وتجمعهما المنفعة المتبادلة، بهذه البساطة والوضوح..

هذه المرة كان الاحتياج..

تجاوزت الخمس والثلاثين، لم أعد الطفلة المسكينة التي عاندتها الحياة، بل أصبحت أكثر نضجًا وخبرة في التعامل مع حياتي، وكزست كل أهدافي لحياة ابني بطريقة أفضل، عدت وتصالحت وأثبت لعائلتي براءتي ليعود شرف الدين لبيته، قدمت استقالتي من الشركة وقررت أن أتعين في وظيفة أخرى، تغيرت علاقاتي بالناس وبدأت في التعامل بسطحية مع الجميع، وبينما كنت أرفض كل العلاقات، ظهرت جهاد صديقتي التي تعرفها.

قلت :

- لا أتذكر أنني قلت لك هذا أو لا، لكنني لا أشعر بالراحة في وجودك مع هذه الفتاة.

ابتسم ثم واصلت:

- لقد حاولت جهاد الاقتراب مني بشتى الطرق الممكنة، ورغم القوة التي أصطنعها أمام الناس فإنني أحتاج لأي شخص يمكنه الاستماع لي، والاهتمام بأمري أكبر من كل الحواجز التي أضعها حولي.

لم يمر وقت طويل وأصبحت "جهاد" محور حياتي وعالمي، زواجها المتكرر كان يُزعج أمي لكنها لم تدخل بشكل مباشر في علاقتي بها، وظلت صامتة وهي ترى علاقتنا تتطور يومًا بعد يوم.

لكن ومع مرور الوقت بدأت جهاد تتغير في تفاصيل كثيرة، تتجنب التحدث معي أثناء العمل، لا نلتقي إلا مصادفة، لا نتشارك تفاصيل يومنا، تسافر وحدها، تخرج مع أصدقائها ولا تدعوني، وحين أطلبها على الهاتف لا ترد على مكالماتي، شعرت بأن ثمة أشياء تغيرت في يومها العادي، في البداية ظننت أنها تأثير الضغوطات والأزمات التي نُعاني منها جميعًا لكن الأمر بدا ملحوظًا.

وذات يوم قررت مصارحتها لأنني أخشى أن يكون الصمت هو بداية نهاية علاقتنا، دعتني لشرب القهوة معًا في أحد المقاهي وجلسنا.

تحدثنا عن الكثير من الأشياء العامة حتى سألتها سؤالًا مباشرًا:

- ألا ترين أنك تغيرت بعض الشيء في علاقتك بي؟

ضحكت وردت:

- لكل شيء سبب.

رددت محاولة استدراجها في الرد:

- أحب أن تخبريني بالأسباب.

قالت:

- الشيخ صبحي.

لم أفهم الإجابة.

فنظرت ورائي، نهضت من مكاني ثم رحبت بضيفها الذي لم تخبرني بمجيئه، كان رجلًا أشبه بالشحاذين، مهرول في ملابسه ومظهره، شخص لا يمكن أبدًا أن تجمعني به طاولة واحدة، شعرت بالتوتر في وجوده فاستأذنت منهما وجلست على طاولة أخرى.

ظل يرمقني بنظرات متقاوتة، بينما كنت أدخن بشراسة محاولة إخفاء التوتر.

ساعة.

ساعتان.

ثم انصرف وهو يواصل التحديق فيّ.

عدت لجهاد غاضبة مما حدث.

- لا يمكنك دعوة شخص آخر في وجودي إلا بعلمي يا جهاد، خصوصًا مثل نوعية هؤلاء غريبي الأطوار.

قالت وكأنها في ملكوت آخر:

- غريب الأطوار هذا هو أكثر شخص أثق فيه.

- تثقين في رجل أشبه بالدجالين؟

ردت:

- عراف وليس دجالًا.

- تمزحين أليس كذلك؟

أجابت:

- لا أرى في كلماتي شيئًا من المزاح، لقد تعبت من الأحداث المتتالية في حياتي، حتى شككت أن ثمة من تعمد إيذائي بطريقة غير مباشرة.

قاطعتها:

- هذه خرافة لا يصدق مثل هذه الأشياء إلا المجانين المشككون في قدرة الله عز وجل.

قالت:

- أنا لا أكفر بالله، أريد الاطمئنان على نفسي، وقد صدقت ظنوني وتوقعاتي.

- وماذا قال لك هذا المخبول؟

- ليس مخبولًا لقد ساعدني في معرفة بعض تفاصيل حياتي، أوضح لي الكثير من الأشياء التي كنت لا أعرفها، كانت رؤيته صائبة في كل الأشخاص الذين عرفتهم والذين أعرفهم، حذرني من بعض الأشخاص وأجبرني على الابتعاد عن الآخرين.

قلت:

- وكان من ضمنها الابتعاد عني أليس كذلك؟

ردت:

- لا لم يحدث هذا، كل ما في الأمر أنه أراد أن يراك وقد حققت ما أراده.

قلت لها غاضبة:

- جهاد، هل أنتِ واعية لما تقولين، امرأة مثلك تصدق رجلًا مخبولًا، ثم ماذا قال عني؟

قالت:

- لم يقل إلا أنك امرأة صالحة، ويريد مساعدتي أكثر بمساعدة المقربين مني.

مساعدتي؟

مستحيل أنا لا أصدق هؤلاء النصابين.

قالت:

- هو لا يطلب المال، ليلة واحدة معك تكفي لمساعدته.

ليلة واحدة؟

من غبائي بعض الموضوعات لا أفهمها إلا بطريقة مباشرة.

قلت ماذا تعني ليلة واحدة؟

ضحكت وقالت:

- ليلة واحدة على الفراش يا فرح.

نهضت من مكاني غاضبة ولم أرد عليها.

قالت بصوت هادئ:

- يبدو أنه على حق.

توقفت في مكاني:

- ماذا قال؟

ردت:

- من سيهرب من الكشف عليه في حياتك، سيكون هو الشخص الذي يؤذيك.

نظرت لها باستحقار ثم خرجت من المقهى متجهة إلى المنزل.

المشهد المعتاد..

عند هزيمتك فالسرير هو الملجأ الوحيد والمنومات هي الحل المثالي لتجنب التفكير، وغدوت في نوم عميق، لا أظن أنني نمت مثل هذه الليلة من قبل.

واصلت فرح حديثها ونحن نتجول في النادي..

كانت ليلة في غاية الحزن، لا تختلف كثيرًا عن كل الليالي التي عشتها من قبل، لقد هزمتني اختياراتي للمرة الثانية، وهزمتني الدنيا أمام عائلتي، في المرة الأولى قد يغفر لي سذاجتي وقلة خبرتي، أما المرة الثانية فهذا كان اختياري الذي عارضت الجميع لأجله، كانت ليلة كل ما فيها يدفعني للبكاء لكن لمَ البكاء وأنا السبب في اختياراتي، أنا من اخترتها صديقة لي، وأنا من علي تحمل ضريبة اختياري بكل بساطة.

لم أنكر أنني أسأت الاختيار يا سقراط، لم أكذب ولم أجمل ولم أحمل أحذا سوء اختياراتي، لكن دعني أقول لك جملة قرأتها في غاية الخطورة "الطفل الذي لم يجد احتواء من عائلته سيظل يبحث عنه ولو بلغ من العمر أرذله."

صحيح أنهم أحبوني ولم يحرموني من شيء، لكن كانت طريقتهم بعيدة كل البعد عن

احتواء طفلة وحيدة، لم أجمل سوء اختياراتي لكنني كنت أبحث عن شخص واحد يمكنني الوثوق به، الاعتماد عليه واللجوء له، ولقد ظهرت جهاد في حياتي لتتكفل هي بهذا الدور الشاغر، والآن عليّ تحمل قراري وتوابعه وأخطائه.

حاولت التواصل معي أكثر من مرة لكني لم أستجب لمكالمتها، قررت أن أمضي في حياتي من جديد مهما كان احتياجي لها لن أطلب مساعدتها.

شخص يؤذيك ويضل طريقك، وقد يتسبب لك في متاعب لا تتحملها، الابتعاد عنه قرار سليم وبسيط أليس كذلك؟

لم يكن الأمر كذلك معي، بل كان أشد مما أتخيل، لا تتحدى الاحتياج مهما بدأت قويًا في قراراتك فالحنين هو السيد والمتحكم الوحيد في شخص تغلبه العاطفة، ظللت في ثباتي حتى أرسلت لي رسالة.

"أنا في المستشفى بين الحياة والموت وأحتاج لك."

قرأت رسالتها وسرعان ما اتصلت بها وعرفت عنوان المستشفى، وبعد ساعة كنت هناك أجلس بجوارها على السرير في رعايتها، وهذه علة أخرى في شخصيتي يا سقراط مهما كان الأذى الذي تسببه لي شخص ما، فور احتياجه لي يجدني بجواره بكل طاقتي، لا أبخل عليه بالعطاء والود ولو كان يجهز للوقوع بي مرة أخرى، لم أتركها وحدها بعدما تخلى الجميع عنها، ظللت يومين بجوارها أرعاها، لم أعاتبها، لم أسألها عن أي شيء، كل ما كنت أريده منها أن تنهض سالمة من وعكتها الصحية أولًا وبعد ذلك يمكننا التحدث عن خلافاتنا، وبعد يومين نهضت بالفعل، ظللت معها حتى عادت للمنزل.

فرح، لماذا تبتعدين عني؟

قلت:

- أتمنى أن تنهضي سريعًا من فراشك يا جهاد.

وهي تتلعثم وتتنفس بصعوبة قالت:

- ليلة واحدة فقط يا فرح، ليلة واحدة وسيتم شفائي، حياتي بين يديك.

جهاد أرجوك لا تصدقي هذا المخبول، إنه مدعٍ يحاول بيع الوهم لك ليستفاد منك.

ردت:

- أقسم لك ليس مخبولًا كما تظنين، كان معه حق في كل كلمة.

قلت:

- حق في كل كلمة !

هل تصدقين أنني أريد أذيتك يا جهاد، تصدقين هذا الدعاء؟

لا لم أصدقه لكنني أحتاج لمعرفة المتسبب في كل الأذى الذي يحدث لي، وقد فشلت كل محاولاتي، صدقيني يا فرح مجرد ليلة واحدة.

قلت غاضبة:

- ليلة واحدة ولن أعود بعدها كما كنت أبدًا يا جهاد.

قالت:

- من أجلي يا فرح..

من أجل صديقتك..

مستحيل يا جهاد..

مستحيل.

عدت للمنزل غاضبة لم أتوقع إصرارها على العرض السخيف لها الحد.

المنومات مرة أخرى هي الحل المثالي لمرور الليالي الصعبة.

جلست على السرير حتى غلبني النعاس.

استيقظت مفزوعة على صوت الهاتف.

مدام فرح، أنا دسوقي، مدام جهاد اتصلت بي وكان صوتها في غاية التعب وطلبت بعض الأدوية مني، صعدت لها بعدما لبيت طلباتها لكنها لم تفتح الباب، حتى اضطررت لكسره والآن هي فاقدة الوعي، هل يمكنك المجيء.

لم أشعر بنفسي إلا وأنا أجري كالمجانين بالسيارة، أظن أنني كدت أن أقتل بعض المارة العابرين، كسرت الإشارات، وسلكت طريقًا مخالفًا، وتجاوزت السرعة المسموحة، كنت أريد إنقاذها بأقصى سرعة ممكنة، المسافة التي كانت تبعدني عنها أكثر من ساعة، تجاوزتها ووصلت لها في أقل من خمس عشرة دقيقة.

وصلت إلى منزلها وصعدت بسرعة، الباب كان مفتوحًا فدخلت مسرعة ناحية غرفتها، لم أجدها، ظللت أبحث عنها وأنادي عليها، لم أجدها.

المطبخ..

غرفة تومها..

غرفة الأطفال..

الشرفة..

الحمام..

فجأة سمعت صوت غلق الباب..

جهاد..

جهاد..

فجأة ظهر الشيخ صبحي وفي عينيه نظرات الشر والغضب.

لا أحد هنا سوانا..

أنقض علي وظل يطاردني وأنا أهرب منه في الغرف وأبكي محاولة النجاة.

في الأخير لم أجد نفسي إلا بين ذراعيه..

ينزع كل ملابسي ويلتهم جسدي بكل عدوانية..

فقدت الوعي تمامًا..

من قسوة الاعتداء والبكاء والصراخ..

أو لأنني لا أصدق ما يحدث لي الآن..

لا أتذكر متى استيقظت لكن ما أتذكره أنني كنت عارية تمامًا على سرير جهاد، منهكة تمامًا، لا أقدر على رفع أصابعي، وآثار الاعتداء واضحة على جسدي، الغرفة مظلمة تمامًا ولا أحد سوى صوت قاتن وهي تسأله..

- هل هي التي تنوي أذيتي؟

قال:

- لا ليست هي، لديك صديقة أخرى رأيتها معك من قبل، أشعر أنها هي، نظراتها، ردودها، وتصرفاتها معك لا تريحني.

قالت:

- لا أستطيع تكرار ما حدث مع فرح، سارة تملك علاقات قوية كفيلة بإيداعنا السجن.

هنا قال بثقة:

- اتركي الأمر لي لن يتم مزج اسمينا فيما سيحدث، على أي حال لقد اقتربت من معرفة من السبب في كل الأذى الذي حدث لك.

واصل وعلى ما يبدو أنه ألقى في جعبتها شيئًا:

- هذه جرعتك الثالثة، سيزداد السعر قريبًا.

فتحت الباب فتحة صغيرة حتى أراهما..

فوجدتها تضع مادة بيضاء على الطاولة وتستنشقها بشراسة..

كوكايين!

لقد جعلها مدمنة أيضًا..

لم تطل فترة استعادة الوعي حتى سقط مرة أخرى على الأرض..

ولم أستفق إلا بعد ساعات، في مستشفى وأمامي دكتورة تقول لجهاد:

- لقد تعرض الجهاز التناسلي لتهتك شبه كامل أصاب الرحم أيضًا..

- ماذا يعني هذا؟

قالت وهي تنظر لتطمئن على حالتي:

- سيكون من الصعب عليها مستقبلًا الحمل والإنجاب.

خرجت الدكتورة بينما وقفت جهاد تنظر إليّ، نظرات ما بين الحزن والغضب والندم، كنت أراها مشوشة تمامًا، حاولت أن أتمالك نفسي والتحدث..

لم أكن أستحق هذا منك يا جهاد..

نظرت إليّ وعينيها ممتلئتين بالدموع:

- سامحيني يا فرح، سامحيني لكن ما باليد حيلة، كان هذا الحل الأخير أمامي..

قلت وأنا أبكي:

- التضحية بي يا جهاد، التضحية بحياتي..

لم ترد.

جاءت الطبيبة مبتسمة:

- حمدًا لله على السلامة مدام فرح، كان علينا اتخاذ بعض الإجراءات القانونية بشأن الواقعة، لكن صديقتك طلبت منا التحفظ على هذه الإجراءات، حفاظًا على بعض العادات والتقاليد، ونظرًا لنفسية طفلك المضطربة.

لم أرد عليها لكنني سألتها:

- متى يمكنني الخروج من هنا؟

أجابت:

- من الآن إن أردتِ، شرط البقاء في السرير لمدة أسبوع وتجنب أي مجهود عصبي أو جسدي.

خرجت من المستشفى وعدت للمنزل وأول ما قمت به هو الاتصال بوالدتي أخبرتها أنني منهكة جدًا ولا أستطيع الذهاب إليها، سألتني إن حدث شيء ما فقلت مجرد تعب بسيط وسيزول.

من حين لآخر كانت تطل جهاد علي، تحاول الاطمئنان علي ومساعدتي لكنني كنت أرفض كل محاولاتها، كان يؤلمني شعور أنني لا أستطيع اتخاذ موقف حاسم منها، رغم كل الأذى النفسي والجسدي الذي حدث منها، أنا ضعيفة يا سراج، أنا امرأة هشة لا يمكنها اتخاذ قرار واحد في حياتها، حتى ضد هؤلاء الذين تعمدوا إيذاءها.

صمتت فرح للحظات في هذه اللحظة كنت أكتب شعورها، أكتب نصًا يعبّر عن حالتها:

- ولقد خذلتني يا صديقي، لست أول خذلان حدث في حياتي لكنك كنت أشد أذى مر على قلبي، لأنني صارعت نفسي للوثوق بك بعدما عاهدتها ألا نثق في أي شخص، هزمتني أمام نفسي حين راهنت على وفائك، على مشاعرك وتضحياتك من أجلك، بل ودفعتني للتضحية من أجلك أنا الذي لم أضح يومًا من أجل نفسي، خذلتني أمام كل الناس الذين حذروني منك والذين راهنوا أنك لست شخصًا جديرًا بالثقة، وضعتني في موقف محرج وأنا لا أعرف كيف أقول للناس إن الخذلان جاء من الجهة التي حاربت من أجلها، من الجهة التي راهنت عليها أنها دار الأمان والثقة، هزمتني حين قلت لن تأتي الضربة منه بل سيكون أول من يدافع عني ويحميني في لحظات ضعفي وانهياري، وكنت أنت أول من يهاجمني ويعريني أمام الدنيا، بل

وضعتني كبش فداء أمام الحياة وجلست مكتوفي الأيدي تتابع لحظات انهياري وسقوطي، لم تحرك ساكنًا بل ساعدت الآخرين في تدميري، هزمتني يا صديقي وجعلتني أخجل من نفسي ومن علاقتي بك وأتجنب كل شخص يعرف بأمر علاقتنا، علاقتنا التي كنت أتباهى بها أمام الجميع، بأفعالك جعلتني أخجل منها، ولولا أنني شخص لا ينكر العلاقات لأنكرتها وتبرأت منها، لقد خذلتني وأذيتني يا صديقي ولم تكن جديرًا بالثقة والمسؤولية، لم تحفظ الأمانة التي أعطيتها لك، لم تحفظ قلبي ولم تصن أسراري ولم تقوِ نقاط ضعفي، بل كنت أنت نقطة ضعفي وهزيمتي الأعظم في الدنيا، لقد خذلتني ووضعتني أمام نفسي، ألومها وأستحقرها وأجلدها، حين أتذكر ما حدث بيننا.

أبتسم لأنني كنت صادقًا معك، أبتسم لأن ما يجمعنا ذكريات حقيقية، لأنني رسمت الكثير من أحلامي معك، أبتسم لأنك كنت الاستثناء الوحيد، ولأنني كنت مكتفيًا بك عن عائلتي، أوصدت كل الأبواب التي كانت تسمح بوجود شخص آخر، وكنت أمامي أراك كل العالم.

أبتسم وتطول ابتسامتي حتى تمر النهاية أمامي فأنهار تمامًا، أنهار من ساذجتي وثقتي فيك، وأسخر من تخيلاتي التي ظنت أن الأصدقاء بيوتنا الدافئة التي لا تخون أبدًا، أن الأرض التي تزرع فيها الياسمين لن تجني منها إلا الياسمين، لكنني معك اكتشفت أن الأرض التي لا تعرف إلا الصبار لن تزرع في باطنها إلا الصبار، واكتشفت أن الهواء الذي يلطف عليك جحيم الدنيا قد يصبح السم الذي تستنشقه فيقتلك، واليد التي تمسح بيديها أوجاعك هي نفسها القادرة على زرع كل الخناجر في قلبك.

أبتسم لأنني أحببتك يا صديقي.

وأبتسم لأن خذلاني الأعظم في الدنيا كان منك أنت.

قاطعتني فرح:

- بالطبع كنت تكتب الشعور الذي أعاني منه..

ضحكت وأنا أهز رأسي لأنها تعرف ما كنت أكتبه.

سألتني منهزمة:

- هل أستحق كل هذا الأذى الذي حدث في حياتي يا سقراط؟

تظاهرت بعدم الاستماع لسؤالها، لكنها كررت سؤالها فقلت:

- مع الأسف تستحقين كل الأذى الذي حدث لك يا فرح. تستحقين الأذى ولا يمكن لأي شخص عاقل التعاطف معك، أتدرين لماذا؟ لأنك تعرفين علتك يا فرح، تعرفين مأساتك

ومشكلتك ونقاط ضعفك، تستحقين الأذى لأنك ضعيفة الإرادة وتجهلين التعامل مع أهوائك الشخصية أو لا تقدرين على تحمل مسؤوليتها، تخافين من مواجهة الأشياء فتواجهك الدنيا بما هو أصعب وأشد، حتى أضعف الأحداث ستصبح في عينيك أشدها عدوانية وقوة لأنك هشة يا فرح، لأن المرأة حين لا تقوى على مواجهه نفسها لن تقدر على مواجهه العالم، تستحقين الأذى لأنك مصابة بالتعلق المفرط، تزرعين في وريدك سم الأفعى ثم تطلبين منها أن تكون رحيمة بك، تستحقين الأذى لأن قلبك لا يزال يرى الدنيا بنظرته الطفولية الساذجة، والدنيا لا تحب هؤلاء الضعفاء، لا تقويهم بل تكسرهم، وكلما زاد ضعفهم كسرتهم والتهمتم أكثر يا فرح، وستبقى تواصل عدوانيتها معهم حتى تقتلهم تمامًا.

قالت بقلة حيلة أعرفها :

- وما الحل يا سقراط؟

قلت وهي تعلم تمامًا أنني أبغض هذا السؤال:

- الحل في الموعد المناسب، يؤسفني أن أقول لك هذا، لكن كل الحلول التي سأخبرك بها لن تنفذيها، أتعرفين لماذا؟

- لأنك ما زلت تبحثين عن شيء يكمل الفراغات الكبيرة في روحك، حتمًا سيأتي الموعد المناسب الذي أخبرك به.

انتهت وقت الجلسة يا فرح..

وهي تضحك:

- أنا صديقتك يا سقراط.

قلت:

- أصدقاء حين نتناقش في بعض الأمور لا حيث الاستماع لأزماتك وتعثراتك المستمرة..

- ينعل أبو المادية التي لا تتخلى عنك.

قلت وأنا أستعد للرحيل:

- نفسها التي تجبرك على تحمل سخافة وثقل دم مجدي مديرنا، بالمناسبة من سيدفع جلسات أحمد ياقوت؟

- سأتحملها أنا لا تقلق بشأن هذا.

أبتسمت ثم اتجهت لبوابة الخروج ومن ثم توجهت إلى المنزل، ما أن وصلت حتى اتصل بي مساعد السيد أحمد ياقوت.

- مساء الخير أستاذ سراج، سيدي في انتظارك غدًا في السادسة مساءً، أرجو ألا تتأخر..

- في الموعد إن شاء الله.

بعد يوم شاق أكثر ما يحتاجه المرء هو الهدوء والسكينة، يغمض عينيه ويسرح في الفراغ، تاركًا لأفكاره حق الخروج من رأسه المزدحم بها.

رسالة جديدة من "إليزا"..

- كيف كان يومك يا سقراط؟

- جيد أو على الأقل ليس بالسوء المعتاد.

- يمكنني الاستماع لتفاصيل يومك إن أردت.

- لا لقد مللت هذه العلاقة، لست في حاجة للمزيد من الألغاز في حياتي.

توانٍ معدودة ثم ردت:

- لكن هذا اتفاقنا، علاقتنا ستبقى مجرد صندوق رسائل لن تغيرها الأحداث مهما حدث.

كانت في نفسي طاقة غضب كبيرة فقلت لها:

- وهذا لا يعجبني، لماذا ترفضين الاقتراب مني، لماذا ترفضين أن تكون علاقتنا حقيقية، ما الفائدة من علاقة تنقطع بمجرد انقطاع خدمة الإنترنت.

توانٍ ثم ردت:

- لأن الاقتراب من الناس، معرفة تفاصيلهم ومشاركتهم تفاصيلك، الاعتماد عليهم واعتمادك عليهم، كلها مؤشرات في غاية الخطورة، البشر "مؤذيين" أنا نفسي قد أؤذيك إن اقتربت أكثر من مساحتك الشخصية، صدقني من الأفضل أن نظل هكذا لا أريد أن تتذكرني بسوء أو يمر اسمك أمامك فيتألم قلبي، أريد أن تكون علاقتنا لطيفة وهادئة مهما طالت، لا أحد منا يستحق الأذى.

لم أرد عليها، تركت الهاتف بجواري، ثم نمت فطاقتي لم تسمح للمزيد من المناقشات.

# الفصل الخامس

الشيء الأكثر إزعاجًا في الحياة هو أن الشخص الصادق يخسر دائمًا في صراع الكلمات، لأنه مقيد بالحقيقة بينما الشخص الكاذب يمكنه أن يقول أي شيء.

روبرت شيكلي

في صباح اليوم التالي..

استيقظت كعاداتي منهكًا، مزاجي سيئ، ورغبتي الوحيدة هي البقاء في سريري، لكن مثل هذه الرغبات لا تمنعني من النهوض لمواصلة حياتي المملة الروتينية.

إشعار جديد من إليزا..

"سراج، أنا آسفة لكنني لا أستطيع اختراق هذه المساحة التي صنعتها بيننا، لا تصدق يا سقراط أن هذا الوضع يعجبني، قد لا تصدقني إن أخبرتك أنك الشخص الوحيد الذي أتحدث معه، قد لا تصدق أنك الشخص الوحيد الذي أخبره ببعض تفاصيل يومي وأسمع بعض تفاصيل يومه، قد لا تصدق أيضًا أنني حاولت مرارًا الاقتراب منك أكثر ومطاوعة قلبي ورغبته في صنع علاقة حقيقية معك، لكن أنا امرأة ما أن تقترب من الأشياء التي تحبها حتى تهرب من بين يديها، ما أن تلامس النجوم حتى تبتعد عنها، وفي اللحظة التي توشك قدماها على الوصول إلى البر، تدفعها الرياح إلى الداخل فتغرق من جديد في قلب المتاهة، سراج أنا آسفة إن تسببت لك في أذى أو حزن، صدقني أنت آخر شخص يمكنني أذيته لكن من يعلم ربما قد حدث هذا رغمًا عني.

سراج أنا آسفة لا يمكنني إعطاؤك ما تتمنى والخطأ ليس خطأك إنما هو خطأ الدنيا، رحيل الأشياء التي تمنيتها يفقد قدرتك على التمني، هزائمك المتكررة تعلمك الحذر ألا تخوض معارك جديدة، فقدانك للأشياء التي تشبثت بها يعلمك ألا تتشبث بأي شخص، وانكساراتك المتتالية تجعلك ترفض ترميم أحد لحطامك، الحب من مسافات بعيدة، أن تحب الأشياء ولا تلمسها، تتمناها ولا تدعو بها، تتخيل حياتك معها لكنك لا تأخذ خطوة واحدة اتجاهها، تكتب عنها ولا يقرأ أحد سواك.

تعاقب نفسك بالتخلي، الهجر، والحرمان لأن الدنيا قررت أن تعاقبك بها من قبل ورغمًا عنك، على أي حال أيًا كان قرارك أتمنى السعادة لك لأنك الشخص الوحيد الذي أردت أن تكون الدنيا رحيمة به.

قرأت الرسالة، ثم انطلقت إلى المكتب في يومي المعتاد من البيت إلى العمل، ثم لقاء أحد

أصدقائي ثم العودة من جديد إلى البيت.

إشعار جديد من إليزا..

"سراج، لا تنسى ذاك الذي يفكر في الانتحار"..

أغلقت الهاتف متجهًا إلى المكتب، هناك كانت فرح مشغولة في كتابة بعض التقارير فأخبرتها أنني لست مستعدًا لسماع المزيد من الأحاديث منها، وأن صديقها الآخر أحمد ياقوت في انتظاري.

- أنت لست صديقًا وفيًا يا سقراط.

ضحكت:

- معك حق..

مر الوقت الروتيني المعتاد، وفي الخامسة خرجت من المكتب متجهًا إلى منزل الممثل ياقوت.

في حديقته وعلى الكرسي الخشبي جلس مرتديًا ملابسه الكلاسيكية يستظل بفروع إحدى الأشجار الضخمة، كان يحدق في الغيوب الكثيفة في السماء وكأنه كالأطفال يرسم ويتخيل أشكال السحب الكثيفة، ويبتسم، ظللت أتابعه من بعيد لدقائق، حتى اقتربت منه، رحب بي بابتسامته الهادئة.

ظل الصمت سائدًا بيننا.

يقولون إن هناك لحظات تمر على الإنسان لا يعود بها كما كان أبدًا.

هذا بالضبط ما حدث بيني وبين أيلا..

الفتاة التي عرفت معها معنى أن تتأمل في ملامح المحبوب، تسرح في صورته وتتأملها وتغفو عليها وليتحسن مزاجك في الصباح تكون ضحكتها هي الحل المثالي لمواجهة الدنيا.

وإن بدا في الدنيا كل شيء فوضويًا كان العالم يستقيم ويبدو مثاليًا في وجودها بمثل البساطة التي تؤثرك وتجعلك تتمنى الحياة.. فقط بين ذراعيها.

كل شيء بدا مثاليًا في مراهقتنا، كانت أحلامنا أكبر من كل النصائح التي كنا نسمعها بأن حب المراهقة ينتهي مع مرحلة الشباب ومع صفعات الدنيا المتتالية، كنا نسخر ونستهزئ بهذه الفكرة السخيفة، وبخبرتنا المحدودة نتحدى الدنيا في سبيل أن نبني حياتنا معًا، حماس الشباب يا سقراط، ذاك الذي يجعلك ترى الدنيا ببساطة أن تعيش مع من يختاره

قلبك وتبني حياتك معه، هكذا ظننا وآمنا حتى بدأت المسؤوليات وإدراك أن هناك حاجزًا عتيقًا لن نستطيع تجاوزه أبدًا.

بدأ الأمر- كما أخبرتك- حين تواصل معي أحد المخرجين المعروفين في الوسط المسرحي والسينمائي، طلب مقابلتي لأكون بطلًا في مسرحيته الجديدة اتفقنا على كل شيء ثم ذهبت لمقابلة أيلا لنحتفل معًا بتحقيق أول أحلامنا، الحلم الذي سعينا طويلاً ليتحقق.

كان يومًا مثاليًا، جميلًا ومبهجًا بطريقة لا تنسى، عدا شيء واحد كان يثير قلقي.. عيناها..

كانت ترمقني بعض النظرات الخاطفة الحزينة، شيء ما في عينيها يريد أن يقول عكس ما تقوم به، شيء ما في عينيها لا يبدو بهذه السعادة التي تحاول إظهارها، سألتها إن كانت تخفي شيئًا ما لكنها كانت تضحك وتقول إنها تأثير الفرحة، مر اليوم وقبل أن ينتهي اليوم جلسنا على أحد الأرصفة، جلستنا المفضلة البسيطة التي نحبها وتسعدنا.

- شيء ما في عينيك يا أيلا.. ماذا حدث؟

- تأكدت ظنوني حين رأيت عينيها تقاوم شلالات الدموع.

اقتربت منها أكثر ومسكت يديها:

- ماذا حدث يا أيلا؟

تمالكت نفسها وقالت ببراءة وهي تقاوم البكاء:

- أظن أن هذا التوقيت المناسب لتنتهي علاقتنا، لا بد الآن من الاعتراف أن زواجنا أمر مستحيل.

- مستحيل؟

- نعم، مستحيل يا ياقوت، حان الوقت لنعترف أننا نهرب من حقيقة أن الزواج بين أفراد عائلتنا مرفوض رفضًا تامًا.

قاطعتها:

- نحن نعلم هذا منذ بداية علاقتنا، لكننا تعاهدنا على المحاولة.

ردت يائسة:

- لن تفيد صدقني، لقد تحدثت مع أمي عن علاقتنا، وقالت إن الأمر مجرد التلميح به في

عائلتنا سيشعل النيران يا ياقوت، ونحن لن نتحمل عواقب ما سيحدث، الآن لقد وصلت لبداية مشوارك وطريقك وتحقيق أول أحلام، هذا هو الوقت المناسب لتركز في حياتك وهدفك وصدقني مع النجاح ستتناسى أمر علاقتنا وحين تتذكرها ستبتسم وتواصل حياتك، نهضت أيلا تاركة مع خطواتها مئات الخطوات والأحلام، وكل باقات الحب والأمل متناثرة على الطريق.

لم أتحرك من مكاني، ظللت أتابعها وهي تتحرك وتبتعد عني رويدًا رويدًا، أودع أول أحلامي، معلنًا هزيمتي في معركة لم أخضها من الأساس.

سألته وأنا أكتب ما يقوله:

- وهل انتهت قصتكما عند هذا اللقاء؟

قال وهو يشعل سيجارته:

- على العكس لقد بدأت قصتنا عند هذه اللحظة!

- لأكون صادقًا معك يا سقراط، لم أحاول التواصل معها، للنجاح نشوة ولذة إن داعبتك مرة لن تستطيع العيش بدونها.

وهبت عمري للأمل ولا جاشي..

وغمرت غيطي بالعطش ما عطاشي..

ورعيت لمحبوبي هواه مرعاشي..

والليل عليا طويل وأنا عليل..

موجود دوا بس الطبيب مرضاش.

تمامًا كما غنى الشيخ إمام، والأمل الوحيد الذي تشبث به أمام الناس هو النجاح والشهرة، هذه هي غايتي في الدنيا، بينما في نفسي كنت قد وهبت عمري للأمل، لكن للفوز بأيلا، كل خطوة كنت أخطوها في مسيرتي الفنية كانت من أجل الفوز بأيلا، أن تحارب للفوز بالحياة مع شخص تحبه، ربما هذه أحد أعظم وأهم الحروب التي قد تخوضها في حياتك، كل إنجاز كان ينسب لي كنت أضعه في قائمة الأشياء الجميلة التي ستكون سببًا في زواجنا، كل نجاح أحققه كنت أعتبره أساسًا جديدًا في بيتنا الخيالي، كل إشادة أسمعها أتمنى لو كانت معي أو سمعتها لتفتخر بالشخص الذي أحبها، من بين الحضور في عروض السينما كنت أفتش عنها، من بين حفلات التكريم كنت أفتش بين الحضور عنها، ربما حضرت مصادفة، ربما قادتها

قدماها لهذا الحفل، ربما جاءت لتراني وأنا على منصات التتويج، كل شيء مرتبط بها، كل شيء ولأجله، في النهار لا شيء أكثر من العمل والتركيز حتى أصل لوجهتي ومرادي.

- وكيف كان الليل؟

- كما تقول أم كلثوم في أغنيتها..

أسأل عن اللي يقضي الليل بين الأمل وبين الذكرى..

يصبر القلب المشغول ويقوله نتقابل بكرة..

وبكرة يفوت وبعده يفوت..

ولا كلمة ولا مرسال..

وهو العمر في كام يوم..

وأنا بعدك عليا طال..

يا مسهر النوم بعينيا..

سهرت أفكاري وياك..

الصبر دا مش بأيديا..

والشوق واخدني في بحر هواك.

أراقبها من بعيد كمطرود من الجنة يجلس على بابها أملاً في العودة إليها مرة أخرى، ألاحظ اقتراب شخص منها فتهزمني الغيرة والترقب، أقضي الليل وأنا أرى تعليقاتها مع أصدقائها على صفحات التواصل الاجتماعي، الأشياء الجديدة التي أصبحت تحبها، خطواتها العملية والعلمية، الأماكن التي أصبحت مفضلة لديها، أراقبها بتركيز وما بين مراقبتي وأملي في عودتنا، يبتسم الواقع من بعيد ويعانقني اليأس، أتذكر استحالة العودة وأتذكر أن عليّ مواصلة الطريق وحدي، أغرق أكثر في حزني وكم اللحظات التي عيشتها وكادت تكون عظيمة لولا غيابها، كان فقداني لها في لحظات المجد يحوّلها للحظات تعاسة وحزن.

سألني ياقوت:

- هل تعرف معنى هذا الشعور؟

ابتسمت له ثم قرأت له ما كتبته:

- عزيزتي البعيدة..

لقد بدأت في أولى خطواتي الكبيرة، تعلمت الركض بسرعة، لكنني ما زلت أشعر وكأن قدمي مبتورتان لأنك لا تشاركيني الركض في نفس الطريق، تعلمت تجاوز الأشياء الصعبة ومواجهة التحديات لكنني ما زلت أقف في نفس المكان الذي شهد على فراقنا، ما زالت قدماي على الخطى بعيدتين عنك وكأنني لا أعرف وجهة إلا وجهتك ولا قبلة إلا قبلتك، أنتِ أولى الطرق التي خطوتها وكل الطرق كانت لا تؤدي إليك.

قاطعني ياقوت ثم واصل:

- قضيت فترة مستمتعًا بنجاحي العظيم، الشهرة مثيرة وحب الجمهور لك أجمل ما يمكن أن تشعر به في حياتك، ومرت ثلاث سنوات على هذا المنوال، يشتد عظمي وأنضج أكثر وأكثر وتزداد شهرتي مع الوقت، وبينما كنت أجلس منتظرًا مواصلة نجاحي، حدث خلاف بيني وبين شركة الإنتاج السينمائي، خلاف ظننت أنه سيمر مرورًا عابرًا ككل الخلافات التي تحدث في الوسط الفني، كنت أطالب بزيادة في عقدي مع شركة الإنتاج لكنني فوجئت برفض قاطع منهم، لم يتجاوز الأمر أكثر من شهر حتى وقعت مع شركة أخرى تُلبي احتياجاتي وتواكب تطوري ونجاحي، كرد فعل طبيعي لرفض شركة الإنتاج المتعاقدة معي في تلبية متطلباتي المادية، لكن فور الإعلان عن التعاقد فوجئت بعدها بأيام بجواب فصل من نقابة الممثلين، ومنع ظهوري بشكل نهائي على خشبة المسرح أو شاشات التليفزيون بكل أنوعها، مرورًا بمنعي بشكل كامل من الإدلاء بأي تصريحات إعلامية بكل أنواعها.

صعقت من قسوة القرار على خطأ لا أعلمه..

قدمت استئنافًا وتكفل المحامي بمتابعة الشؤون القانونية لكن دون جدوى "حسين المسيري"، صاحب شركة الإنتاج التي فسخت تعاقدي معها له نفوذ وسلطة في كل مكان في مصر، لم أترك بابًا إلا وضربت عليه على أمل إنقاذ الموقف، لم أترك مكتب شخص مسؤول إلا وقمت بزيارته، لم أترك فرصة وشخصًا قريبًا منه إلا وحاولت إقناعه حد التوسل إليه أن يتراجع عما قام به، لكن دون جدوى، هذا الرجل يملك ما يجعله يستطيع تدمير حياة أي فنان وممثل يتمرد عليه، قائمة طويلة من المبدعين انتهت بسبب نفوذ هذا الرجل، قائمة طويلة من الفنانين كادوا يغيروا مجرى الفن في مصر، تحطمت حياتهم بشكل كامل، وقد حدث معي ما حدث مع كل من حاول التمرد عليه.

ضحك ياقوت وحك رأسه وكأنه استعاد نفس مشاعر هذه الليلة.

في شوارع وأزقة الإسكندرية، ثمة مقاهٍ عشوائية وفوضوية لكنها تبث الروح والحياة، هنا ولدت وهنا كان طفولتي ومراهقتي، وهنا كان شبابي ونجاحي الأول، وحين تضيق بي الدنيا

أعود إلى حيث أنتمي، لكل الأماكن التي أحبتني واحتوتني قبل أن تسرقني الحياة منها.

جلست على المقهى محاولًا الهروب من أفكاري، ليفاجئني الراديو بالشيخ إمام وهو يدندن..

"أهو دا اللي صار وأدي اللي كان

ملكش حق..

ملكش حق تلوم عليا..

تلوم عليا إزاي يا سيدنا..

وخير بلادنا ماهوش في إيدينا..

قولي عن أشياء تفيدنا..

وبعدها أبقى لوم عليا.

تنهدت وأنا أفكر فيما حدث في حياتي، ولدت في بيئة متوسطة الحال، أب موظف يعمل طوال الوقت لتوفير أبسط احتياجاتنا، وفي كتفي أخان في مهد طفولتهما، أنا أكبرهما ومن المفترض أن أكون السند والعون لهما، لولا العند والإصرار على تحقيق أهدافي وأحلامي لأصبحت النسخة التي أرادها لي أبي بالضبط، أن أكون الرجل الموظف الذي أشبهه، لكنني عاندت بعناد وإصرار مراهق يأبى أن يعيش في قالب الدنيا الروتيني، أردت المغامرة والحياة، خسرت الفتاة التي أحببتها من كل قلبي، لكل الأسباب الممكنة إلا السبب المسؤول عنها، داعبتني الدنيا بملامسة أحد أحلامي، ثم فجأة قررت أن تكشر عن أنيابها وتبتسم ساخرة "هنا لا مكان لتحقيق أحلامك"، وفجأة وبعدما كنت على وشك معانقة السماء، فجأة دفنتني الدنيا في قلب الأرض حيًا، أن تموت حيًا يا سقراط، تموت وأنت في مهد شبابك، تموت وأنت بكل قوتك وطاقتك، هذا كان شعوري يومها.

مررت بمرحلة اكتئاب في غاية القسوة، فقدت شغفي وطاقتي وقضيت فترة لا أستطيع الخروج من غرفتي، خوفًا من نظرات الفشل التي تلاحقني، رغم أن هذا لم يحدث بل كان ثمة تعاطف واضح من عائلتي والمحيطين بي، لكنني كنت أشعر بأن العالم، كل العالم يراني شخصًا فاشلًا ومهلهلًا وضعيفًا، كان من الصعب عليّ التعايش مع هذا الوضع، والاكتئاب حين يصيبك فهو يفقدك كل شيء حتى قدرتك على التنفس، قد يصبح مجهودًا لا تتحمله، الاكتئاب يا سقراط.

الاكتئاب أسوأ ما يحدث للمرء في حياته، يسلب رغبتك في الحياة، يجعلك تفكر كل يوم

في الخلاص ألف مرة، يشوهك أمام نفسك ويفقدك القدرة على التواصل معها، يهدم كل ثوابتك الداخلية فلا تستطيع أن تجزم بشيء واحد صادق وحقيقي في حياتك، كل احتمالات الفشل ممكنة وقريبة جدًا، أما النجاح فهو بعيد كل البعد عنك لن تصل إلى وجهتك مهما أردت، يربي بداخلك أصواتًا مفزعة "أنت شخص فاشل"، أنت شخص جبان، "أنت قبيح" غير مرغوب في وجودك، "أنت لا تصلح للقيام بأي علاقة بشرية"، لن تستطيع إنجاز أي شيء، "كل خطواتك وقراراتك خاطئة"، "كل أفكارك مشوهة، تسمع في رأسك كل هذه الأصوات وتتعايش معها، حتى تؤمن بها وتصدقها رغمًا عنك، تكفر بالعلاقات الاجتماعية، تكفر بقدرتك وتكفر بالأمل وتكفر بكل رسالة، قد تغير مجرى حياتك، تستيقظك لينتهي يومك البائس الذي لا قيمة له، وتمر الأيام ويفوت العمر، وأنت سجين بين أفكارك ومخاوفك واضطراباتك، أنت وحدك تتحمل عبء الاكتئاب، أنت وحدك تعاني منه، أنت وحدك تشعر به وهو يسلب طاقتك ومجهودك، أنت وحدك تشعر بأثر السم في وريدك وهو يفسد جسدك وروحك وطاقتك، لو أنك أحضرت شخصين، الأول في الستين من العمر والثاني في العشرينات لكن الثاني مصاب بالاكتئاب ستشعر أن الثاني أكبر منه، ستشعر من تصرفاته وتحركاته بأن العجوز هو ابن العشرين يا سقراط، هذا نتيجة الاكتئاب وما يفعله في الإنسان، والأدوية ما هي إلا مسكن بسيط، ليهدئ ضجيج رأسك، لتستطيع المواصلة.

تنهد ياقوت ثم قال:

- قررت أخيرًا السفر لأحد أصدقائي المقيمين هناك في اليونان، قرار كان مفاجئًا بالنسبة للجميع بمن فيهم أنا شخصيًا.

لم أستطع الإجابة عن الأسئلة التي تستفسر عن شكل حياتي هناك، عن كيفية التعايش والعمل وخلافه، كان بداخلي إجابة واحدة..

"أي مكان خارج هذه الغرفة هو أفضل مكان."

الهروب من الاكتئاب كان الحل المثالي في هذه الفترة..

حدث الأمر سريعًا وخلال شهر واحد كنت أجلس في صالة مطار القاهرة، منتظرًا انطلاق الطائرة المتوجهة إلى "أثينا" عاصمة اليونان.

جلست في المطار منتظرًا انطلاق الطائرة، وأنا لا أعرف أي الأشياء أودعها في بلدي، أودع أحلامي التي تحطمت رغمًا عني، أم الفتاة التي أحببتها، أم عائلتي التي أحببت أن أكون سندًا لهم وخذلتهم، أم أهرب من كل الأبواب التي أغلقت في وجهي؟

الفشل..

في الخلاص ألف مرة، يشوهك أمام نفسك ويفقدك القدرة على التواصل معها، يهدم كل ثوابتك الداخلية فلا تستطيع أن تجزم بشيء واحد صادق وحقيقي في حياتك، كل احتمالات الفشل ممكنة وقريبة جدًا، أما النجاح فهو بعيد كل البعد عنك لن تصل إلى وجهتك مهما أردت، يربي بداخلك أصواتًا مفزعة "أنت شخص فاشل"، أنت شخص جبان، "أنت قبيح" غير مرغوب في وجودك، "أنت لا تصلح للقيام بأي علاقة بشرية"، لن تستطيع إنجاز أي شيء، "كل خطواتك وقراراتك خاطئة"، "كل أفكارك مشوهة، تسمع في رأسك كل هذه الأصوات وتتعايش معها، حتى تؤمن بها وتصدقها رغمًا عنك، تكفر بالعلاقات الاجتماعية، تكفر بقدرتك وتكفر بالأمل وتكفر بكل رسالة، قد تغير مجرى حياتك، تستيقظك لينتهي يومك البائس الذي لا قيمة له، وتمر الأيام ويفوت العمر، وأنت سجين بين أفكارك ومخاوفك واضطراباتك، أنت وحدك تتحمل عبء الاكتئاب، أنت وحدك تعاني منه، أنت وحدك تشعر به وهو يسلب طاقتك ومجهودك، أنت وحدك تشعر بأثر السم في وريدك وهو يفسد جسدك وروحك وطاقتك، لو أنك أحضرت شخصين، الأول في الستين من العمر والثاني في العشرينات لكن الثاني مصاب بالاكتئاب ستشعر أن الثاني أكبر منه، ستشعر من تصرفاته وتحركاته بأن العجوز هو ابن العشرين يا سقراط، هذا نتيجة الاكتئاب وما يفعله في الإنسان، والأدوية ما هي إلا مسكن بسيط، ليهدئ ضجيج رأسك، لتستطيع المواصلة.

تنهد ياقوت ثم قال:

- قررت أخيرًا السفر لأحد أصدقائي المقيمين هناك في اليونان، قرار كان مفاجئًا بالنسبة للجميع بمن فيهم أنا شخصيًا.

لم أستطع الإجابة عن الأسئلة التي تستفسر عن شكل حياتي هناك، عن كيفية التعايش والعمل وخلافه، كان بداخلي إجابة واحدة..

"أي مكان خارج هذه الغرفة هو أفضل مكان."

الهروب من الاكتئاب كان الحل المثالي في هذه الفترة..

حدث الأمر سريعًا وخلال شهر واحد كنت أجلس في صالة مطار القاهرة، منتظرًا انطلاق الطائرة المتوجهة إلى "أثينا" عاصمة اليونان.

جلست في المطار منتظرًا انطلاق الطائرة، وأنا لا أعرف أي الأشياء أودعها في بلدي، أودع أحلامي التي تحطمت رغمًا عني، أم الفتاة التي أحببتها، أم عائلتي التي أحببت أن أكون سندًا لهم وخذلتهم، أم أهرب من كل الأبواب التي أغلقت في وجهي؟

الفشل..

اليأس..

الهزيمة..

التعاسة..

الظلم..

أهرب من كل شيء ولا شيء يهرب مني.

وفي الركن البعيد يجلس الابتسام مبتسمًا "كيف تهرب مني وأنا هنا في روحك".

ماذا سأفعل في أوروبا؟

أين سأمضي؟

وكيف ستكون وجهتي؟

كيف ستكون الحياة هنا؟

كلها أسئلة لا إجابة لها.

وصلت إلى اليونان والتقيت صديقي "حسين الشربيني"، الذي تعرّفت عليه في أحد العروض المسرحية للفرق العالمية، كان مسؤولًا عن الوفد اليوناني، وكنت حاضرًا ضمن الوفد المصري لنتناقش بشكل حول دور المسرح في تغذية وتثقيف المجتمع، وانطلقت علاقتنا من هذه اللحظة، حسين هو شاب مصري قضى أغلب حياته في اليونان، تردد كثيرًا على المعارض والمسارح ودور السينما، وترعرع داخل هذه الأوساط حتى أصبح شخصًا له ثقله هناك، رحب بي وقضيت فترة معايشة معه، خلالها كنت أبحث عن عمل بأي طريقة ممكنة، معتزلًا الفن، عازمًا على ألا أعود لهذا الطريق أبدًا.

بعد رحلة دامت شهرًا ما بين تعلم اللغة اليونانية، وبين البحث عن العمل، أخيرًا وجدت الوظيفة..

"عامل نظافة في فندق سياحي."

اعترض حسين على قبولي هذه الوظيفة، كان مصممًا أنني أستطيع الالتحاق بأي فرقة مسرحية أو سينمائية، وأنني ما زلت أملك الموهبة للانطلاقة مرة أخرى.

كنت أرفض الفكرة رفضًا قاطعًا.

ومضت أيام أنهك نفسي طوال اليوم بطريقة مثيرة للشفقة، ومن حين لآخر أتصل بعائلتي

لأطمئن عليهم، قضيت فترة طويلة حتى تأقلمت على الحياة في اليونان، وبدأت في التعايش مع هذا المجتمع السهل السلس، الذي يرحب بالجميع، كان يومي عاديًا وباردًا مثل أغلب أيام المغتربين، في النهار أقضي ساعاتي في العمل وفي المساء أعود للسكن لأستعد لبداية يوم جديد، مر عام كامل على هذا الوضع الروتيني، أحيانًا كنت أفكر في السقوط الغريب الذي حدث لي، ما بين نجم يحلق في السماء تنهال عليه الشهرة والأموال في كل مكان لعامل نظافة في أحد الفنادق، من شخص لديّ مساعدون لشخص يمسح وينظف حمامات الزوار، كانت سقطة مدوية لشاب لم يتجاوز الثماني والعشرين من العمر، من حين لآخر كنت أزور الصفحة الشخصية لـ"أيلا".

تمت خطبتها من شاب وسيم، يبدو عليه الثراء والاستقرار، لقد عاهدت نفسي ألا أزور صفحتها الشخصية، عاهدت نفسي أن أبتعد عن كل شيء يذكرني بها، عن الأهل والأصدقاء والمعارف، وحتى البلد الذي شهد ذكرياتنا، غادرته بلا أمل في العودة إليها.

ابتسمت لـ"ياقوت" ثم قلت له:

- تهرب من المحب في كل مكان أملًا أن تنسى، تهرب من كل شيء يذكرك به، الأغاني التي تغنيتما بها، الأماكن التي شهدت على أثر علاقتكما، الشوارع التي عرفت أقدامك وهي تتسكع بلا هدف، تهرب من كل الذين يعرفون قصتكما، وتهرب من كل شخص يسألك عنها، حتى البلد الذي شهد علاقتكما، تهرب منه هروب اللاجئين من الحرب، ثم تصدمك حقيقة أن المحبوب هنا.. ثابت في قلبك.

- قد تهرب من كل شيء يجمعك به، لكن كيف تهرب من قلبك؟

ارتجل معي وهو ينهض من على كرسي تمامًا كما قالت :

- ببعد عن كل مكان رحته ولو مرة معاك..

وأهرب من أقرب ناس يعرفوا قصتي وياك..

وبغير أي كلام يجيب سيرة لذكراك..

وأهرب من قلبي أروح على فين ليالينا الحلوة في كل مكان.

واصلنا المشي في الحديقة، وهو يواصل حديثه:

- عاهدت نفسي ألا أنهزم، وأن أغلق هذه الصفحة لكن عهدي لم يستمر طويلًا وتراجعت ألف خطوة من جديد حين رأيتها ترتدي الفستان الأزرق الجميل، وتبتسم له ابتسامة رقيقة أحبها وتأثرني، بينما هو يقف بجوارها ويا ليته يعلم أنه يملك الآن الدنيا وما فيها، يقبل

أناملها وعلى ملامحه الهدوء وكأنه وجد ضالته، صورة كل ما فيها جميل إلا عيني التي رأتها وامتلأت رغمًا عني بالدموع.

كانت ليلة حزينة وأنت ترى الشخص الذي تمنيته أن يكون من نصيبك وهو يقف بجوار شخص آخر، يتراقص معه، يضحكان، يتحدثان بشغف وحب، كل التفاصيل التي حلمت بها معه فجأة تتحقق بالحرف الواحد مع غيرك، تعثر لم يكن في الحسبان، تعثر ظننت أنني أقوى منه بمراحل، وهزمني من جديد.

لاحظ علي تصرفاتي، لاحظ علي أن شيئًا ما قد حدث، فور انتهاء العمل، أذهب للحانات، أضيع ما جمعته من المال في القمار والنبيذ، فترة كانت صعبة لا تختلف كثيرًا عن فترتي التي مرت بي في مصر، لكن هذه المرة لم أكن وحدي..

- ياقوت أين أنت؟

- ماذا حدث يا حسبن؟

- سألت عنك حارس العقار وأخبرني أنك تعود كل يوم في الخامسة فجرًا، ثم تذهب للعمل في التاسعة صباحًا.

قلت له محاولًا إغلاق الهاتف في وجهه:

- أنا بخير يا حسبن لا تقلق بشأني.

سألني بصوت عالٍ:

- أين أنت؟

أخبرته بمكاني، كان إحدى الحانات المعروفة في ألينا، لم يمر أكثر من عشر دقائق ووجدته أمامي، كنت في حالة سكر وثمالة، أغلب كلماته معي لم أفهمها ولا أستوعبها، حتى لكمني على وجهي وبدأ ينهال بالضرب علي، لولا تدخل أمن الحانة لأصبحت جثة هامدة من قسوة الاعتداء، لم أستطع المقاومة كان يصفعني ويركلني بكل قوة، ثم حملني في سيارته ونقلني إلى المنزل.

بعد ذلك لا أتذكر أكثر من أنني نهضت من على سريري، ولا يوجد شيء في جسدي سليم، استوعبت ما حدث وخرجت إلى الصالة.

ماذا حدث في ليلة الأمس؟

بعدوانية وشراسة قال:

- لقد صمت طويلًا وأنا أراك بائسًا ومهلهلًا بهذا الشكل، لكن صمتي لن يطول كثيرًا يا ياقوت، لن أسمح بتدمير حياتك.

قلت ساخرًا:

- ألا ترى أنها دمرت بالفعل.

قال وهو يخرج يعطيني بدلة سوداء..

- ارتدي هذه وتعال لنتحدث معًا في أي مكان غير المنزل.

- آسف لا أستطيع الخروج..

قال بحزم مرة أخرى:

- أنا لا أستشيرك، أنا آمرك يا ياقوت، هيا.

كنت لا أملك أي طاقة للجدال والمناقشة، ارتديت البدلة وخرجت معه ثم انطلقنا في شوارع أثينا، هناك حيث الحضارة والثقافة والفن، الحياة في أثينا أشبه بالجنة، أحب اليونان وإيطاليا لأنهما أقرب لطبيعة الحياة في مدينتي وموطني الإسكندرية، الجمال الطبيعي الساحر، فوضى في بعض الشوارع، أزقة تحمل آثار الحضارات القديمة التي مرت على هذه البلدة، ومجموعة من السياح يستمتعون بالمزيج ما بين الفوضى والجمال.

كنا نتجول بالسيارة بشكل عشوائي؛ حيث لا طريق، وكان حسين رجلًا أكثر التزامًا مني، فهو مرتب فكريًا ويعرف خطواته جيدًا، ظل طوال الطريق صامتًا حتى سألني:

- تركت عائلتك، ذكرياتك، وأحلامك، وبلدك.. ما الذي جاء بك إلى هنا؟

بنبرتي التي وقتها كانت في غاية اليأس:

- لمواصلة الحياة..

قال:

- وماذا تعني الحياة يا ياقوت؟

ظللت صامتًا لا أستطيع الإجابة عن سؤاله، سؤال يبدو عاديًا لكنه بالنسبة لي كان في غاية الصعوبة، عصرت رأسي لأجد ردًا لهذا السؤال.

توقف ياقوت عن الحكي ثم سألني:

- ماذا تعني الحياة لك يا سقراط؟

ابتسمت لياقوت ثم قلت:

- يبدو أنك حاولت الهروب من السؤال مع صديقك، لأنك لم تجد الإجابة وقتها، والآن تحاول الهروب لأنك لم تعد تثق في الإجابة التي أخبرك بها.

قال صراحةً لم أرد عليه، لكن دعني أقول لك الإجابة التي آمنت بها في هذه المرحلة :

- الحياة رحلة طويلة، كل شخص له رحلته الخاصة التي يبدأها وينطلق فيها، الشيء المشترك بينهم أنها رمادية اللون، ستعطيك ليلة سعيدة ومئات الليالي الحزينة، أنت تتحمل مثل هذه الليالي الحزينة، لتفوز بليلة واحدة سعيدة، ستهزمك بمئات المشاعر الموجعة كالفراق، الخذلان، الحنين، الندم، حتى تصل للمشاعر النبيلة الدافئة ما بين الحب والاحتواء والطمأنينة، في بداية حياتك ستخوض عشرات وربما مئات المعارك من أجل الفوز بكل شيء ممكن، ستنبهر بقوتك وثباتك وقدرتك على السباق في أكثر من طريق، للوصول إلى نهايتهما لكن مع الوقت ستدرك أنه ومهما كانت قدرتك على الركض وقوتك في خوض الصراعات المتتالية، لن تفوز إلا في طريق واحد فقط أو طريقين على الأكثر، سيهزمك شعور أنك لم تصل لكل الطرق التي سعيت فيها، وستنسى أنك قد وصلت لطرق أخرى كنت قد سعيت وحاولت الوصول فيها بكل الأساليب الممكنة، ستتألم كثيرًا من مرارة الهزيمة وتنسى أنك قضيت لحظات النصر، ستجبرك على خوض معارك لا تخصك، والأدهى من ذلك أنك ستنهزم فيها، رغم أنك لم تكن طرفًا فيها من البداية، بل وستتحمل وحدك عناء ومرارة الكسر والهزيمة، ثم تطيب على قلبي بالفوز بمعركة ربما كنت فيها الطرف الأضعف، الحياة هي امرأة نرجسية مدللة تريد منك أن تسعي وراءها وحين تتوقف عن الركض ستقترب هي منك وتعطيك قبلة تتمناها وتتيرك مرة أخرى للركض، تداعبك بكل الأشياء ولا تقترب منك، تبتسم لك وتكشر عن أنيابها، وأنت درويش متيم لها لأنها في الوقت التي تسحقك فيه، تغازلك بعينيها فتجعلك تشعر وكأنك سيد الكون فرغمًا عنك تواصل وتواصل، حتى الرمق الأخير.

قاطعته:

- وأنا يا حسين لا أريد منها إلا أن تتركني لحالي.

قال وهو يضع السيارة في أحد الأماكن المخصصة للوقوف، ثم نظر إليّ:

- لقد غادرت بلدك لأن كل شيء قد غادرك، لكن ورغم مظهرك المهلهل وجسدك المنهك تمامًا، ورغم الاكتئاب الظاهر عليك، لكنك خلال عام كامل كنت تعمل أكثر من ثماني عشرة ساعة في اليوم، ألا ترى أن هذه قوة تستحق الثناء، إن كان بإمكانك أن تعمل كل هذه الساعات وطوال هذه الأيام وأنت في أسوأ حالاتك فما بالك لو كنت في أفضل حالاتك.

خرجنا من السيارة ثم توجهنا إلى أحد العروض المسرحية، فوجئت بحفاوة استقبال كبيرة لحسين، جلسنا في الصف الأول مع كبار الضيوف، ثم واصل وهو يرمق المسرح بنظراته:

- الآن عليك أن تُدرك حقيقة أنك تقوم بالعمل لكن بلا قيمة حقيقية، لقد غادرت كل شيء، لكن الفشل لم يغادر روحك، صحيح أنك تعمل طوال الوقت لكن حتى البقر تعمل طوال الوقت حتى يمن عليها حارسها بالطعام، أنت تقوم بهذا ما دمت تعمل من أجل الطعام فأنت والبقر متساويان، ما يميز الإنسان عن الحيوان هو الحلم والهدف لا السعي والركض.

شعرت بشيء من الإهانة في كلماته لكن واصل:

- من الآن وحسب ستواصل عملك في الفندق، لكن لن تتجاوز هناك أكثر من ست ساعات، ثم تبدأ في بروفات المسرحية الجديدة، لقد وكلّت لك دورًا صغيرًا لكنه سيكون انطلاقتك، وأنا أثق في هذا.

- قلت لك لن...

قاطعني:

- أنا لا أقترح عليك، هذا قراري وحسب..

انظر لنفسك هل هذه هيئة شاب في منتصف العشرينات؟، انظر لكل الأشياء حولك أنت أشبه بكهل عفى عليه الزمن، استمرت حياة الجميع بعد رحيلك عن مصر، تمت خطبة حبيبتك، وعائلتك تعيش في أفضل حال، وكل الذين تعرفهم استمرت حياتهم بشكل طبيعي، وأصدقاء الفن ما زالوا في طريقهم لم يتوقفوا عن العمل تضامنًا معك، كل شيء يسير في طريقه المعتاد الطبيعي، شيء واحد توقف في مكانه، شيء واحد لم يعد كما كان، ولو كنت مصابًا بعلة واحدة فهي توقفك عند لحظاتك الحزينة، وأنا لن أسمح لك بهذا.

انتهى العرض وفي نفس بن يعقوب قلت:

- لنحاول مرة أخرى.. لنحاول.

توقف ياقوت عن حديثه وواصلنا المشي، حتى وصلنا للقصر ومن ثم إلى غرفته، جلس على كرسي المكتب ثم واصل:

- وبدأت قصة وطريق في حياتي، في الصباح كنت أعمل في الفندق حتى الرابعة عصرًا، ومن ثم أتوجه إلى المسرح للتمرين على الدور الذي وكله لي صديقي الجديد حسين، أنصب

عشرة دقيقة، لكن ما شعرت به وكأنني ممثل متمرس بينهم، انتهى العرض وحان دور تحية الجمهور للفنانين، فوجئت بتحية كبيرة من الجمهور، نشوة التقدير والاحترام التي افتقدتها وأشتاق لها.

سألني ياقوت:

- تخيل ماذا فعلت بعد نهاية العرض؟

قضيت ليلة ساحرة مع إحدى النساء أو شكرت صديقك حسين على دعمه ومساندته لك، ثم قضيت معه الليلة.

ضحك وقال:

- لا بل كنت شخصًا في غاية الدراما، لقد عدت سريعًا لمنزلي وأصابتني نوبة بكاء قاسية لم تصيبني من قبل، لا أدري هل دموع الفرح أم العودة أم شعور الوصول من جديد بعد التعب واليأس وفقدان الأمل؟، دعك من هذه الليلة الدرامية ودعني أقول لك إنني كنت سلكت الطريق من جديد، وبدأت في ترتيب فوضى حياتي مرة أخرى.

دور يتبعه دور، ثم دور آخر حتى البطولة، ازدادت شهرتي في اليونان التي ساعدتني كثيرًا في صنع اسمي مرة أخرى في أوساط أوروبا الجنوبية والشرق الأوسط، احتضني أغلب المعارض والمسارح، وبدأ يزداد عدد جمهوري في كل مكان.

تنسى النساء بالنساء..

هذا كان مبدئي في التعامل مع الأوضاع الجديدة، لم يكن الغرض حب الشهوة، لكن كانت فكرتي أن أجعل أيلا في الماضي، أن أتذوق معنى الحب لأنسى ما حدث بيننا، وأعيش قصة أسطورية من جديد تعيد إيماني بالحب، رغم توسع شهرتي لكنني وبكل صدق كنت ما زلت أفتقد لشعور الونس، الونس الأنثوي الرقيق الذي لا غنى عنه في حياة أي رجل، كان افتقادًا مزدوجًا ما بين الاحتياج وما بين الرغبة في النسيان وما بين الحاجة للونس.

سألته وكم امرأة عرفتها؟

قال بنظرة نرجسية من يحب التحدث عن النساء:

- العشرات، لقد قضيت فترة حياتي كلها عبارة عن مقابلة النساء وقضاء الليالي الساخنة معهن، ومن ثم التوجه إلى التصوير، كنت أملأ فراغات قلبي بالنساء، الخطأ الكبير أنني ظننت أن بإمكاني نسيان أيلا بغيرها من النساء، مما دفعني لبدء علاقات مع فتيات ربما كن يستحققن رجلًا أفضل مني.

والاعتراف الذي قلته بيني وبين نفسي أنني تسببت في كسر قلوب نساء لم يكن يستحققن هذا الكسر، كن على استعداد أن يقدمن لي نجوم السماء، لكنني ورغمًا عني كنت أخونهن كل يوم مع حنيني وذكرياتي لـ"أيلا"، أقضي المساء مع امرأة وحين تشرق الشمس ويأتي الصباح أنساها كما لو لم أقض ليلتي معها، أحبتني الشقراء، السمراء، القوية، وذات الشخصية الضعيفة، أحبتني المراهقة، والشابة ومن تملك ماضيًا أليفًا، لكن القصة لم تكن بكل هذا السوء فلقد كنت شخصًا مريحًا أيضًا للجميع، خصوصًا النساء اللاتي يعلمن أن علاقتنا ومهما طالت سينتهي أمرها، كالفندق تأتي الفتاة إلي منكسرة وحزينة ثم تخرج منه في غاية السعادة والهدوء، الجميل في الأمر هو قدرتي على إسعادهن، والمحزن هو مراسم النهاية الحزينة لكنه الواقع.

أنا مثلما قال فرانز كافكا..

رجل لا يجيد الحب إلا من مسافات بعيدة.

تطورت علاقتي أكثر بحسين الرجل الذي ظل معي خطوة بخطوة، لم أنكر يومًا ما قام به وساعدني، لم أنكر إيمانه بي حين كفر الجميع، لم أنكر دعمه واستعادته لنفسي ولروحي، كل ما حققته يرجع لحسين صديقي الذي أحببته من كل قلبي، عشر سنوات حتى أصبحت من نجوم الشباك الأول، النجم الساطع في سماء أثينا في اليونان، أنقرة في تركيا، والكثير من الحفلات المسرحية في قطر والسعودية والإمارات، حلم واحد ظل يراودني هو العودة للإسكندرية، لكن كان علي انتظار التوقيت المناسب ليتحقق هذا الحلم.

خرجت منها مطرودًا لمَ تريد العودة؟

سؤال ظل يكرره حسين كلما اقترحت عليه الفكرة.

كانت إجابتي واحدة..

أنا أنتمي للإسكندرية.

ظل ياقوت يتحدث عن الإسكندرية، بينما استعدت بعض ذكريات طفولتي هناك، وبدأت في الكتابة:

- في الإسكندرية تبدأ وتنتهي كل الأشياء..

الإسكندرية هي مدينتي، حبيبتي، فتاتي المدللة، المدينة التي عرفت أولى خطواتي في الدنيا، هناك كان أول أحلامي البريئة، ونحن نحلم ونتخيل ونأمل، لا نعرف عن الدنيا إلا تحقيق أحلامنا، صغار كنا نصنع من مقارش سريرنا جناحات نحلق بها، لا يؤلمنا السقوط

على الأرض إنما تنهض من جديد ضاحكين، لا تكترث لأقدامنا التي تجلطت من فرط السقوط، بينما نسمع أصوات قلوبنا وهي ترقص سعادة وبهجة، هناك تجمع الأصدقاء الأول؛ حيث كنا نتسكع في الشوارع وكل ما نملكه في الدنيا هو تجمعنا، نغازل الجميلات اللاتي يتسكعن على شواطئها، وفي الأزقة والحواري تبدأ قصة جديدة من المشاغبات واللعب، كنا صغارًا لا نحمل همًا، نواجه الدنيا بكل ما فيها بابتسامة وعناد، بحري، السيالة، المنشية، شارع فؤاد، العطارين، محرم بك، الشاطبي، مجمع الكليات، سيدي جابر، ميامي والعصافرة، ذكريات هناك في مدينتي.

الفشل الأول كان هناك والبحر يواسيك بالحب الأول، كان هناك والبحر يعانق حبكما وتتعاهدان ألا تفترقا مهما حدث بينكما، ولحظة الفراق بعدما قررت الدنيا أن تنهي قصتكما الطفولية الجميلة في حضور البحر نفسه الذي شهد على وعودكما، الإسكندرية حيث حب الرجل الأول في حياته، حب كل من ترعرع ونشأ فيها ولو أسكنته في الجنة لافتقد العيش في مدينته ومحبوبته الأولى، خرجت منها مهزومًا محطمًا وبائسًا، وأتمنى العودة لها مرفوع الرأس، منتصرًا على الدنيا بما فيها، وأملًا في استعادة كل الأشياء التي خسرتها على أرضها.

توقف ياقوت عن الحكي، قرأ ما كنت أكتبه ثم قال:

- نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول.

ثم واصل:

- ظل هذا الحلم يطاردني لفترة طويلة، وكنت قد بدأت بالفعل في الاستعداد له، كل شيء مثالي بطريقة مقلقة، نعم أنا من هؤلاء حين يسير كل شيء مثالي أشعر بالقلق؛ لأنني لم أعتد على مثل هذه الأجواء المثالية، شيء واحد كان يعكر صفو مزاجي "أنطوان" ممثل قوي وله شعبية وصيت لكنه عنصري ويكرهني، يرى أنني دخيل على بلدهم، كانت المنافسة بيننا قوية، نتسابق على الشهرة والنجومية، خصوصًا في المواسم والاحتفالات العامة، كان مسنودًا من شركة إنتاج قوية وشركة دعاية أكثر قوة وشراسة، ظلت المنافسة بيننا لخمس سنوات، نلتقي مصادفة في المناسبات، نتظاهر بأن كل شيء على ما يرام، وأننا مجرد زملاء في المجال نفسه، كنت أرى أن منافسته تصب في مصلحتي وتدفعني للأمام، بينما كان لحسين رأي مختلف تمامًا، فقد كان يرى أن هذه المنافسة لن تستمر طويلًا وستنتهي بنهاية شخص منا، لذلك كان يحميني طوال الوقت من الحملات الدعائية المضادة، كان يراقب كل تصرفاتي وأفعالي، يراقب كل شخص يحاول الاقتراب مني، من حين لآخر يرفض استمرار علاقتي بشخص ما، لقد حاوطني بهالة حماية غريبة، لكنه كان مصمما أن شيئًا ما سيحدث من هذا الرجل العدواني، بينما كنت أتعامل مع الأمر ببساطة شديدة، في هذه الفترة اقتربت

مني فتاة مغربية من أب مغربي وأم يونانية تُدعى فيدرا.

- فيدرا؟

قال:

- نعم اسم يوناني يعني هدية السماء.

فيدرا كانت صحافية مهتمة بالوسط السينمائي، لطالما رفض حسين اقتراب هذه الفتاة مني وكان يرى أنها مصدر خطر تمامًا كرؤيته لأنطوان، لكنني كنت أرى في هذه الفتاة شيئًا من الصدق، هي لا تنتظر مني شيئًا، لا تطلب مني شيئًا، تحب الفضفضة معي فقط لا غير، كانت علاقتنا لا تخرج عن هذا الإطار، هي وحيدة تمامًا، حياتها لا تختلف كثيرًا عن حياتي، العمل، العمل طوال الوقت.

كانت مهتمة بالثقافة والفن والأدب، لكنها المزيج الأقرب لقلبي ما بين فتاة عملية جادة وحازمة، شخصية قوية ومستقلة، وما بين الأنوثة والرقة والحنان الأنثوي الساحر، ربما فيدرا كانت صديقتي الوحيدة في اليونان مع حسين، هذا هو عالمي الذي صنعته في هذه الغربة، لأكون صادقًا لقد غيرت ورتبت الكثير من فوضى حياتي أيضًا.

قاطعته:

- ألا تلاحظ أن كل فتاة تدخل حياتك تترك بصمة فيها؟

ابتسم وقال:

- وهل توجد أجمل من لمسات النساء في حياتك يا رجل؟

واصل وهو يبتسم ويستدعي ذكرياته في هذه الفترة:

- لقد غيرت في طريقتي وتلقائيتي، اهتمت بشكل ملابسي وأناقتي، لغتي، لقاءاتي الإعلامية، كل ما يمكن أن تقوله في حق فتاة أرادت أن تُعيد رسم حياة رجل نرجسي من الدرجة الأولى، قامت به لأجل إرضائي، شعرت بالراحة والهدوء معها، شعرت أنني وجدت شيئًا من ضالتي وكياني في وجود هذه الفتاه التي لم تحدثني إلا عن سعادتي وهدوئي في المقام الأول، بدأ الأمر لطيفًا جدًا معها، ولقد أخبرتها بأغلب ما مررت به في حياتي وهي كذلك، هكذا كان عهد وميثاق صداقتنا ألا يُخفي أحدنا شيئًا عن الآخر.

ذات يوم كنا نجلس في الاستوديو بعد يوم تصوير شاق، كانت وعلى غير العادة صامتة وملامحها حادة، حاولت استدراجها في الكلام لكنها كانت تهرب بذكائها، ظللت أتأمل

ملامحها والقلادة التي ترتديها - علم المغرب - فسألتها:

- ألا تتمنين العودة للمغرب؟

ردت وهي تلعب في خصلات شعرها:

- أحبه لكنني لن أعود إليه أبدًا.

لم أرد عليها، شعرت أنها في حاجة لمواصلة حديثها دون طرح أسئلة عليها، وبالفعل واصلت:

- ماذا يعني الوطن؟

الوطن يعني العائلة، الأصدقاء، الذكريات، أحب المغرب هو بلدي الذي سمعت عنه كثيرًا لكنني لا أملك ذكريات فيه، لا أملك عائلة ولا أملك ما ينتظرني في المطار أو يتشوق لرؤيتي، لقد بنيت حياة هنا في أثينا، عائلتي هم أصدقاء العمل، وطني حيث المكتب، ذكرياتي في الجامعة والمكتب، الوطن حيث يوجد أحباؤك وأصدقاؤك وأنا أنتمي لهم.

كنت أحب في هذه الفتاة قدرتها على العطاء، دعني أقول لك إن فيدرا هي أكثر فتاة يمكنها أن تعطيك وتقدم لك نجوم السماء ولا تسألك عنها، تهون عليك أثقال الدنيا رغم ما فيها من أثقال، وتدعمك وهي في أشد حاجتها للدعم والمواساة، تحفزني للعودة إلى وطني، رغم أنها لا تملك وطنًا حقيقيًا تحتمي به، يمكنني أن أقول لك إنها استطاعت ملء بعض الفراغات الواسعة في قلبي.

خرجنا من الغرفة وعدنا إلى الحديقة، تغيرت ملامحه، وأصبحت أشد قوة وحزمًا ثم قال:

- يقول تولستوي في روايته الحرب والسلام:

- "لو أن كل الرجال خرجوا للحرب حسب غايتهم ولأهدافهم.. لم قامت الحرب أبدًا."

هذا بالضبط ما حدث معي، فجأة وجدتني في قلب معركة جديدة في غاية القسوة، معركة ربما أشد عدوانية من تلك التي حدثت لي في مصر، وكانت سببًا في نهاية مسيرتي التي كانت في مشارف بدايتها، معركة الهدف منها هو تدمير مسيرتي من جديد، لكن هذه المرة لا الأرض أرضي ولا الديار ديارى ولا الناس يعرفونني.

اشتدت إحدى الحملات العدوانية على اسمي، اجتمعت الصحافة على تحطيمي وإنهاء مسيرتي لسبب لا أعلمه حتى لو بدا للآخرين أن أنطوان هو من دفع لهم للقيام بهذه الحملة.

فجأة أصبحت متهمًا باغتصاب الخادمة التي كانت تعمل في منزلي، تهمة مصيرها

السجن، لكنها كانت حملة ممنهجة لتدمير سمعتي واسمي، لقد استغلوا أنني عربي لنشر مزيد من الأقاويل والشائعات علي، تخيل فجأة أصبحت تقف أمام بلد بأكمله، الشعب اليوناني عاطفي أكثر من كونه عقلانيًا عكس غالبية شعوب أوروبا، والعاطفة هنا كانت تميل للضحية القاصر، ابنة بلدهم التي ظهرت في كل وسائل الإعلام تشتكي وتبكي وتنهار، كسبت تعاطف الجميع ضدي، حملة وصل صيتها لكل أرجاء أوروبا الجنوبية، حتى البلاد التي تستضيفني في المواسم والحفلات، سواء كانت السعودية أو الإمارات أو قطر، لقد فسخت شركة الإنتاج تعاقدها معي، وأصدر قرار شفهي بوقف التعامل المباشر معي، المضحك أن الأدلة في المحكمة لم تكن كافية لإثبات إدانتي، لكن العاطفة تغلب كل الأمور الرسمية.

الآن أرى أمامي الأحداث نفسها من جديد، والمصير واحد "نهاية مسيرتي الفنية لأسباب مجهولة أو ليست حقيقية"، شيء واحد كان مختلفًا عن المعركة السابقة.

الطمأنينة، أن الإنسان يقضي عمره بحثًا عن الطمأنينة وحين يجدها يمكنه مواجهة أشد معارك الدنيا، هذا لا يعني أنني كنت قويًا بما يكفي لتجاوز وخوض هذه الحرب الجديدة، لكنني كنت مطمئنًا على غير العادة، خائفًا من توابعها ومطمئنًا أنني لو سقطت سأجد من يشد بيدي، سأجد من يراني شخصًا جيدًا، على الأقل حاول أن تكون شخصًا جيدًا مع الآخرين، لن تلاحقني نظرات الفشل من المحيطين بي.

قاطعته:

- تكترث لنظرات فشل العدد المحدود بمحيط حياتك ولا تبالي بنظرات مجتمعات كاملة؟

أجاب:

- نعم هذا صحيح، صدقني يا سقراط وهذا ستتعلمه مع مرور الأيام أن تكون شخصًا عاديًا في عيون المحيطين بك، أفضل من أن تكون بطلًا في عيون عالم لا يعرف عنك إلا البطولة، هذا يتنافى مع مبدأ الشهرة، لكنه كان أحد أهم مبادئي، لا يهم ما يقولوه الغرباء عنك حتى لو صنعوا تمثالًا وسجدوا لك، ما دام المحيطون بك لا يعترفون بإنجازاتك وخطواتك، لا يهم إن كنت متهمًا في عيون العالم بأنك شيطان وملعون ما دمت ترى نفسك شخصًا صالحًا في عيون المحيطين بك، صدقني أن أسمى ما سيحدث لك في الحياة أن تجد الطمأنينة والأمان والفخر في عيون أولئك الذين يؤمنون بك يا سراج.

واصل ياقوت حديثه عن الأزمة وهو يُشعل سيجاره الكوبي.

لقد دافع عني حسين وفيدرا بكل قوة، فيدرا تحديدًا كانت تدافع عني بكل ضراوة، لم تترك قناة إلا وتظهر فيها لتدافع عني، لم تترك صحيفة أو موقعًا إلا ونشرت ما ينفي كل

التهم الموجهة لي، تصاعدت الأجواء الفنية ورفضت تغطية الكثير من المحافل السينمائية تضامنًا معي، مما دفع مديرها المباشر في الموقع بإقالتها، لم تهتم، كانت ثابتة حد أنني طلبت منها التراجع لكنها كانت مصممة على إثبات حقيقة براءتي، وكلت الكثير من المحامين للدفاع عني أيضًا، لم تكتف بهذا الأمر بل تواصلت أكثر من مرة مع المجني عليها محاولة معرفة أسبابها للقيام بهذا الادعاء الكاذب، وسط كل هذه المعارك التي تخوضها بشكل يومي، بدأ شيء ما يميل ناحية فيدرا، شيء ما ظننت أنني لن أشعر به أبدًا.

واصل ياقوت حديثه عن تفاصيل الأزمة بينما عدت لأكتب:

- يميل المرء لمن يدافع عنه في لحظات ضعفة، يميل لمن يدعمه في لحظات يأسه، ويطمئن قلبه في لحظات خوفه، يميل المرء حين يشعر أن أمره مهم بالنسبة لشخص مستعد للقتال من أجله، لأولئك الذين لم يتركونا وحدنا في المعاناة ولم يتخلوا عنا في دروب المعركة، يميل المرء لكل شخص يهمس في أذنه وقت الحرب "لن تهزمنا الدنيا"، يميل المرء لمن يهمس في أذنه وقت التعثرات والحواجز "لا تقلق سنمضي معًا" يميل الشخص لمن لا يتكاسل في الدفاع عنه أو يتردد حين تشتد المعركة، بل يقف بجانبه ويسنده مهما كانت قوة العاصفة، في معركة الدنيا يميل المرء لمن يشاركه ويهون عليه شقاء الطريق.

عاد ذهني لياقوت الذي كان يواصل حديثه متذكرًا كل ما حدث.

زادت الاتهامات علي وعلى حسين ولم تسلم فيدرا منها، فلقد أخرجت الهيئة العامة للصحافة والإعلام قرارًا بمنع التعامل معها لحين حضورها للتحقيق، وتخلفها عن مهامها اليومية بعد شكوى رئيسها.

وسط كل هذه الأجواء بدأ يراودني صديقي القديم "الاكتئاب"، انتكاسة جديدة تلوح من بعيد..

"أرجوك يا ياقوت لا تسمح لنفسك بالتعثر".

الرغبة في مغادرة كل شيء، الرغبة في الهروب من كل شيء، أنا لا أنتمي إلى هنا، مهما فعلت ومهما ركضت لن أصل لوجهتي أبدًا، مهما حاولت لن أجد ما أنتمي له ولن أجد ما يجعلني أستمر في المواصلة، لقد تركت أبواب الفشل حياتي مرة أخرى وهذه المرة لن أنجح أبدًا، ستموت في هذا الوضع البائس في حياتك، ستموت وأنت بلا قيمة حقيقية، لا شيء سيذكره الناس إلا يأسك، حزنك وحطامك، وفشلك.

الكلمات نفسها التي دفعتني الهروب من مصر إلى أثينا تطاردني الآن من جديد، وسط ضجيج الحملات الدعائية والاتهامات التي لا تنتهي، لم استطع أن أكون شجاعًا للمواجهة،

رغم كل محاولات حسين وفيدرا، ورغم صراعهم لأجلي، كنت جبانًا وقررت إيجار شقة في مكان لا يعلمه الاثنان، ثم انعزلت عن العالم، لأترك الاكتئاب يلتهمني من جديد ولأول مرة أستسلم تمامًا لميولي وأفكاري الانتحارية، بل كنت كل يوم اتخذ قرارًا بالخلاص من هذه الحياة البائسة التي لم تحبني يومًا.

ظللت قرابة شهرين أتابع ما يحدث من بعيد، لقد توصلت فيدرا للدوافع الحقيقية التي جعلتني تتهمني بهذه الاتهامات، تمامًا كما كان يظن ويؤمن صديقي حسين.

لقد حصلت على مبالغ طائلة من فنان شهير في سبيل إلصاق مثل هذه التهم، لم يتته الأمر عند هذا الحد بل أشارات بعض المصادر الإعلامية إلى أن الصحافية المذكورة تملك وثائق تثبت أن هذا الرمز الفني الكبير متورط في أكثر من قضية رشوة وخلافه لشن الحملات من جهات مسؤولة، كانت الأجواء مشتعلة، أصبحت القضية حديث الرأي العام، البطل المقصود بمثابة بطل ورمز شعبي في اليونان، قدوة للشباب في المدارس والجامعات، وما تملكه فيدرا من دلائل- حسبما تقول- كفيلة بتدمير وكشف حقيقة الكثير من الأشياء التي لا يعلمها الناس.

الغبية ما زالت تواصل صراعها من أجل إثبات براءتي، أنا لا أستحق هذا.

إحدى القنوات الحرة أعلنت استضافتها لفيدرا للحديث عن القضية، انتظرت الحلقة، ظهرت فيدرا قوية وثابتة، لقد اشتقت لها واشتقت لرؤيتها، شيء من التعب كان يسيطر على ملامحها، لكنها تتحدث بقوة وثبات، إجاباتها مباشرة وموجهة للرأي العام.

"لقد تم خداعكم جميعًا، البطل القومي ليس بطلًا قوميًا إنما هو مزور ومدنس، وغدًا في المحكمة سيتم الكشف عن كل هذه الأوراق".

سألتها المذيعة عن سبب دفاعها بهذه القوة وإن كانت ثمة علاقة عاطفية بينها وبيني فأجابت:

- لا يشترط أن تكون بيننا وبين المظلوم علاقة عاطفية لندافع عنه، هذا واجبنا وإنسانيتنا، صحيح ياقوت صديقي المقرب، لكن ما يدفعني للدفاع والاستماتة لإثبات براءته هو إيماني بأن هذا الرجل لا يستحق هذا الظلم الواقع عليه، لو كنت مكانه لتمنيت أن يدافع عني أحد، يعيش الإنسان في سبيل فكرة واحدة طوال حياته، وأنا أعيش في سبيل الحق والعدل، ليرد كل ظالم مظلوميته، حتى لا يشعر أحد بالضعف أمام القوة الهائلة التي يمتلكها الآخرون، نحن نملك القوة للدفاع عن بعضنا البعض، لا لترهيب الآخرين واستغلال ضعفهم، اليونان بلد جميل، هو بلدي الذي نشأت وتربيت فيه، له الفضل فيما وصلت له، لكنه بلد يفتقد الكثير من

العدل والمساواة. نحن من أهم مراكز السياحة في العالم ومع ذلك فنسبة البطالة في بلدنا تتجاوز الثلاثين في المئة، حالات الانتحار، الفقر، الأمراض، مرضى السرطان والمدمنين وحتى الجرائم في زيادة مستمرة. ألا يسأل الناس عن سبب هذا الاختلال في المعادلة. الظلم يا سيدتي، غياب العدل يجعل البلدة مهمشة وفقيرة مهما ارتفعت. قضيتي مع ياقوت ليست قضية فنان تعرض للظلم، إنما قضية سياسية وعرقية واقتصادية.

بدا التأثر واضحا على المحاورة. ولا أنكر أنه استطاعت بخطابها الجاد إثارة عاطفة البسطاء وهم الفئة الأكثر تأثيرا في اليونان.

سألتها المحاورة عن سبب اختفائي ومكاني فقالت:

- صدقيني أنا لا أعرف سبب هذا الاختفاء، لكنني أثق أن عودته قريبا هو لم يهرب لكنه لم يتحمل كم الضغوطات التي تواجهه في كل مكان، أنا لا أعرف أين هو الآن لكنني متأكدة أن عودته قريبة جدا.

- أتريدين توجيه رسالة له؟

قالت:

- "رسالتي له في مكتبه حين يعود هو من سيقرأها، لكنني أقول له لا تقلق يا صديقي أنا معك وسأواصل السعي لإثبات براءتك".

انتهى الحوار وأصبح الشارع اليوناني والعربي في انتظار ما سيحدث في صباح الغد في جلسة ستذاع على الهواء مباشرة بعد إجبار الحكومة على ذلك من طرف الجموع الغاضبة.

"صوت الحب عند المرأة أقوى من صوت الحق والضمير"..

جان جاك روسو

ظلت أفكاري تطاردني حتى الصباح، قررت أخيرا فتح حسابي الإلكتروني وقراءة الرسالة، حسين، أمي، فيدرا، وأيلا!

أيلا ما الذي ذكرها بي..

كانت رسالة قصيرة "أنا أثق في براءتك". تنهدت ولم أستطع تمالك أعصابي، بكيت حين قرأت كلماتها المعدودة، لم تتواصل منذ قرابة عشرة أعوام، لم تتزوج حتى الآن، رسالة أعادت في ذهني كل الأحداث والذكريات، الأمنيات التي تمنيتها، لحظات حزني وتعاستي وتمنى أن تكون لتراقب وتعرف كل ما يحدث لي، لو أنها تتباهى بما يحدث في حياتي، لو أنها

هنا الآن لتغير الكثير من الأشياء المؤسفة، لو كان بإمكاني الاختباء بين ذراعيها، لو كان بإمكاني البكاء أمامها ومعها ثم تعانقني وتهون عليّ عبء ما أشعر به، رسالتها كفيلة أن تعيد الحياة لروحي التائهة الممزقة، رسالتها أعادتني مرة أخرى للحياة أنا الذي ظننت أنني نسيت وتجاوزت، كيف أعادتني رسالة واحدة لكل هذه الذكريات، أنا من قلت وتحدثت وتباهيت بالتجاوز والثبات كيف أعادني الحنين إليها برسالة واحدة، أنا الذي قلت لم أعد مهتمًا بأمرها، كيف بحثت عنها لأطمئن أنها ما زالت تنتظرني؟، أنا الذي أقسمت ألا تجمعنا الطرق كيف تمنيت لو كنت أنام بين ذراعيها الآن؟، تظن أنك تجاوزت ثم تُعيدك رسالة عابرة لتعيدك إلى نفس الحنين والرغبة في ملامسة وجه الشخص الوحيد الذي أحببته في حياتك، عشر سنوات وقلبي ما زال متيمًا بها، ما زال قلبي لا ينبض إلا باسمها، وما زالت أحلامي ومهما تغيّرت الزواج منها ولو ليلة واحدة أسمى وأغنى أحلامي.

الجلسة!

نهضت سريعًا من سريري وفتحت التلفاز لأتابع الجلسة، لكن فجأة ظهر خبر غريب قبل إعلان الجلسة بساعة واحدة..

"لقد تعرضت الصحافية فيدرا والمنتج المسرحي حسين الشربعي إلى حادث أليم في الطريق الرئيسي، وتم نقلهما إلى المستشفى الخاص تحت الحراسة المشددة."

صعقت لثوانٍ من الخبر، أنتم تمزحون أليس كذلك.

تصفحت مواقع الإنترنت لأتأكد من صحة الخبر.

كل المواقع والإذاعات والقنوات تؤكد وتذيع الخبر.

كنت أركض في المنزل كالمجنون، لا أعرف ما يمكنني القيام به، أتذكر أنني خرجت بملابس المنزل وانطلقت بسيارتي إلى المستشفى، لقد منع الأمن دخولي حتى صرخت في وجوههم "أنا الممثل أحمد ياقوت افسحوا الطريق يا أولاد العاهرات"، واصلت الثورة ضدهم حتى أفسحوا الطريق وصعدت كالمجنون إلى الغرفة، منعني الأمن والطبيب.

سيد أحمد ياقوت لا يمكنك الدخول هم في العناية المركزة المكثفة، لكن يمكنك متابعتهم من خلف الحاجز الزجاجي، لكن أرجوك التزم الصمت والهدوء، كنت في حالة غضب وثورة عارمة، أردت تحطيم وتكسير كل شيء أمامي، أردت البكاء، الصراخ، معانقتهما، أردت الانتقام من أنطوان، من مساعدي، من كل شيء.

حين تضيق أبواب الأرض فأبواب السماء تتسع لك ولا تُغلق أبدًا.

أنقذهما يا رب، أنقذهم فلا منقذ إلا أنت، أنقذهم يا ربي هما عائلتي وأصدقائي وكل ما أملك، أنقذهما يا رب.

ظللت أبكي وأتوسل إلي الله، أربع ساعات بالتمام والكمال في غاية الصعوبة، مرت أمامي كل اللحظات التي عشتها معهما، مرت أمامي قوة حسين ونصائحه، إصراره أنني أستحق الأفضل ودعمه الكبير في كل خطواتي، وفيدرا هدية السماء تمامًا كاسمها، الفتاة الوحيدة التي وثقت بها في اليونان، صديقتي التي لم أخجل يومًا من التعري والبكاء أمامها، فيدرا صديقتي التي وجدت في وجودي معنى الانتماء والعائلة، ووجدت فيها معنى الطمأنينة واللين، الفتاة التي لم تخجل يومًا من الاعتراف أنها تتمنى لو كان بإمكان الدنيا أن تسمح لنا بالحياة معًا، وحسين الرجل الذي قال إن الله لم يرزقه بأخ من أمه لكن الدنيا تكفلت بهذا ورزقته بوجودي، أولئك الذين هونوا على قلبي مرارة الغربة، وشاركوني لحظات نجاحي وإنجازاتي، أحفظهما يا ربي، أحفظهما أنا لا أملك في الدنيا سواهما.

خرج الطبيب الأول المشرف على حالة حسين، خرج متوجهًا مباشرة إلى غرفة فيدرا، حيث الطبيب الثاني، منعني الأمن من التواصل معهما، ظل الحديث بينهما بملامح ثابتة وجادة، أسمع ضجيج الصحافيين ورائي، وأنا أتابع حديث الطبيبين حتى خرجا أخيرًا.

- كيف حالهما؟

نظرا لبعضهما البعض، ثم قال أحدهما في هدوء تام:

- " صل لأجلهما، لقد ارتقت روحهما إلى السماء" .

لا أتذكر إلا أنني اقتحمت الغرفة، اقتحمت الغرفة وأنا في حالة انهيار تام..

حسين صديقي انهض أرجوك، لا تتركني هنا وحدي، أنا آسف على هروبي لم يكن بمقدوري التحمل، حسين أرجوك انهض.

جثة هامدة أعانقها وأبكي، أنهار تمامًا وأنا أعانقها.

حسين انهض قصتنا لم تنته بعد، هيا يا صديقي انهض أنت أخي وصديقي ومرشدي ودليلي، انهض يا حسين، لم نذهب معًا بعد لمهرجان "كان"، لم تترشح أعمالنا للأوسكار، أليست هذه أحلامك التي تمنيت تحقيقها معًا، هيا لنستعد لعرض مسرحي جديد نزور به جميع البلدان، هيا لنشتري المسرح العظيم في أثينا ألا تتذكر يوم قلت إن أمنياتك شراء هذا المسرح ووضع اسمك عليه، الآن نملك المال لشرائه هيا، مصر تنتظرنا ألم تقل إنه ورغم عدم رغبتك في العودة إلى مصر لكنك تحلم بعرض مسرحي هناك، هيا لنعود إلى مصر، منات

المسارح تتمنى زيارتنا، انهض يا حسين الكثير من الأحلام ما زالت تنتظرنا، انهض أنا صديقك وابنك الصغير الذي تتحمل حماقاته وتصرفاته الجنونية، هيا انهض لنواصل مشوارنا معًا، أعدك لن أشرب الحشيش مرة أخرى، انهض ولن أقترب من أي امرأة من جديد، تمامًا كما كنت تتمنى، سأعتزل طرق الحانات وفتيات الهوى، وسأصبح ذاك الشخص الذي آملت أن أكون عليه، انهض أعدك سأكون شخصًا أفضل مما أردت، لا تتركني وحدي، أنت أبي وصديقي وحبيبي وملهمي، انهض يا حسين أرجوك.

خرج من غرفته كالمجنون لغرفة فيدرا..

فيدرا صديقتي وحبيبتي وجميلتي، هل علمت بما حدث لحسين، لقد قتلوه يا فيدرا، لقد قتلوا صديقي الوحيد، هيا يا فيدرا لنواصل صراعنا معهم، لنثبت لهم أنهم القتلى، انهضي يا فيدرا ولنواصل نضالك ضد الظلم، فيدرا أرجوك لا تصمتي هكذا هيا لننهض معًا ولنثبت أن أنطوان هو من قتل حسين، كنت أعانقها بينما ألمس جسدها الممزق تمامًا، ورأسها شبه المحطم، هيا يا فيدرا هيا لا تصمتي هكذا، انهضي معي لنواصل نضالنا وما أن ننتهي سأحقق أمنيتك في الذهاب إلى الإسكندرية، لنتسكع في الطرقات معًا، سأعلمك اللهجة الإسكندرانية، وأتنزه بك في شوارعها وحواريها، هيا يا صديقتي انهضي سأشتري لك منزلًا على البحر كما تمنيت، وبعدها سنزور طنجا ومكناس في المغرب، تمامًا كما أردت، هيا ما زال ينتظرنا الكثير من الأشياء الرائعة التي سنحققها معًا، انهضي يا فيدرا.

صرخت في الغرفة كما لو لم أصرخ من قبل، صرخت وأنا أرى أصدقائي لا يتحركون، جثثًا هامدة لا تنطق، لا تتحدث معي، صرخت بينما كنت أسمع أصوات الصحافيين يهللون ببراءتي، لقد أعطت فيدرا كل الدلائل للمحامين لإثبات براءتي، لقد شعرت بأنها لن تصل إلى لحظة وقوفها في المحكمة، كل هذه الأشياء لا تفيد، كل هذه الأحداث لا تهمني، الفرح في العالم والعزاء في قلبي، يا عالم لقد فقدت عالمي.

أخرج ياقوت قلادة من جيبه، أسطوانة زجاجية صغيرة مملوءة بالرماد، ثم نظر إليها وهو يبكي:

- هذا آخر ما تبقى منهما، رمادهما قبل مثواهما الأخير، أخرج ورقة من جيبه الآخر وأعطاها لي:

- وهذه كانت رسالتها الأخيرة التي أخبرتني بها..

عزيزي ياقوت..

أعلم أنك لست شخصًا جبانًا وأنك لست ضعيفًا، لكنها ضغوطات الحياة أحيانًا هي تلك

التي تجعلنا نهرب من مواجهة الأشياء، أحب أنك تنعزل فترة لتعيد ترتيب أوراقك، ثم تعود أقوى مما يتخيل، وأحب فيك يا حبيبي أنك تحاول، المحاولة رغم الصعوبات التي تواجهها في حياتك، أحب رغبتك في الفوز بالهدوء رغمًا عن عالم يدفعك للغضب كل يوم، أحب فيك أنك لا تستسلم لليأس مهما بدا عكس ذلك للآخرين، لقد تعثرت وستتعثر هذه هي الحياة لكنك تعود وستعود كعادتك، أنت لم تُخلق للهزيمة يا صديقي، أحب فيك لطفك مع الناس رغم ما في قلبك من غضب وسخط على الجميع، لقد دعمتني كثيرًا في لحظات ضعفي، أحب فيك قدرتك على دعم الآخرين في لحظاتهم الحرجة، رغم احتياجي الشديد لمن يدعمك ويشد بك، أحب جراءتك على الدنيا وأنك لا تحب دور المجني عليه، وأحب أنك تحاول تأبى الهزيمة والاستسلام، رغم صعوبة المعركة.

طال غيابك يا صديقي.. أعرف الحياة وقسوتها وأعرف أنك تعبت منها.. لكنني ما زلت أومن أنك أقوى منها ولن تنهزم أبدًا..

صديقتك العزيزة/ فيدرا.

ما أن قرأتها حتى وجدته انهار باكيًا، أصابته نوبة تشنجات وبدأ في الصراخ، الرجل الذي لم أراه يبكي وجدته منطويًا في ذاته كالأطفال يبكي ويتشنج، ناديت على مساعديّ الذين هرولوا نحونا بسرعة، جاء طبيبه الخاص به وحملوه إلى الغرفة، تركوني وحدي في الحديقة، لا أعرف ماذا أفعل؟

جاء أحد مساعدي الطبيب ليسألني عما حدث ليصل لهذه الحالة..

أخبرته أنه كان يتحدث عن ذكرياته، ثم فجأة انهار بهذا الشكل..

قال الطبيب غاضبًا:

- حسنًا سنتواصل معك لاحقًا.

خرجت من القصر وأنا في حالة صدمة وذهول لا أعلم ما أصابني، لكن ما أعلمه جيدًا أن هذا الرجل ليس بهذه الصورة القوية التي ظننتها عنه.

فجأة رن الهاتف رددت وأنا متوتر:

- ألو..

- كيف حالك يا سقراط؟

- ياسين!

- متى سنلتقي يا صديقي؟

- قريبًا.. قريبًا جدًا طلبتك فقط لأطمئن عليك، كن بخير.

أنهى المكالمة دون انتظار رد مني.

كنت في حالة توتر لا يرسى لها، لم أجد نفسي إلا في غرفتي مستلقيًا على سريري وأقرأ رسالتها الغامضة المصحوبة بصورة لريف أيرلاندي، وتحت عبارة للكاتب تشيخوف..

"هكذا هي الحياة، إنها أشبه بوردة تزهر بفرح في أرض خضراء فتأتي معزاة وتأكلها فينتهي كل شيء".

# الفصل السادس

"السعداء يتشابهون أما التعساء فكل واحد منهم تعيس بطريقته الخاصة.."

ليو تولستوي..

استيقظت متأخرًا، استيقظت محاولًا استيعاب أحداث الأمس، لقد كان يومًا في غاية التعب والإرهاق، أعددت فنجان القهوة ثم تذكرت فأخرجت مذكراتي وبدأت في التدوين.

"لقد عانى فرح وياقوت في حياتهما، عاش كل منهما حياة صعبة ومرهقة، ما أخبرني به فرح وياقوت، كل منهما تذوق كأس المعاناة، كل منهما سعى وحاول أن تكون حياته أفضل، لكن ثمة أشياء خارجية كانت أقوى منهما، لكن هذا لا يخفي أن بعض مواقفهما كانت تستحق أن تكون أفضل، الشيء المشترك بينهما هو قدراتهما الكبيرة على التجاوز والتعايش مع كل وضع، لكن هذه الهالة التي تبدو مثيرة ومادة خامة يمكن لمدربي التنمية البشرية من خلاله صنع محتوى تحفيزي لبعض المضطربين والمرضى، وأولئك الذين يبحثون عن كلمات تدعمهم وتحفزهم، هي أيضًا أسلم وأسهل الحلول التي يعتمد عليها الأطباء النفسيون في تعاملهم مع المرضى، إلا إنني ما زلت أعتقد أن التجاوز، ورغم أنه واحد من أهم طرق التعافي، فإنه يشكل خطرًا أكبر على الحالة، إن كان التجاوز في بعض الأمور الحرجة التي تستدعي بالفعل الوقوف.

أقصد أن ثمة مواقف تمر على الإنسان لا يحتاج فيها للتجاوز والتعايش قدر حاجته للاعتراف أولًا بما يحدث، ثمة مواقف تمر على الإنسان يحتاج فيها للوقوف ومواجهة حقيقة أنه انهزم، كسر قلبه، تحطمت أحلامه، أو حتى كان سببًا في أذى لأشخاص لم يستحقوا منه إلا الحب، هناك مواقف تستدعي من المرء الوقوف أمام مرآته ومراجعة أفكاره، قراراته وتصرفاته، ومبادئه، يستعيد مشاعر اللحظات الصعبة ويتعايش معها ويتقبلها، ويواجه نفسه، ليرتب الفوضى التي أحلت بحياته، يعترف بانهيار أحلامه ليقدر على بنائها من جديد، يعترف أنه لم يصل لنهاية الطريق الذي أراده، حتى يستطيع البدء في طريق آخر، ويعرف أسباب عدم وصوله وتعثراته، يعترف بهزيمته في بعض معاركه حتى يقدر على تقوية نقاط الضعف وترتيب صفوفه وأوراقه مرة أخرى، التجاوز مهم جدًا ليتعافى المرء من أوجاعه وأحزانه لكنه كارثي، إن كان تجاوزه هو بداية لتراكمات لا تنتهي قد تنفجر وتدفعه إلى نقطة الصفر مرة أخرى".

قاطعني صوت الهاتف، كانت مكالمة من أحد مساعدي أحمد ياقوت، اتفقنا على موعد الجلسة الأخيرة هذا المساء، أنهيت المكالمة واتصلت بفرح لأخبرها أنني سأسافر إجازة بداية

# الفصل السادس

"السعداء يتشابهون أما التعساء فكل واحد منهم تعيس بطريقته الخاصة.."

ليو تولستوي..

استيقظت متأخرًا، استيقظت محاولًا استيعاب أحداث الأمس، لقد كان يومًا في غاية التعب والإرهاق، أعددت فنجان القهوة ثم تذكرت فأخرجت مذكراتي وبدأت في التدوين.

"لقد عانى فرح وياقوت في حياتهما، عاش كل منهما حياة صعبة ومرهقة، ما أخبرني به فرح وياقوت، كل منهما تذوق كأس المعاناة، كل منهما سعى وحاول أن تكون حياته أفضل، لكن ثمة أشياء خارجية كانت أقوى منهما، لكن هذا لا يخفي أن بعض مواقفهما كانت تستحق أن تكون أفضل، الشيء المشترك بينهما هو قدراتهما الكبيرة على التجاوز والتعايش مع كل وضع، لكن هذه الهالة التي تبدو مثيرة ومادة خامة يمكن لمدربي التنمية البشرية من خلاله صنع محتوى تحفيزي لبعض المضطربين والمرضى، وأولئك الذين يبحثون عن كلمات تدعمهم وتحفزهم، هي أيضًا أسلم وأسهل الحلول التي يعتمد عليها الأطباء النفسيون في تعاملهم مع المرضى، إلا إنني ما زلت أعتقد أن التجاوز، ورغم أنه واحد من أهم طرق التعافي، فإنه يشكل خطرًا أكبر على الحالة، إن كان التجاوز في بعض الأمور الحرجة التي تستدعي بالفعل الوقوف.

أقصد أن ثمة مواقف تمر على الإنسان لا يحتاج فيها للتجاوز والتعايش قدر حاجته للاعتراف أولًا بما يحدث، ثمة مواقف تمر على الإنسان يحتاج فيها للوقوف ومواجهة حقيقة أنه انهزم، كسر قلبه، تحطمت أحلامه، أو حتى كان سببًا في أذى لأشخاص لم يستحقوا منه إلا الحب، هناك مواقف تستدعي من المرء الوقوف أمام مرآته ومراجعة أفكاره، قراراته وتصرفاته، ومبادئه، يستعيد مشاعر اللحظات الصعبة ويتعايش معها ويتقبلها، ويواجه نفسه، ليرتب الفوضى التي أحلت بحياته، يعترف بانهيار أحلامه ليقدر على بنائها من جديد، يعترف أنه لم يصل لنهاية الطريق الذي أراده، حتى يستطيع البدء في طريق آخر، ويعرف أسباب عدم وصوله وتعثراته، يعترف بهزيمته في بعض معاركه حتى يقدر على تقوية نقاط الضعف وترتيب صفوفه وأوراقه مرة أخرى، التجاوز مهم جدًا ليتعافى المرء من أوجاعه وأحزانه لكنه كارثي، إن كان تجاوزه هو بداية لتراكمات لا تنتهي قد تنفجر وتدفعه إلى نقطة الصفر مرة أخرى".

قاطعني صوت الهاتف، كانت مكالمة من أحد مساعدي أحمد ياقوت، اتفقنا على موعد الجلسة الأخيرة هذا المساء، أنهيت المكالمة واتصلت بفرح لأخبرها أنني سأسافر إجازة بداية

من الغد، إن أرادت مقابلتي فسأكون في انتظارها بعد ساعة في أحد المقاهي المعروفة بجوار قصر أحمد ياقوت، وافقت وقالت خلال ساعة سأكون هناك، نهضت سريعًا وقد قررت أن يكون اليوم هو آخر لقاءاتي بفرح وياقوت فهناك حالة أخرى تنتظرني ستبدأ جلستها بعد غدٍ.

وصلت متأخرًا على غير عادتي، كانت هناك فرح تنتظرني وقد بدا على ملامحها الضيق والحزن، جلست أمامها وطلبنا القهوة، سألتني عن ياقوت فأجبت أن كل شيء بخير وعلى ما يرام، سألتني عن سبب سفري المفاجئ فأخبرتها أنني مرهق جدًا من الروتين اليومي وأحتاج إجازة حتى أستعيد ذهني وهدوئي من جديد.

ظل الصمت بيننا لثوانٍ ثم قالت:

- ومرت أوقاتي الصعبة، كل الأوقات التي عانيت فيها، رويدًا رويدًا اختفى وجود جهاد من حياتي، كنت أقوى من استمراري معها لكنني كنت أضعف من مواجهتها، تجنبت التعامل معها وقدمت استقالتي مرة أخرى لاقطع أي فرصة للتواصل معها، الجيد في الأمر أنني تقبلت فكرة حاجتي لشخص ما في حياتي، ازدادت متطلبات شرف الدين، وبدأ التعب يتملك مني، يمكنك أن تقول إنني تعبت من تحمل المسؤولية، من مواجهة الحياة وحدي، من قراراتي وأفكاري وحمل العالم على عاتقي، اجتاحتني فترة أردت فيها العودة لطبيعتي كوني أنثى وثمة رجل مسؤول منه، يتكفل بي ويتكفل بمتطلبات شرف الدين، ذاك الذي لا يستحق أبدًا أن ينشأ في بيئة فوضوية بهذا الشكل، هو نفسه بدأ احتياجه بشكل واضح لوجود أب في حياتنا، بدأ يتعلق بزملائي وأصدقائي ويميل لكل رجل يبتسم له، يملأ احتياجه العاطفي لكونه طفلًا يحتاج لقدوة ورجل يقتدي ويعتني به، وفي هذه الفترة ظهر في حياتي أكثر من رجل مثالي بالمعنى الحرفي للكلمة.

"التدين، الوسامة، المكانة الاجتماعية والأخلاق وقدرته على تحمل المسؤولية".

ولقد عاهدت نفسي ألا أغلق الأبواب، بل كنت أجلس وأستمع لكل من يحاول الاقتراب مني، بدأت الرغبة تسيطر على تصرفاتي، الرغبة في بناء أسرة، لا أخفي عليك لقد وجدت أكثر من شخص مناسب يمكنني الوثوق به، دعني أقول لك إنني شعرت بالراحة والود بيني وبين أكثر من شخص، كثيرًا هي المرات التي كنا قاب قوسين أو أدنى.

ماذا عن مهاب، سألتها فقالت:

- الوحيد الذي لم أفكر فيه، رغم تواصلي الدائم معه ورغم إصراره المستمر على زواجنا، لكنني كنت أرفض حتى الفكرة، هو رجل غير سوي نفسيًا، وأعلم أنه سيضرني ويؤذيني

والأهم أنه لن يكون الشخص المناسب لتربية شرف الدين يا سقرط.

أجابت عن سؤالي، ثم واصلت:

- تقدم لي رجل - محمود - أقسم لك كان مثاليًا في كل شيء، كان ابن أحد أصدقاء أبي القدامى، رجل مثالي بالمعنى الحرفي للكلمة، حين أفكر كيف هل يمكنني العيش والحياة مع هذا الرجل بشكل تلقائي أبتسم وأشعر بالراحة، اتفقنا على كل شيء، متفاهم، ودود، مستقر نفسيًا واجتماعيًا، حتى انفصاله عن زوجته كانت لأخطائها وعاداتها السيئة التي احترامًا لها لم يخبرني عن تفاصيلها، بالإضافة إلى ذلك كان في مركز اجتماعي مرموق، ولأنني لن أتزوج من رجل لا أشعر بالانجذاب له فقد شعرت بهذا الشعور معه، اتفقنا على كل شيء وموعد كتب الكتاب وخلافه، واستمرت علاقتنا، كنا نتبادل الحديث طوال اليوم، شعرت بالألفة والراحة في وجوده، وثقت به وأخبرته بما حدث في حياتي بكل ما فيها، أذهلني أن موقفه من الزواج مني لن يتغير، شعرت معه بالأمان أكثر، يومًا بعد يوم يزداد تعلقي به، لكنني لم أقطع الوصل بيني وبين مهاب، لست خائنة لكنني أحب رغبته المستمرة في الزواج، رغم علمه بالتطورات التي حدثت في حياتي.

قاطعتها:

- هذا اضطراب يا فرح..

ضحكت ثم قالت بدلال:

- نعم كان اضطرابًا، أعلم هذا، لكنني كنت سعيدة بهذا الشعور.

واصلت:

- وقبل أسبوع من كتب الكتاب، شعرت بشيء ما يهمس في أذني "سيؤذيك"، كان الجميع مستعدًا لحفل الزفاف، بينما كان الصوت ومع اقتراب الموعد المنتظر، يزداد قوة وشراسة، رغبة غريبة في عدم التحدث معه، أو حتى التحدث معه بعدوانية غير مبررة، التصيد لأخطائه العادية وصنع حدث من اللا حدث، المشكلة أنني كنت لا أملك سببًا مقنعًا لهذه التصرفات، لا يمكن للمرء شرح صوت لا يسمعه إلا هو، لكنني كنت أسمع هذا الصوت يطاردني في كل مكان، لاحظت أمي تصرفاتي الغريبة فتحدثت معي عن أسبابها، صمت فلم أكن أملك إجابة مقنعة بالنسبة لها، حاولت معي فهم ما أعاني منه، لكنني كنت لا أعلمه ولا أستطيع السيطرة على نفسي، لا أملك مبررًا واضحًا لهذه التصرفات التي تزعجه بكل تأكيد لكنها تحدث رغمًا عني، فوق كل هذا هو مثالي بطريقة تجعلني أشعر بالندم من معاملتي له، صدقًا يا سقراط كنت لا أعلم سببًا لها، الأدهى أنني في هذه الفترة اقتربت أكثر من مهاب،

تطورت علاقتنا وأصبحنا نلتقي كثيرًا أكثر من المعتاد، كنت أستمتع بنظراته وهو يطالبني باتخاذ موقف ولا يستطيع تخيل أنني وبعد أسبوع واحد سأصبح مع رجل آخر، كنت أحب فكرته وهو يتوسل إليّ لأتراجع عن قراري.

ساخرة قالت:

- "قل للذين ظنوا سوءًا عنا، نحن أسوأ مما تعتقدون."

وقبل كتب الكتاب بيوم واحد كنا نجلس أنا ومحمود وشرف الدين في النادي، كنت أنظر له وهو يلعب مع ابني وأتساءل هل هذا هو الرجل المناسب الذي يحتاجه شرف الدين، فيجيب عليّ شرف الدين بضحكته وعفويته مع محمود فيهدأ ويطمئن قلبي، ذهب شرف الدين للتمرين ووقفت أنا ومحمود نتابع التمرين من بعيد، كنت مشغولة في متابعة شرف الدين، بينما كان محمود ينظر إليّ من حين لآخر، كنت أعرفه أنه لاحظ التغيير الذي حدث في علاقتي به، كانت في عينيه الكثير من الأحاديث التي يخفيها.

سألني وهو ينظر إلى شرف الدين المشغول في التمرين:

- لماذا وافقتِ على الزواج بي؟

تظاهرت بعدم سماع سؤاله فكرره مرة أخرى فقلت وأنا ما زلت أواصل متابعة شرف الدين، لكنني لم أتردد كثيرًا في الإجابة عنه:

- سنة الحياة، لو سألتني شخصيًا عن رأيي سأقول لك إنني لا أريد الزواج، لكن الحياة لا تسير بهذا المنوال، بالطبع يحتاج المرء لشخص ما يؤنس وحدته ويشاركه ما تبقى من حياته، وإن لم يكن لهذا السبب فيحق لابني أن يعيش في بيئة سوية، يعيش في أسرة طبيعية.

رد وقد شعرت من نبرة صوته أن إجابتي أزعجته:

- لكنني أردتك، لأنني أريدك لا من أجل الخضوع لسنة الحياة أو من أجل...

قاطعته:

- محمود، اخترتني لأنني جميلة، مهتمة بنفسي، أتحمل المسؤولية، وأعرف كيف تُدار أمور المنزل، ولا شك أو خلاف على أخلاقي وتربيتي واسم عائلتي، كذلك أنني امرأة لا تهوى النكد والخلافات ولست متطلبة مثل أغلب النساء، لقد اخترتني بعقلك فنحن كبار بما يكفي لنفهم أن وقت الحب والرومانسية والرغبة واختيار القلب فات وقتها من قديم الأزل، اخترتني لأنني أناسب ظروفك وطبيعة حياتك، وأنا كذلك اخترتك لأسباب كلها تناسب حياتي

واحتياجاتي.

نظر إليّ ثم قال:

- "كلامك صحيح لكن لا أظن أن النظرة وحدها يمكنها صنع بيئة سوية."

رددت:

- أظن ذلك، محمود دع الأمور تسير حسب طبيعتها، لا تنس لقد أخبرتك أنني لن أنجب، وأنت تعرف السبب وما حدث.

ما حدث معك ليس نهاية الحياة يا فرح، أنا لا يهمني ما حدث قدر أهميتي أن تتعافي من أفكارك ونظرتك للأشياء.

انتهى وقت التمرين، وصلت إلى منزل العائلة ثم حملت حقائبي واتجهت إلى أحد الفنادق، بعدما طلبت من عائلتي أن تتركني وحدي أجهز نفسي لحفل الغد.

لقد تغير سلوكي كثيرًا، شتان الفرق ما بين تفاصيل استعداد زواجي الأول وما بين زواجي الثاني، الأول كنت متوترة، فتاة صغيرة خائفة وسعيدة في الوقت نفسه، لا أعرف ماذا أفعل لكنني أشعر بالسعادة والفرح، أسمع عن طرق المعاملة مع زوجي ليلة الزفاف، نصائح أنثوية عما سيحدث في الفراش، لا أفهم لكن يحمر وجهي وأبتسم، الآن أنا وحدي تمامًا في غرفة الفندق، أجهز نفسي كامرأة لا تبالي، لكنها ستعطي لزوجها الثاني ما أراده، بعد زواجها الأول وبعد أن انتهكت حرمتها في الاغتصاب، بعد الكثير من التجارب والمواقف والصدمات، الآن أقف هادئة تمامًا مستعدة للزواج مرة أخرى.

الرابعة عصرًا قبل حفل الزفاف بخمس ساعات..

استيقظت متأخرة، فاقدة الشغف والطاقة ولا رغبة في بدء يوم جديد، لكن اليوم ليس كأي يوم، إنه حفل زفافي، في الشرفة وقفت أتابع المارة من الدور العاشر، كل شيء صغير في عيني، كل شيء تافه.

عدت لغرفتي بعد ساعة أتأمل الناس وتطاردني أفكاري ومخاوفي، تمددت على سريري متأملة فستان حفل الزفاف، واجتمعت كل السيناريوهات والأحداث السيئة في رأسي من جديد لتنهش فيها.

اتصلت أمي لتطمئن عليّ، فأخبرتها أن كل شيء بخير وعلى ما يرام، وأنني بدأت في الاستعداد، ارتديت الفستان وجهزت نفسي تمامًا، ثم نزلت من صالة الاستقبال لانتظار أمي وأبي كما اتفقنا، شعرت ببعض الضيق، فقلت لنفسي من الخروج والتجول بالسيارة حتى

يأتيان.

سيوة على 100 كيلو..

نعم هذا أول ما استوعبته بعدما انطلقت بالسيارة، لم أدر بنفسي إلا وأنا أقف بسيارتي أمام هذه اللوحة في الطريق الصحراوي، أين أنا ومتى حدث كل هذا؟، صدقني لا أتذكر تحديدًا ما حدث قدر أنني فور أن ركبت سيارتي مر أمامي كل الأحداث التي عشتها، شعرت وكأن الخوف يتجسد أمامي ويجلس في الكرسي المجاور لي ويدفعني للهروب، للانطلاق إلى أبعد مكان وأبعد نقطة، استوعبت أنني قضيت خمس ساعات كاملة في الطريق، حتى وصلت إلى سيوة بالفعل.

- هربت من حفل الزفاف؟

ردت:

- يبدو الأمر سخيفًا لكن هذا ما حدث، لم أستطع تحمل المسؤولية يا سقراط، الزواج فكرة مرعبة لكن لم أتوقع أبدًا أن يصل خوفي ورعبي منه للحد الذي يجعلني أهرب من ليلة زفافي، لكنني لم أتوقع أبدًا أن يقودني بهذا الشكل، صدقني حتى الآن لم أستوعب ما حدث يومها، لكنني أدركت أنني أصبحت معقدة تمامًا من الزواج.

وفرح تواصل شرح ما تُعاني منه، أخرجت مذكراتي ثم بدأت في الكتابة:

- تخيل أن تعيش مع شخص لا تعرفه جيدًا ولا يعرفك، شخص ستقضي أيامك وحياتك معه وهو لا يعرف إلا القليل جدًا عنك، تخيل بقرار واحد قد تعيش مع شخص لا يُناسبك ولا يُشبهك، وفجأة تصبح أسير قرارك الخاطئ، تخيل أن تنام بجوار شخص قد يؤذيك أو شخص سيتخلى عنك أو يدبر لك مكيدة، تخيل أن تعيش مع شخص جبان لا يقدر على اتخاذ قرار واحد في حياته، تخيل أن تعيش مع شخص يهرب حين تشتد الدنيا عليكما، أو تجده يقف ضدك بدلًا من أن يقف بجوارك ليشاركك قسوة الحرب، ويدعمك على تجاوز الصعوبات، أنا لا أثق في وجودي مع أي شخص، لا أعطي لأي شخص الأمان التام، لا أقدر على البوح عن كل مشاعري مع كل شخص، وأقسم أنني لا أتخيل فكرة أن شخصًا ما يستطيع تحمل مسؤولية وجودي في حياته وأتحمل مسؤولية، أشك دائمًا في نظرته لي، قد يضطر لخيانتي أو دس السموم في قلبي، قد يكون شخصًا استغلاليًا ونرجسيًا يمتلكني، ثم يقرر تحطيمي.

قد أثق به ومع أول خلاف بيننا يفشي أسرارنا، أو يستغل نقاط ضعفي، ربما يكون شخصًا أنانيًا لا يفكر إلا في سعادته ورضائه ويهملني، لا يهتم بما أعاني منه لا يهتم بمشاكلي، أو

شخصًا تافهًا يسخر من أحلامي وطموحاتي، يقص أجنحتي ويقلل من كل إنجازاتي، أو يشعر بالحنين لشخص آخر قد فاته، ألا أكون الشخص الذي أراده وقد اختارني لأنني أناسبه فقط أو لأن شكل حياته يناسب لشكل حياتي، تخيل أن أكون بين ذراعيه وهو يشتاق لشخص آخر، أو يتمنى لو كان حبيبه القديم بجواره الآن بدلًا عني، تخيل أن يشعر بالملل مني ومن الروتين اليومي الذي يصاحب الحياة الزوجية، تخيل ألا يكون وفيًا لعلاقتنا أو يكون شخصًا دنيئًا لا يُستأمن على منزله وعائلته، تخيل أن يكون شخصًا مستهترًا، تخيل أن تعيش مع شخص في بيت واحد لا تعرف جانبًا واحدًا من جوانبه، أو يكون أبًا سيئًا لأولادنا، يصبح ذاك الرجل الذي يتمنى أولادنا غيابه عن البيت ويشعرون بالسعادة والحرية في غيابه، أن يهمل مهام التربية أو يسيء تربية أولادنا، ألا يكون قدوة لهم مثلًا أو يكون قدوة سيئة، ولنفترض أنه عكس ذلك. تخيل أن أقع في غرامه بعدما اعتاد وجوده ويصبح يومي هو يومه وتفاصيله هي تفاصيلي، يقرر الرحيل عنك بلا سبب، أو يقرر فجأة إنهاء علاقتكما، وإن كان كل شيء مثاليًا يظهر الموت ليعكر صفو علاقتكما، لتعيش مرارة فقدان ورحيل شخص أحببته بكل طاقتك.

أخشى الارتباط لفترة طويلة، أخشى مما ستفعله الدنيا بنا، الظروف، الحياة، أنا أخشى فكرة وجودي مع شخص واعتمادي عليه وأخشى أن يصبح مزاجي ونفسيتي مرتبطين به، كيان مرتبط بكيانه وهمه يعني همي، أنا أخشى فكرة الأذى من شخص حاولت إسعاده، وأخشى إنكار المعروف وأخشى صدمات التعلق والعشم، الزواج مشروع يحتاج شخصًا مسؤولًا وأنا لا أثق في نفسي، ولا في أي شخص لبدء هذا المشروع الصعب.

واصلت فرح بعدما قرأت ما كتبته:

- وبدأ فصل جديد من الأزمات، لقد هجرتني عائلتي مرة أخرى وللأبد، لقد فضحتهم حسبما قالوا، وهذا صحيح لا أنكر خطأ ما قمت به، ولن يفهموا أنني لم أستوعب، ولم أكن أعي ما كنت أقوم به.

لقد أدركت أن خطأ وخللًا ما في شخصيتي، إنه خطأ وخلل يستوجب المواجهة من جديد، لكن هذه المرة كانت طاقتي لا تسمح بمزيد من المواجهات، فوجدت نفسي أميل أكثر للهروب والعزلة، ولا أخفي عليك لقد كنت عرضة لأي شيء يجعل رأسي يتوقف عن التفكير.

وحين تنغلق أبواب الهروب الشرعية معك وتتكاثر الصدمات عليك فالمخدرات هي الحل الأمثل للهروب، ما المانع لو خضت هذا الطريق الذي سمعت كثيرًا عنه، التجربة لن تصل بي إلى الإدمان، وما دام عقلي سيتوقف ولو ساعة عن التفكير فصدقني هذا أكثر ما احتاجه، مرة مع الثانية..

ثم؟

اتصلت بجهاد لأخبرها أنني في حاجة للمزيد، لقد فوجئت باتصالي بها وطلبي منها، لكنها لم تعترض ولمَ الاعتراض وهي لا تختلف كثيرًا عني، فجأة عادت علاقتي بها، وفجأة أصبح يومي عبارة عن هروب، هروب مستمر من كل شيء حولي، أهملت تربية شرف الدين، أهملت شكلي وحياتي، وأصبحت أصرف جنيهًا على ابني وعشرة أضعافه على المخدرات، الحياة تحت تأثير هذه المواد جميلة وهادئة؛ حيث لا تفكر في الأزمات، لا تفكر في الواقع، لا تفكر في الحقائق، ولا ترى نفسك إلا شخصًا جميلًا يعيش في عالم جميل ومثالي، هكذا كان شعوري وانطباعي الأول الذي دام فترة لا بأس بها، لكن ومهما بدا العالم مثاليًا في البداية، فالجميع يعلم نهاية هذا الطريق الذي يبدأ ورديًا ثم ينتهي نهاية جحيم كابوسية.

سقطت أسناني، تساقط شعري، بدأت التجاعيد تسيطر على ملامحي، حركتي بطيئة وشغفي منعدم ورائحتي كريهة، كانت فترة في غاية القسوة عليّ، ومع ذلك استمر محمود في محاولاته للزواج مني من جديد، كنت أرفض رفضًا قاطعًا رغم حاجتي الشديدة لمن ينتشلني وينقذني من هذه الدوامة التي تؤدي إلى الهلاك، لكن ومع ذلك كلما خطرت على بالي الفكرة أشعر بالرهبة والخوف، أتدري معنى أن تترك الوحدة والمخدرات تنهش في جسدك وعقلك ورأسك وكل ما فيك، وتصبح في أشد الحاجة لمن يواسيك ويدعمك، ومع ذلك يصبح كل هذا أهون بكثير من فكرة الزواج، هل تفهم ما أعاني منه، لكن كان الموت عندي أشد وأهون من الزواج.

والنهاية المنطقية لهذه الفترة؟

تم إيداعي مستشفى علاج الإدمان، ستة أشهر كاملة في وحدة وعزلة تامة، لا أشم إلا رائحة الأدوية، لا أتحدث إلا مع نفسي عما حدث في حياتي، الحقن المسكن والمهدئ هي زينتي التي نشبت في جسدي لأتعافى، وأمنيتي الوحيدة هي الخروج من هذا المستشفى.

تعرف يا سقراط لقد فاتني الكثير من الفرص الرائعة وأحيانًا أشعر أنني أستحق ما حدث في حياتي، لأنني ببساطة كنت أضعف من مواجهة مخاوفي، الخوف من الارتباط والحياة مع شخص آخر دفعني للكثير من الحماقات والسخافات، وكان سببًا حقيقيًا في ارتكابي من الأفعال التي دمرت وسحقت حياتي.

ستة أشهر من جلد النفس والعذاب الحقيقي، أراجع نفسي وأفكاري وقراراتي الخاطئة، عاهدت نفسي أن أصلح وأعيد بناء نفسي من جديد، عاهدت نفسي ألا أكرر أخطائي وأن أترك لعقلي كل زمام الأمور، كل هذه الأحداث كانت كفيلة بأن أقف أمام نفسي وأحاسبها.

خرجت من المستشفى بعقل جديد، عهد جديد على نفسي، تعينت في شركة التأمين وحاولت إصلاح علاقتي بشرف الدين، استمرت علاقتي بمحمود كأصدقاء ولم يكف مهاب عن محاولاته للزواج بي، أمام عائلتي لقد استعدت نفسي وذهني لكن أمام نفسي ما زلت أعاني من الرهبة من الزواج.

قلت: الجاموفبيا..

نظرت إلي ثم واصلت:

- الجاموفبيا، البارفوبيا، لا يهم المهم أنني مازلت لم أتعاف من مخاوفي.

سألتها:

- لاحظت أن مهاب يحاول بشتى الطرق الزواج منك، إذن لماذا كانت سعادتك الكبيرة في آخر مرة عرض عليك الزواج؟

ردت:

- لأنني وللمرة الأولى أشعر بالحب، لقد حاول عشرات المرات لكن وفي كل مرة كنت أشعر أنه يريد الزواج مني ليستقر، ليواصل الحياة، لأنني أناسبه، لكن هذه المرة أشعر أنه أرادني لأنه يحبني، لأنه يريد أن يبدأ فصلًا جديدًا في حياته معي، لقد وافقت على طلبه أخيرًا.

قلت:

- رائع، الآن يمكنني أن أقول إنك تعافيت من مخاوفك؟

ردت وهي تضحك:

- هكذا ظننت، لكن ثمة تغيرات حدثت في الفترة الأخيرة من مهاب، بعد موافقتي بدأت تصرفاته تتغير معي، بعدما كان يتواصل معي طوال اليوم، يسألني عن تفاصيلي وحياتي، ويشاركني خطواتي، ويستغل كل فرصة ووقت لمقابلتنا، أصبح لا يرد على مكالماتي، لا يسألني عما حدث في تفاصيل يومي، وحين أسأله عن موعد زواجنا يتهرب بطريقة مبالغ فيها.

سراج أنا لا أفهم سر هذه التصرفات الغريبة، فجأة بعدما سعى ورائي مدة طويلة، الآن يتجنب التحدث معي، وكأنني لست الفتاة التي سعى لها طويلًا للفوز بها.

كانت تتحدث عن التغير الكبير الذي قام به في معاملته لها، بينما كنت أدونت بعض الملاحظات في مذكراتي فقاطعتها وقلت:

- أنتِ مصابة بالجاموفوبيا، ولسوء حظك مهاب يُعاني من النرجسية..

- النرجسية؟

هززت رأسي :

- نعم..

الرجل النرجسي يا فرح هو رجل يركض طويلًا وراء فريسته للفوز بها، لا يهم كم وقتًا سيستغرقه للفوز بها، لا يهم كم المسافات التي سيقطعها وكم العقبات التي سيتجاوزها، هو لا يهتم كثيرًا برفضك وإصرارك الطويل على رفضه، قدر ثقته الكبيرة بأنه سيفوز بك في نهاية المطاف، مهما طالت المدة، الرجل النرجسي جذاب للحد الذي يرسم لك الجنة، يعدك بقصة جميلة في غاية الرومانسية كما لو أنك تعيشين في رواية جميلة، ستجدينه أول من يهتم بك وأول من يدعمك، وأول من يقف بجوارك في الأزمات والمواقف الصعبة، لن يتخلى عنك ولن يتردد لحظة لكسب ثقتك وأمانك، سيفعل كل شيء من أجلك حتى لو على حساب نفسه، وكلما زاد رفضك زاد إصراره وعناده، هو يرى نفسه غير قابل للرفض من أي أنثى مهما كانت، يؤمن بأن رفضه إهانة في حق كبريائه، لا بد أن يردها للأنثى التي رفضته، وأفضل رد بالنسبة له هو امتلاكها، ولو كلفه الأمر سنوات وسنوات، شعوره الدائم بأنه غير قابل للرفض يجعله كالوحش الجائع الذي يلهث طوال الوقت لينقض على فريسته مهما حاولت الهروب منه.

الرجل النرجسي هو الأكثر جاذبية للنساء، لأنه يقدم الأشياء بطريقة أكثر إثارة من الرجل العادي، هو يفهم في ذوقيات التعامل مع فريسته، يعرف التوقيت المناسب للتحدث معها، للتجمل فيها، ولبدء علاقة معها، الهالة المحيطة به كفيلة أن تجعل أي أنثى تقع في غرامه، وقد تتوهم المسكينة أنه يفعل كل هذا من أجل حبه لها، لكن الحقيقة أنه يقوم بكل هذه التصرفات الجميلة للوقوع بها، لإرضاء مشاعره ورغباته وكبريائه بأنه مناسب ومثالي لكل النساء، وأنه الوحيد في الدنيا الذي يملك حق الموافقة أو الرفض.

قاطعتني فرح:

- سقراط، أنت تبالغ في وصفك، مهاب ليس بهذا السوء الذي تعتقده..

فوجئت من ردها لكنني لم أتناقش معها:

- حسنًا يا صديقتي، دعك من وجهة نظري وآرائي، ما الذي تنوين القيام به الفترة المقبلة؟

قالت وهي تستعد للرحيل:

- أظن أننا سنتزوج، وإن حدث هذا سأثبت لك خطأك.

قلت وأنا أضحك:

- نحن لسنا أعداء، أتمنى لو تخيب توقعاتي..

قالت متحدية وبنظرة أشبه بالعدوانية:

- ستخيب وسأثبت لك هذا.

قبل أن تتحرك قلت:

- ألا ترين أنك تبالغين في ثقتك؟

قالت:

- أليس من حقي الوثوق في شخص من جديد، أليس من حقي أن أراهن من جديد، صدقني نظرتك ورأيك خاطئان يا سراج، سنتزوج وسأعيش الحياة التي حرمت نفسي منها.

قلت دون أن أنظر لها:

- أتمنى ألا تصدمك الحياة مرة أخرى.

خرجت فرح من المقهى فواصلت الكتابة في مذكراتي:

- أتمنى أن تخيب نظرتي وتوقعاتي، المرأة تحت عرضة تأثير النرجسي لا تشعر بالخطر، لأنه يجيد بكل بساطة تأمين كل نقاط مخاوفها، المرأة تحت تأثير الرجل النرجسي لا تشعر بطاقتها التي تستهلك إلا بعد استهلاكها بشكل كامل، لا تشعر بأنها تتعرض للاستغلال إلا بعدما تفقد كل ما تملكه، المرأة تحت تأثير النرجسي لا تشعر بالهوان إلا بعد أن تغرق تمامًا في المأساة.

النرجسي هو واحد من أخطر الرجال الذي يمر على حياته المرأة، إنه يعطي الأدرينالين ويسيطر على الدوبامين حتى لا تشعر بأي نوع من أنواع الألم، بينما هو يلتهم كل ما فيها بهدوء تام، إنه أشبه بالقرش الأبيض العظيم، حين تواجهه سيندفع الأدرينالين في رأسك ولن تشعر بجسدك وهو يتآكل تمامًا، تخيل أن تكون تحت مخالب القرش ولا تشعر بالألم في جسدك لأن الأدرينالين يسيطر عليك، الفزع والرهبة والخوف أكبر من شعور الآلام نفسه، كذلك هو الرجل النرجسي كفيل أن يجعل الدوبامين في رأسك يجعلك لا تلاحظ الآلام والأضرار والدم الفاسد الذي ينتقل لك من مخالبه ورغباته المسمومة.

قاطعتني رنة المنبه ليخبرني بأن موعد لقائي بأحمد ياقوت قد حان، نهضت من مكاني

ثم توجهت إلى القصر، حيث لقائي الأخير بأحمد ياقوت.

ما أن وصلت القصر حتى وجدت سيارة سوداء فارهة تقف أمامه، ناداني السائق، فاقتربت من السيارة، أشار إلي من المقعد الخلفي "أحمد ياقوت" ودعاني للجلوس بجواره.

- كيف حالك اليوم؟

قال:

- أعتذر أن تسببت لك في قلق، هذه النوبة تجتاحني كلما تذكرت بعض المشاهد القديمة.

قلت: كنت أريد الاطمئنان عليك.

- حسنًا سترافقني طوال اليوم..

- إلى أين؟

- هذا لقاؤنا الأخير، صحيح؟

قلت:

- هذه جلستنا الأخيرة، لكنه لن يكون لقاؤنا الأخير أبدًا.

ابتسم، ثم أشار للسائق بالانطلاق.

انطلقت السيارة متخذة طريق مصر الإسكندرية الصحراوي.

telegram: @alanbyawardmsr

أوقات الغروب هي الأحب لقلبي، حيث يعلن اليوم عن نهاية الفوضى والضجيج، الملامح العابثة والمسؤوليات، ويبدأ الظلام يسكن السماء معلنًا وقت السكينة والهدوء، الغروب رسالة من السماء تُخبرك فيها أن اليوم الصعب قد انقضى ومضى، وساعات جديدة ويبدأ يوم آخر ربما أقل قسوته من اليوم الذي مضى.

واصل أحمد ياقوت ما حدث بعد وفاة أصدقائه:

- أصبح اسمي حديث الإعلام، الكل يتباهى ببراءتي ويتحدثون عني، الكثير من الاتهامات صبت ناحية أنطوان، اتهامات بالفساد والرشوة، وشن اتهامات كاذبة، لم يهمني كل هذا، كان الأهم هو الاتهام الذي أريد التحقيق فيه "الشروع في قتل فيدرا وحسين"، لكن للأسف لم تكن هناك أدلة كافية لإثبات التهم عليه فأغلقت القضية واعتبرت حادث سير عابرًا، بدأت الصحافة تلاحقني في كل خطوة على أمل الخروج والتحدث مع الجماهير عما حدث، لقد التزمت الصمت كل هذه الفترة وهذا بالطبع أمر مزعج للجميع، بعد قرابة شهرين من الحادث

قررت أخيرًا العودة إلى الإسكندرية، لم أملك هنا شيئًا ما يجعلني أستمر.

- الشهرة؟

- لم تكن غايتي من الأساس يا سقراط، كما قلت لك ما قيمة أن تكون أعظم وأهم شخص في الدنيا وأنت لا تعني شيئًا بالنسبة للمحيطين بك، وبعد هذا الحادث فقدت كل ما المحيطين بي، العودة إلى الإسكندرية كان القرار الصائب بدلًا من يأكلني القهر والندم والوحدة، في لحظاتي الأخيرة في اليونان وقفت أمام قبر أصدقائي..

"لن أقول وداعًا بل سأقول إلى اللقاء في مكان آخر".

أدرت ظهري لهما ثم كتبت على أحد مواقع التواصل الاجتماعي رسالتي الوداعية..

"لقد وقفتما بجانبي في أوقاتي الصعبة وكنتما سببًا في صنع وعودة اسمي للأضواء، تلت منكما كل الدعم والمودة والمساندة، لم أحزن من موقفكما الأخير ضدي، لأنني أعلم أن بعض المجتمعات ترفض الاعتراف بأن رمزها وقائدها شخص فاسد، وهذا إن دل فيدل على الانتماء لرموز وطنكما الكبير، كانت سعادتي كبيرة حين ظهرت الحقيقة، وكنت أفضل وخير حليف وداعم خصوصًا بعدما فقدت عائلتي، أسعدتني مشاعركما النبيلة معي، الآن وبعدما فقدت عائلتي وأثبتت براءتي وظهرت حقيقة الفاسد، حان وقت جمع ما تبقى من ذكرياتي الجميلة معكما والعودة إلى موطني الأصلي، إلى الإسكندرية، ممتن لكما على أمل العودة من جديد".

نشرت الرسالة وأنا على سلم الطائرة التي حلقت في السماء إلى الإسكندرية.

العودة في مثل هذه الظروف كانت استثنائية، كانت عودة مفاجئة للجميع حتى إن عائلتي لم يستعدوا لاستقبالي، الآن أعود لأبي الذي اتهمني بالفشل، لأمي التي حاولت أن تكون الجانب المريح في حياتي، أخي الصغير - يزيد - المشغول في محاولة صنع حياته، وحبيبتي هزيمتي الأولى في الدنيا مع كم تعثرات وهزائم وخيبات وافتراء وتدمير لمستقبلي القديم في مصر، الآن أعود مرفوع الرأس أمام الجميع لكنني مهزوم ومحطم أمام نفسي.

ما أن وصلت إلى الإسكندرية حتى اتجهت لمنزل العائلة في "بحري" رحب بي أهل المنطقة وأصدقائي القدامى، لكن البعض منهم كان يعزيني، تقبلت العزاء من الجميع، ثم صعدت إلى المنزل، وهنا استقبلتني أمي مرتدية الملابس السوداء، ما أن رأتني حتى ارتمت في حضني وظلت تبكي، كان يقف يزيد بجوارها يبكي هو الآخر، أشعر باختلاط الأمر، عزاء الناس وبكاء أمي وأخي لا علاقة له بمقتل الصديقين.

- أين أبي؟

سؤال جعل أمي تبكي أكثر، وهنا فهمت سر هذا الحداد.

- لماذا لا تخبريني يا أمي؟

وهي تتشحتف بالبكاء:

- شعرت بالشفقة عليك بعد ما حدث لك في الغربة، لم أرد أن أحملك مزيدًا من الهموم.

- في وفاة أبي يا أمي؟

واصلت أمي البكاء دون أن ترد.

- متى حدث؟

- قبل أسبوع.

اصطحبني يزيد إلى المقابر.

طوال الطريق كان يحدثني عن أيام أبي الأخيرة، عن متابعته لأخباري أولًا بأول، لم يتصل بي لكبريائه، لكنه كان أكثر المهتمين بالتطورات التي تحدث، بل كان يقضي أغلب يومه في الصفحات والقنوات التي تذيع تفاصيل القضية، في أيامه الأخيرة ورغم وجوده في العناية المركزة، لكنه تمنى لو كان بإمكانه السفر إليك ومساندتك، لم يشك لحظة في صدقك، ذاك الذي اعتاد أن يراك كاذبًا لم يشك يومًا في براءتك، وقبل أن تتوفاه المنية كان يقول "أخبروه أنني فخور به، وأنني لم أقصد يومًا القسوة عليه".

وصلنا إلى المقابر وأنا أسمع من يزيد لحظات أبي الأخيرة، وقفت أمام قبره، قرأت الفاتحة له ثم دعوت له، ومر أمام عيني شريط ذكرياتي معه، لقد أحبني، أعرف هذا مهما كانت أفعاله عكس ذلك، لكنني أومن وأعرف أنه أحبني وأرادني شخصًا جيدًا، عنفني لأكون أفضل لا ليجعلني أفقد ثقتي في نفسي، أحبني حتى لو كانت طريقة التعبير عن حبه قاسية وعدوانية وجافة، لكن يقيني بأنه أحبني لأنني ابنه الأول والبكر.

وقفت أمام قبره والدموع على وشك السقوط من عيني.

لقد كان لقائي بأبي واحدًا من أهم الأسباب التي دفعتني للعودة من جديد، أردت أن أرى في عينيه نظرة الفخر والاعتزاز بما حققته، كنت أريد أن أسمع منه "فخور بك"، لأنني بالفعل حاولت أن أثبت له أنني لست شخصًا سيئًا، أو رجلًا فاشلًا، بل اجتهدت ونهضت من حطامي ليتباهى بي، كان لقائي به قادرًا على استعداد روحي المفقودة، أو على الأقل تبث

في روحي أمل أنني قمت بشيء رائع في حياتي.

حاولت البكاء لكنني فشلت، استدعيت كل الذكريات التي قد تثيرني للبكاء لكن دون فائدة، كنت في غاية الثبات والقوة، لم أتأثر، وقفت في مكاني وشريط الذكريات والأحداث في رأسي وعقلي، لكنني ثابت في مكاني وفي قمة الهدوء.

استقبلت العزاء ثلاثة أيام، ثم قررت الجلوس في غرفتي لمدة أسبوع كامل معتزلًا الصحافة، والظهور الإعلامي، لم أرد على اتصالات أي شخص، لقد قضيت ليالي أجلس فيها منتظرًا شيئًا واحدًا، مكالمة أيلا حبيبتي القديمة والوحيدة، أنا أعرف أنها تتابعني وتعرف أخباري وبحكم الرباط العائلي فلقد أخبرني أخي أنها حضرت مراسم عزاء والدي، تبسمت حين علمت بأمر حضورها، حدثني يزيد عن مدى روعتها وطلتها التي لا تتغير أبدًا، حدثني عن رقتها وجاذبيتها التي تجعلك تفقد عقلك، شعرت بالغيرة والحنين في آنٍ واحد، بينما كانت تردد أم كلثوم في أذني..

كلموني تاني عنك.. فكروني فكروني..

صحوا نار الشوق في قلبي وف عيوني..

رجعولي الماضي بنعيمه وحلاوته..

وبعذابه وبقساوته..

وافتكرت كمان يا روحي..

فرحت وياك قد إيه..

وافتكرت كمان يا روحي..

بعدنا ليه..

بعد ما صدقت إني قدرت أنسى

بعد ما قلبي قدر يسلاك ويقسى

جم بهمسة وغيروني.. كانوا ليه ليه بيفكروني..

بعد ما اتعودت بعدك..

غصب عني..

بعدما نسيت الأماني والتمني..

كلمتين اتقالوا اتقالوا..

شالوا الصبر مني..

كلمتين اتقالوا اتقالوا شالوا الصبر مني..

صحوا في عنيا حنينهم الابتسامة..

صحوا سمعي ود كلمة من كلامك..

صحوا حتى الغيرة.. صحوني..

كنت أشبه برجل مصاب بالانفصام، يحزنني ويؤلمني ويدفعني للخلاص كل ما حدث معي، ويبتهج قلبي كلما خطرت أيلا على بالي، أنسى أحزاني وأنسى همومي وأسمع أم كلثوم تردد كلماتها في أذني.

لكن سرعان ما ينقطع هذا الشعور بالسعادة والفرح، أعود لواقع أن الطرق لمَ تعد تجمعنا، وأن الحياة لا تحبنا معًا، سرعان ما يصدمني واقع أننا افترقنا.

سألته: كل هذه السنوات ولم تنسها؟

أبتسم:

- "نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأولِ يا سقراط".

أنساها وماذا عساي أن أفعل بعد نسيانها يا صديقي؟

الحب والنسيان لا يجتمعان أبدًا، الرجل لا ينسى فتاته الأولى، لا ينسى الفتاة التي أحبها بصدق، أول من علمته معنى أن يحب، أول من شغلت رأسه وتفكيره، تلك التي أعاد ترتيب حياته لأجلها، وتلك التي تقاسم معها أول أحلامهما وشاركها أولى خطواتها، الرجل لا ينسى فتاته الأولى، أول من هرب إليها حين ضاق به العالم، أول من آمنت به وعززت قوته، ولأن طبيعة الرجل لا يبكي ولا يتعرى أمام أحد، فهو لا ينسى أبدًا الفتاة التي تعرى أمامها وارتمى بين ذراعيها بكل ضعفه وحزنه وكآبته.

واصل ياقوت حديثه:

- الآن أصبحت مسؤولًا عن عائلة ومن سخرية القدر أنني عدت لأحتمي واطمئن بهم، فجأة أصبحت أنا من ينبغي منح الأمان والطمأنينة لهم، الآن بعدما عدت إلى مصر أملًا في فرصة للانهيار، فاجأتني الظروف بحمل عتق المسؤولية على كتفي، وقلبي الذي عاد مهزومًا من تحطيم أحلامه وفقدانه لأقرب أصدقائه وعائلته الصغيرة، بعدما كان يأمل في مدينته

أن تهون عليه الدنيا، استقبلته بخبر رحيل والده، فوق كل هذا سلب منه رفاهية الانهيار أو الحزن على ما حدث.

الدنيا حين تنقلب فجأة عليك، تقرر أن تواجهك بكل المواقف الصعبة في آنٍ واحد، هذا ما حدث معي، والأشد من ذلك هو أنني لم أملك أي اختيار إلا المقاومة والصمود، ومواصلة غمار الحرب معها، رغم هزائمي الكبيرة التي كانت تحتاج لهدنة طويلة.

مر الوقت ومرت أيامي الباردة.

هل تعرف معنى أن تقاوم وأنت ممزق تمامًا؟

سألني ياقوت فقلت:

- أنا لا أعرف إلا هذا الشعور، تضربك الدنيا في قلبك فتواجهها بعقلك، فتصيب عقلك بالفوضى فتواجهها بطاقتك، تستهلك طاقتك فتواجهها بآمالك، تحطم آمالك فتواجهها بالرغبة، تبتسم لرغباتك ثم تحطمها، فتقرر أن تبارزها بالمعطيات والدلائل، تغضب وتثير وتفاجئك بأحداث جديدة تزيد فوضاك، تقرر مواجهتها بالحلم فتحطم أحلامك أمام عينيك، تلملم شتات روحك وتعود لتتمنى، فتهرب من بين أناملك كل الأشياء التي تمنيتها حتى تفقد القدرة على التمني، تعلن هزيمتك أمامها فتقترب منك لتستدعيك للحرب من جديد، لكن وأنت هش، وأنت بلا أي طاقة، عليك استقبال ضرباتها ومخالبها في رقبتك، وعليك أن تكتم بكاءك وصراخك، لتواصل قتالك الذي حكم عليك في الهزيمة قبل البدء.

ابتسم ياقوت لردي ثم قال:

- هذا بالضبط ما حدث، عدت سريعًا لمواصلة حياتي بشكل طبيعي، كما لو أنني لم أنهزم منها، عدت مجبرًا على المواصلة ولو كان بإمكاني لاخترت العزلة عن العالم، وقضيت ما تبقى من عمري في صمت وهدوء بعيدًا جدًا عن الناس.

في هذه الفترة كان كل شيء روتينيًا وباردًا، وفي إحدى الليالي الصعبة كنت أجلس على شاطئ الإسكندرية، أتأمل البحر، السماء، القمر، والنجوم، كيف خلق الله هذا الكون الواسع الذي لا حدود له، أنا متيم بالفضاء ومتيم بإبداعات الخالق، أسرح من حين لآخر في أمنياتي التي لم تتحقق، أفكر ماذا لو كانت الحياة بسيطة وسهلة، ثم يأثرني مشهد الصحاب وهو يداعب القمر، أفكر فيما فاتني وفيما تمنيت ولم أحصل عليه، وفيما هزمني وفيما انتصرت فيه، ماذا لو ابتسمت الدنيا ولو مرة واحدة لأجلي، ماذا لو قررت الحياة معانقتي ولو لليلة واحدة؟!

"يا الله صنعت كل هذا الكون الهائل، ولا أستطيع تحقيق أمنية واحدة من أمنياتي."

كلمات رددتها بيني وبين نفسي، لكن الله وحده كان يسمعها، عدت لغرفتي وقبل أن أغدو في نومي..

"أشتقت للفطار معك، سأنتظرك في الثامنة صباحًا، لا تتأخر كعادتك".

عيناي كادت تنفجر من شدة التحديق في الرسالة، أيلا!

أتذكر وقتها أنني قرأت الرسالة أكثر من مئة مرة لأتأكد من اسم الراسل، نعم هي أيلا!

الحب وحده يمنحك قوة لا تتخيلها، قد تنهض وترقص وتغني وتركض حتى لو كنت مبتور الأقدام، أتذكر وقتها أنني ظللت أركض في الغرفة وأنا أقرأ الرسالة كالمجنون، الأرض لا تتسع أقدامي، وأجنحتي تحلق فوق في السماء؛ فجأة نسيت كل أوجاعي، فجأة نسيت كل ما حدث، فجأة شعرت أنني ولدت من جديد، لقد عادت روحي التائهة منذ سنوات، ابن الثلاثين، فجأة أصبحت طفلًا أقفز على السرير كطفل نجح في دراسته، كمجنون تائه عقله، فرحة لم أر ولم أعش مثلها، هذا ما يفعله الحب بالرجال، حتى أشد الرجال رشدًا وقوة يعودون كالأطفال حتى يداعبهم الحب.

سأل ثم أجاب على نفسه:

- أهذه هي الليلة التي لا تسع سقف غرفتك حجم أجنحتك؟

ربما..

أتذكر وقتها أنني كنت أريد أن أركض في الشارع وأعانق كل شخص أقابله، كنت أرى كل شيء سعيدًا ومبهجًا، تناسيت أيامي الصعبة وظللت أغني حتى ظنوا في منزلنا أنني فقدت عقلي، هي الليلة التي تشعر فيها أن قلبك يرقص سعادة، وأن الحياة جميلة حتى إنك لا تتذكر أيامك الصعبة، هي الليلة التي تتنفس فيها بعمق، كما لو أنك لم تتنفس من قبل، ترى الأشياء بألوانها الوردية الجميلة، كما لو أنك قضيت أيامك من قبل في سواد وظلام، تسمع كل الأصوات وكأنها تغني حولك، تبتسم من تلقاء نفسك، تبكي من فرط الرغبة في معانقة الدنيا، وتتمنى لو الحياة تتوقف عند هذا الشعور، قلبك سليم، عقلك هادئ، وتريد بناء كل الأشياء التي تحطمت، لا تشعر بالحزن على ما فاتك، بل تشعر بالامتنان لأن ما فاتك هو السبب في وصولك لهذا الشعور، لا تشعر بالندم عن كل الأخطاء التي ارتكبتها بل تشعر بالامتنان؛ لأنه لولا أخطاؤك ما كنت عشت هذه اللحظة، انتهى البؤس وانتهت التعاسة، الآن قد رست مراكبي على شواطئ الحب، هكذا قلت وهكذا ظننت، أمام خزانتي وقفت أجهز ملابسي.

ليلة العيد..

يا ليلة العيد أنستينا وجددتي الأمل فينا..

يا سعادة قلبي بليلة العيد..

في هذا الصباح لم أنم بل أنا من أيقظ المنبه، جلست في مكاننا المفضل، شاطئ الشاطبي، جلست أنتظرها، أرتب الكلمات، ما سنقوم به، ردودي على أسئلتها، وكيف أخبرها أنني تهت جدًا بعد غيابنا، وكيف فرقتنا الحياة وجمعتنا الطرق بهذه الطريقة، قلبي يخفق كلما مر الوقت، قلبي يرقص والتوتر يجتاحني، هذه المشاعر التي تجتاحني الآن لم أشعر بها منذ زمن طويل، منذ أن كنت طفلًا في مهد أيامي، عشر سنوات بالتمام والكمال على لقائي الأخير بها، عشر سنوات لم أكن إلا عابدًا يجلس على باب جنتها على أمل رضاها والسماح له بالدخول، عشر سنوات درويش يسبح باسمها ويطوف حول مقامها، عشر سنوات كل النساء ناقصات إلا هي الكاملة الوحيدة، كل النساء جميلات إلا هي الفاتنة الوحيدة، عشر سنوات كل لغات الحب ما دامت ليست لها، هي مقياس الجمال وهي قبلة كل العشاق، عشر سنوات ولا أجيد التحدث إلا معها، ثابتًا كنت طوال هذه الفترة، وقد حان أخيرًا أن أنزع قناع القوة وأظهر بضعفي أمام الوحيدة التي رأتني وأنا في قمة ضعفي، عشر سنوات وأنا أقف هناك عند الرصيف الذي شهد رحيلنا، والآن حان الوقت لأتحرك قليلًا، لأتنفس الصعداء، لينتعش صدري بهوائها أقصد بالحياة، كيف مضت هذه المدة الطويلة؟، لا أعرف، كيف ظل قلبي يتعبد في ملكوتها كل هذه السنوات؟، لا أعرف، ما أعرفه أنني عشر سنوات كنت أراها العالم، كل العالم.

من بعيد رأيتها تقترب نحوي..

عشر سنوات من الغياب والآن هي تقترب نحوي..

عشر سنوات أبحث عن وجهها في كل الوجوه والآن هي أمامي..

عشر سنوات أفتش عنها والآن هي تقترب مني..

عشر سنوات أدعو الله بها والآن قد استجاب..

عشر سنوات كل الانتصارات يضعفها هزيمة، والآن كل انتصاراتي أمام عيني..

عشر سنوات كل لحظات الفرح ينقصها لحظة فرح، والآن كل الأفراح أمامي.

كانت تخطو على الرمال الناعمة بقدميها، يا حسن حظ الرمال الناعمة التي تخطو عليها، ترتدي نظارة شمسية ويا سوء حظ الشمس المحجوبة عن رؤية عينيها، ترتدي فستانًا واسعًا

أشبه بجميلات الأنمي، ويا حسن حظ الهواء الذي يلمس جسدها، ترمق بالنظر يمينًا ويسارًا فتعطي قيمة وجمالًا لكل شيء تنظر له، تعيد إحياءه من جديد، هي تمشي نحوي وتمشي معها ذكرياتي وأحلامي وأمنياتي ودعواتي، تمشي نحوي وتعود الحياة لروحي وقلبي رويدًا رويدًا.

ما أن وصلت حتى وقفت أمامها، ارتعش جسدي، توترت لكنني تظاهرت بالثبات، كنت أرتدي الملابس الرسمية الكلاسيكية، عادتها لا تستطيع قضاء ولو ساعة إلا بعد أن تعلق وتسخر وتتنمر.

ملابس كلاسيكية في موعد صباحي على الشاطئ، اختيار مثالي يبدو من الفنان المشهور..

نظرت إلى ملابسي وقلت:

- يبدو أنه قد فاتني بعض التفاصيل.

ضحكت، ثم جلست وخلعت نظارتها الشمسية، ثم وجهت عينيها نحوي:

- شيئان يقتلان الرجل، الرصاصة وعين امرأة أحبها.

كانت تتحدث، وصدقني لا أتذكر حديثها، لا أتذكر إلا أنني غرقت في عينيها كما لو أنني أراها للمرة الأولى، ما زلت أتذكر أنني كلما نظرت إلى عينيها، رأيت الكون حولي، عيناها نافذة للفضاء أرى كل الألوان فيها، بحار، جبال، أنهار، وسماء صافية، النظر لعينيها بوابة لحياة وعالم آخر يجعلك تتوه في تفاصيله.

قاطعتني بدلال وهي تعرف كل المعرفة أنني الغارق في عينيها:

- وكيف مضت الأيام معك؟

ابتسمت:

- لا أتذكر منها إلا أنني قضيت أيامي أنتظر هذه اللحظة.

- ظننت الشهرة كفيلة أن تجعلك تنسى قصتنا؟

قلت:

- وظننت أنني لن أعود للغرق في عينيك.

ضحكت بدلال وخجل:

- كثيرًا هم النساء اللاتي عاشرتهن؟

أجبت:

- واحدة فقط أحببته..

- أتخبرني أنك قضيت أيامك معتكفًا في غرامي؟

- امرأة مثلك تستوطن القلب، أقوى من النسيان، والله ما هممت للصلاة إلا ودعوت لك، وما رفعت يدي للسماء إلا ودعوت أن يجمعني بك، والله ما أعجبني مكان إلا وتمنيت وجودك، وما حققت من مجد إلا وتمنيت أن تكوني بجواري، وكل أرض واسعة ضاقت بي في غيابك، كل شمس مشرقة داعبت جسدي ما كانت إلا ظلامًا في قلبي، وكل لحظات فرح عشتها بعدك ما كانت إلا عزاء في قلبي، مررت من كل الشوارع التي شهدت على خطانا عسى أجد أثر خطاك فيطمئن قلبي أنك ما زلت تتذكرين شوارعنا، أراقبك من بعيد وأحسد كل المقربين منك وأقول لو تعلمون النعمة التي تنعمون بها الآن وانتم تتحدثون معها في أي وقت، لو تعلمون نعمة أن تلتقوا بها، لو تعلمون نعمة أن تكونوا بجوارها الآن، والله ما تمنيت في الدنيا أكثر ما تمنيتك، وما أحببت أكثر ما أحببتك، كنت وما زلت أول دعائي، أحلامي وأمنيتي.

- لو كنت شاعرًا ربما كنت نجحت أكثر من التمثيل.

ضحكت من ردها، ثم بدأت تتحدث عن حياتها، أحب طريقتها في الكلام، طريقة شرحها ووصفها للأشياء، حين تتحدث عن حياتها تتحدث بكل شغف وأمل، تلمع عيناها وتتحدث بحماس طفولي، كما لو أنها ابن العشر سنوات، ظلت تحكي عن حياتها، وكيف سارت الحياة معها.

- كنت أراقبك من بعيد يا ياقوت، أراك وأتابع أخبارك وكلما ذكر أحدهم اسمك أقول لنفسي "هذا ابني وحبيبي"، أبتهج كلما سمعت عنك أخبارًا جديدة عن إنجازاتك وخطواتك، وأذهب للسينما لمشاهدة أفلامك، كنت أسمع عائلتنا يتحدثون عنك وفور وجودي يتجنبون ذكر أي شيء وكأنهم يريدون عزلي عن أخبارك، لكنني كنت أتابعها وأعرفها، حتى حين غادرت مصر شعرت بالغضب الكبير مما حدث معك، تمنيت لو قتلت المنتج الوغد الذي حطم حياتك، في هذه الفترة تمت خطبتي ولا أخفي عليك خبرًا، لقد حاولت التعايش مع الخطبة، كان رجلًا لطيفًا وشخصًا ناجحًا، لا أنكر لقد حاول إسعادي بكل الطرق الممكنة، لكنني كنت امرأة سيئة، قلبي معلق بك ولا يقدر على استقبال أي مشاعر من أي رجل سواك.

- تظاهرت أنك تعيشين قصة حب عظيمة يا أيلا؟

ردت:

- لتنسى أمر عودتنا يا ياقوت، لتنسى فكرة عودتنا، لأنها أبعد من الخيال، أنا أعرف معنى أن تتشبث بالأمل وتقضي حياتك على حلم أقرب للخيال.

- حاولت التحدث معك أكثر من مرة ولم أجد منك إلا القسوة.

- كنت أقسو عليك وأنا أبكي يا ياقوت، كنت أريدك أن تفهم أننا لن نعود، مهما حدث ومهما فعلت لن نتقدم خطوة جديدة في أمرنا، كتب وحتم علينا الفراق يا ياقوت، شئت أم أبيت، تقبلت أم تمردت، رفضت أم رضيت، نحن طريقان لن نلتقي أبدًا ومهما جمعتنا الدنيا، كنت أقول إنني نسيتك وتجاوزتك، بينما صورتك لا تفارق حضني في كل ليلة، كنت أقول إنني لم أعد مهتمة بأمرك بينما اسمك وأخبارك أول اهتماماتي في الحياة، كنت أقسم لك أننا لن نعود، بينما أرجو الله أن تعود، أقول إنني لست مهتمة بك ثم أرى حفلاتك وتكريماتك فأتخيل نفسي معك وبجوارك، أشاركك كل هذه اللحظات والإنجازات وأقول لك "ها قد حققنا أحلامنا"، أعلم بالأحداث الحزينة التي مرت عليك فأتمنى لو كنت بجوارك، أهون وألطف عليك الدنيا لأنني أعلم أنك تحتاجني في هذه اللحظات، أعانقك وأقول لك لا تقلق سيكون كل شيء على ما يُرام، يتألم قلبي حين أشعر أن فتاة أخرى اقتربت منك، تأكلني الغيرة وأتمنى لو كان بإمكاني قتلها، لكنني أمامك أتمنى لك حياة سعيدة تليق بك، كنت أبكي كلما شعرت أو علمت أو رأيت صورة تجمعك بأي فتاة، أسبها وألعنها وأسخر منها وأشتمها، وأقول مسكين لن يجد مثلي، ثم أحسدها لأنها بجوارك، تلمسك وتعيش معك، وتنعم بوجودك، ثم أقول لك أرجوك حافظ عليها، كنت أريد أن أقول لك أنه ومهما حدث لن نجتمع أبدًا، ولو صرنا وحدنا في الدنيا لن تجمعنا الحياة في بيت واحد.

بدأ كلامها يضرب سهامه في قلبي، اختفى اللون الوردي الذي ساد عالمي وعاد الرمادي؛ ليعلن سيطرته من جديد، لكن سرعان ما واصلت لتعطيني قبلة النجاة:

- لكنني تعبت من التمثيل والكذب، وبعد كل هذه السنوات أردت أن أريح قلبي بما يهواه، حياة واحدة وعمر واحد، ماذا لو حطمت كل هذه الأفكار؟، لو أننا حاولنا مرة أخرى عسى أن تبتسم لنا أقدارنا.

أعادتني بكلماتها للحياة من جديد، لقد رأت هذا في عيني فواصلت:

- والآن عليك أن تحاول من جديد، تنهض من هذه الانتكاسة وتعود من جديد؛ لتستعيد ما فاتك، الآن عليك العودة لأجلنا.

كنت في حالة صدمة من كلماتها، سعادة مغمورة بالصدمة والحزن والرهبة.

- لنتزوج يا ياقوت، لنحقق أحلامنا في الحياة معًا..

بمشاعر ممزوجة بالحب والخوف سألتها:

- ماذا عن والدك؟

قالت:

- سنحاول معًا، هذه حياتنا وتستحق المحاولة.

"وقابلته نسيت إني خاصمت، ونسيت الليل اللي سهرته، وسامحت عذاب قلبي وحيرته".

مر الوقت أسرع مما أتخيل، ثلاثة ساعات تمنيت فيها أن تتوقف الأرض على الدوران، تتوقف عقارب الساعة، أو ينتهي العالم عند هذه اللحظة.

لمسة يدي بالخطأ أو متعمدة لا أعرف لكن الشعور الوحيد الذي انتابني هو أنني لا أريد العيش بعد هذه اللحظات، آآآه لو كانت حياتي تتوقف عند هذه الساعات، ما أن لمست يديها حتى انتفض جسدي، بدا وكأنها روح أعادت إحياءه.

انتهى اليوم سريعًا، بينما كنت أمشي في الشارع لا على الأرض، بل كنت أشعر أنني أحلق في السماء، ما أن وصلت البيت حتى لاحظ الجميع سعادتي، الحب هو أفضح الشعور، لا يمكنك إخفاءه مهما أنكرت ومهما حاولت ومهما كنت ممثلًا بارعًا، حين تقع الحب فأنت رغمًا عنك تبتسم كلما مر اسمك المحب على بالك، تغمض عينيك وتتذكر لحظاتكم الحلوة معًا فتضحك لمعة عينيك، كلما ضاقت بك الدنيا تتذكر لقاءك به فتشعر بالهدوء والبراح لأنه ومهما كان الضيق الذي تشعر به سيزول وستنعم ببراح عيون المحبوب.

سألني أخي عما حدث، أخبرته أننا عدنا.

- من.. أيلا؟

قلت: نعم.

كانت طريقته حادة جدًا وهذا ما لم أفهمه وقتها، أخبرته بما حدث خلال اليوم وأنني انتظرت هذا اليوم طويلًا، فقال وهو يستمع لي باهتمام:

- ياقوت، أنا أحبك لكن المعذرة، زواجكما أمر مستحيل، أتمنى أن تخيب ظنوني.

لم أكترث كثيرًا لرأيه الذي لم يختلف كثيرًا عن رأي أمي، التي كانت تؤكد أننا لن نتزوج

مهما حاولنا، فجأة أصبحت أقف متحديًا ظنون الجميع، وكانت عودتنا رائعة.

عشت معها سنتين في محاولة إعادة إحياء كل الأشياء التي تحطمت، أيلا حيث تكمن في عينيها الحياة، موطن كل الأشياء الجميلة، ومعنى الدفء والحب والرومانسية، أيلا حيث إنها الوحيدة التي أنتمي لها من البشر، هي مدينتي وحبيبتي، أيلا حيث كل أرض تخطوها هي أرضي، كل الأشياء التي تحبها أحبها، كل الأشياء التي ترفضها أرفضها، كل الأمنيات التي تتمناها هي أمنياتي، وكل الأشياء التي تبغضها أبغضها، أيلا حيثما توجد أنا أوجد، هي وجهتي وضالتي وإيماني بالحياة.. سنتان من الهدوء والسكينة، تلك الفترة التي نسيت كيف تعاش، سنتان لا توجد مشكلة واحدة يمكننا الحديث فيها، علاقتي بأيلا هي علاقتي بالحياة، بالسعادة والهدوء وراحة البال.

مر كل شيء هادئًا ومثاليًا كعادة علاقتنا، كان يجتاحني بعض الخوف، كلما تذكرت أن بإمكانها العودة إلى أفكارها القديمة، إيمانها القديم بأننا لن نتزوج، ربما شعورها باليأس أو الملل، أو تعيد حماقاتها وترحل عني في منتصف الطريق تمامًا مثلما فعلت قبل عشر سنوات.

من حين لآخر كانت تطمئني، من حين لآخر كانت تقول "لن أستسلم هذه المرة"، بل كانت تقول إنني أنا من سأرحل عنها هذه المرة، كنت لا أستوعب ردها بأنني أنا من سيختار الرحيل عنها، كيف أرحل عمن علمتني معنى الحب والحياة، علمتني أبجديات العالم.

اتفقنا على موعد زيارتي لوالدها من جديد، وقبل اللقاء المنتظر بيوم واحد جلسنا في مكاننا المفضل والخوف والقلق يغمران قلوبنا، الشمس تودع سماءنا وسيل أسئلة جديد يبدأ يُداعب رؤوسنا والكثير من المخاوف، نسمات الهواء الباردة تزين ملامحها النعمة.

- ماذا لو لم يوافق يا ياقوت؟

قلت: سأحاول مرة أخرى إن أردت ذلك.

- ولو رفض للمرة الثانية؟

- سأحاول للمرة الثالثة، إن أردت ذلك.

- ولو رفض للمرة الثالثة؟

- سأحول للمرة الرابعة، إن أردت ذلك.

- ولو انتهى الأمر بالرفض الكامل، وتزوجت من رجل غيرك؟

- سأنتظر حتى يشيب رأسك وتسقط أسنانك وتصبحين امرأة عاقر، يمل منك زوجك

فيطلقك، وحينها ستكون فرصتي للزواج منك.

ضحكت بدلال:

- لن أصبح عجوزًا أبدًا..

تنهدت ثم قالت وهي تنظر للقمر الذي بدأ في الظهور:

- لا أريد صراعات جديدة يا ياقوت، أتمنى أن يوافق أبي على زواجنا وينتهي الأمر في هدوء وسلام..

سألتها:

- وإن لم ينته هل ستبقين معي حتى أحاول مرة أخرى؟

مسكت يدي بقوة وشدت عليها:

- سأحاول معك حتى النهاية.

واصلت أيلا:

- ما كان يمنعني طوال هذه السنوات عن عودتنا هو شعوري أن الحياة لن تكون رحيمة معنا، لطالما زاد هذا الشعور ولطالما قاومته، لكن ألم تلحظ شيئًا يا ياقوت، إننا لم ننجح في حياتنا ما دمنا معًا.

سألتها باستغراب عما تقصده فواصلت:

- يعني أن كلًا منا حاول النجاح في وجود الآخر، لكن هذا لم يحدث إلا بعد أن افترقنا، لم تتحقق أحلامنا إلا بعد أن انتهت علاقتنا، رغم كل محاولاتنا أن نحقق هذه الأحلام ونحن معًا، لكن كانت الدنيا تبتسم لنا حين نفترق، وتكشّر عن أنيابها حين نعود، ربما لا تفهم ما أقصده لكنني أخشى أن تكون الحياة قد وضعت علاقتنا رهن تحقيق أحلامنا، إما البقاء معًا وإما تحقيق أحلامنا، مفترق الطرق الذي أخشاه طوال حياتي يا ياقوت، كل منا بطل في غياب الآخر، كل منا ناجح في غياب الآخر، الدنيا وكأنها تطبق علينا مبدأ أنها لا تعطي للمرء كل شيء في الحياة، وما أشعر به هو أن الحرمان الذي لا بد أن يعيشه الإنسان في حياته، اختارته الدنيا أن يكون الحرمان من زواجنا.

- كلمات كانت في غاية القسوة والحزن، شعور راودني كثيرًا لكنني مثلها قاومته.

قلت محاولًا التماسك:

- لو لم نتزوج ستتحطم حياتي، لن أقدر على الحب مرة أخرى، ولن أستطيع الوثوق في أي شخص، أنت مهد الحب ونهايته وأحلامي، لن أقدر على مواصلة كل الطرق التي سلكتها، ستكون هزيمتي مدوية، هزيمة عشر سنوات يا أيلا، ربما لن أتعافى منها أبدًا.

ابتسمت ولأول مرة أرى الضعف في عينيها:

- لقد قلت لك في السابق إن الشهرة ستنسيك علاقتنا، وقد خابت توقعاتي لكن دعني أقول لك إنك لن تتحطم إن لم نتزوج، أنا من سأتحطم، أنا من سينتهي بي المطاف بالزواج التقليدي من رجل اختارني لأنني جميلة لم يراني وأنا طفلة، لم يراني وأنا مهللة وضعيفة وبائسة، ستواصل حياتك يا ياقوت هذه المرة، أنا متأكدة أنك ستنجح في هذا، لأنك تعلمت من درسك القديم، ولأنك لا تعرف القوة الكبيرة التي اكتسبتها بعد كل هذه التجارب.

وضعت رأسها على كتفي وواصلت:

- أتمنى ألا يحدث كل هذا، أتمنى أن تمر الأمور بخير.

مرت ليلة في غاية القلق، تخيل بعدما انتظرت النجمة التي ظللت أتأملها سنوات، فجأة قد تختفي لكن هذه المرة للأبد فالآن لقد تجاوزت الثلاثين ولم يعد العمر يسمح لمزيد من الانتظار، تخيل النجمة التي ظللت تتأملها كل هذه السنوات قد اقتربت منك وداعبتك وفجأة قد ترحل عنك، طاردت كل هذه الأفكار السلبية من رأسي، شيء واحد كان يطمئنني، هو دعم أخيها الأصغر وصديقي "عمرو" لموقفي، حتى والدتها أكدت أن الوالد لن يمانع هذه المرة، بالفعل طلبت والدها على الهاتف وأكدنا على بعضنا موعد اللقاء.

في الطريق اتصلت بها:

- أنا أحبك يا أيلا.

ردت محاولة إخفاء صوتها الباكي:

- أثق أنك ستنجح في إقناعه.

كانت خطواتي بطيئة لكنني وصلت مكتبه، عشر سنوات من الغياب، خرجت من هذا المكان وأنا منكسر ومهزوم ومطرود، والآن أعود لوالدها بطلًا وناجحًا ومشهورًا، خرجت من مكتبه قبل عشر سنوات وأنا لا أناسب طموحاتهم، والآن أعود وفي داخلي يقين أنني لا أرفض، خرجت من هذا المكتب وأنا شخص فاشل بلا طموح، واليوم أعود بعد سلسلة نجاحات يشهد بها الجميع.

ما أن رأيته حتى ابتسم في وجهي، لهذا الرجل هيبة ورهبة لا يمكن الوقوف أمامها، طلبنا

القهوة من عامل المطبخ في المكتب، ثم بدأ حديثنا عن الدنيا، أحوالها والمتغيرات التي حدثت في الثقافة والفن، عن الأحداث التي مرت علينا، لم يخف متابعته لنجاحاتي ولم ينكر افتخاره بي، ظللنا نتحدث عن كل الأشياء التي حدثت خلال هذه الفترة، عدا الشيء الوحيد الذي جئت لأجله "طلبي زواجي منها"، ما أن عبرت عن طلبي حتى ابتسم وقال:

- أسمعني يا ياقوت، أعرف أن رغبتك لم تتغير طوال هذه السنوات، وأعرف أنك أكثر شخص أحبها في الدنيا ولن أجد شخصًا مثلك يحبها مثلما أحببتها، أعرف أنك جاهدت طوال هذه السنوات للفوز بها، وأعرف أن رغبتك لم تتغير رغم كل ما مررت به، وأنه لا ذنب لكما أن تدفعا ضريبة أخطاء العائلة القديمة، لكنك تعلم تمامًا يا بني أن ميثاق عائلتنا لن يتغير مهما حاولت.

- أليس من الظلم أن ندفع ثمن ميثاق عائلة لم نضعه؟

ابتسم:

- ظلم بين وواضح، ولو كان بإمكاني لكنت أول من أخلف هذا الميثاق، لكنني المسؤول عن العائلة، وأول من يقوم بالتضحية هو أكبرهم حتى يحترم الصغير هذا الميثاق.

- أنا فخور بك، أنت شخص صنعت وبنيت نفسك بنفسك ومثال يقتدى به في القوة والكفاح، لكن مع الأسف كل ما حققته لم ولن يكون كافيًا للزواج من أيلا.

- أعتذر عنك لكن هذه هي الحقيقة لطالما تمنيت أن يكون ابني مثلك، ولطالما تمنيت أن تكون الأمور بسيطة حد موافقتي عليك أيضًا، لكن الآخر منتهٍ من عشرات السنين.

ابتسمت له ثم استأذنت منه وخرجت من المكتب، وقبل أن أخرج قال:

- ياقوت، أنت ممتن كثيرًا لي..

استدرت له فواصل:

- لأنني أعطيتك أهم درس في حياتك "التواضع" لم تعد ذاك الشاب المتهور المعتز بنفسه وذاته ومؤمن أن بإمكانه تحقيق كل شيء ممكن، بعد هذا اللقاء ستصبح شخصًا أكثر عقلانية وتسامحًا مع ذاتك، وستتعلم أنك ومهما حاولت للفوز بكل ما تريده لن تفوز إلا بما تريده الدنيا لك، ستتعلم أن قوتك مهما بلغت قد لا تساوي قشة في قلب عاصفة، لأن قوتك ليست بالضرورة تكون القوة الهائلة بالنسبة للآخرين، صدقني بعد هذا اللقاء ستصبح شخصًا أقل عدوانية مع الدنيا، لأنك ستدرك حجم قوتك الحقيقية، وحينها ستتمهل في اختيار معاركك، ولن تستهلك في طرق لا تناسبك، أتمنى أن يحالفك الحظ وتنجح في غايتك

رد بنرجسية:

- حاولت إقناعي، لكنني كنت اقتنعت برفضها المحاولة في المرة الأولى، ومحاولاتي للمرة الثانية كانت لأثبت لنفسي أنني شخص لم يستسلم للضغوطات، حاولت، لو لم أحاول في المرة الثانية كنت سأعيش ما تبقى من حياتي في ندم يا سقراط، لكنني لم أحاول في المرة الثالثة لأنني اقتنعت أخيرًا باستحالة الوصول.

- فور نهاية علاقتنا انهالت علي العروض السينمائية من جديد، لم يكن لدي وقت لاستيعاب ما حدث، دعني أقول لك إنني عشت خمس سنوات جديدة في حالة من التخبط التام، الثابت الوحيد في كل هذه الفترة أنني لم أكن أي رفاهية للتوقف أو استيعاب ما حدث، كنت أركض كالمجانين في حلقة سباق لا بداية ولا نهاية لها، الآن أهرب من كل هذه الأحداث بالإنهاك في العمل، لقد أغلقت كل الأبواب المؤدية للحب وكرّست حياتي في التركيز في العمل، في مواصلة النجاح وصنع المجد الكبير.

- تعافيت من أيلا؟

- صدقًا لا أعرف لكنني قضيت سنوات أتجنب التفكير في أمرها، أتجنب التفكير في وفاة صديقي حسين وصديقتي فيدرا، أتجنب التفكير في وفاة أبي، حتى نهاية علاقتي بأيلا تعمدت تجنب التفكير فيها، التجاوز.. التجاوز هيا هيا نحن لا نملك رفاهية الوقوف، مضيت حياتي بكل قوة وعدوانية، كنت أنتقم من نفسي وأشغلها طوال الوقت، لم يتوقف الأمر عند التمثيل، لقد بدأت في افتتاح الكثير من المطاعم التي أصبحت واحدة من أشهر المطاعم في مصر في وقت قصير جدًا، بالشراكة مع أخي الأصغر الذي اجتهد بكل قوته حتى ننجح معًا، بدأت الأربعين تلوح في الأفق والآن حان وقت الزواج، وبدأ الضغط حولي حيث الزواج، لكن صدقًا لم أجد الفتاة التي تجعلني أحبها بتلقائيتي وعفويتي، مررت بالكثير من العلاقات لكنني لم أجد راحتي مع أي منهن، لم أجد الفتاة التي تأثر قلبي وتجعلني أتعرى أمامها بكل شيء، لقد فقدت الثقة في الجميع عدا أخي الأصغر الوحيد الذي وثقت به كل الثقة.

قضيت هذه الفترة أتجول بين شواطئ النساء لكنني لم أرسى على بر واحد، قلبي في خصومة مع الحب، هكذا آمنت، أنا والزواج لن نلتقي أبدًا، لذلك جهزت أخي لهذه الخطوة ونجحت في هذا، لينتهي الأمر عند هذا الحد.

هكذا تمنيت وهكذا قلت لنفسي، لكن الحياة لا تسير حسب رغباتنا الشخصية.

توقف ياقوت عن الحديث، كنا قد وصلنا إلى الإسكندرية بالفعل ووقفنا أمام أحد المطاعم الكبيرة المشهورة، أنا صاحب هذا المطعم، لكن لا يمكننا الدخول، أتعرف لماذا؟

سألته لماذا؟

ابتسم :

- لأنني لم أعد امتلكه الآن، هذا هو أول فروعنا، الذي تم بناؤه في سلسلة الفروع، هذا المكان شيدناه بأيدينا نحن، لكن بعد التوسع الكبير الذي حدث بدأت الضرائب تلاحقني من كل اتجاه، لذلك كان علينا نقل ملكية كل الفروع إلى أخي، لم أعط أي خيانة له فأنا أعرف وفاءه العظيم لي، غير أنني أشرت له بتوكيل عام منذ فترة طويلة حتى يدير كل أموالي الخاصة، لانشغالي الدائم بالسفر، شيء واحد كان يقلقني، زواجه من فتاة كانت تكرهني أشد كره، لطالما حذرته أن تدمر زوجته علاقتي به، ولطالما كان يسخر من الفكرة ويحدثني عن مدى حب زوجته لعلاقتنا، وأنها تدعمنا في كل خطواتنا، لكن كما يقول المثل الشعبي "الزن أمر من السحر"، أثناء انشغالي بتصوير أحد الأفلام في الخارج، وفور عودتي فوجئت بالقبض علي.

- ماذا حدث؟

- لقد تهربت من دفع قروض بـ10 ملايين جنيه؟

- أنا؟

- نعم..

- كيف حدث هذا؟

- أعطاني وكيل النيابة الأوراق التي تثبت تهربي من السداد كل هذه السنوات، كان القرض بضمان ممتلكاتي الخاصة، سيارتي، الفيلا، منزلي في الإسكندرية، منزلي في القاهرة، وحسابي في البنك. طلبت المحامي الخاص بي الذي جاء على الفور، بعد التحقيقات تحدث معي المحامي على انفراد. مع الأسف كل الاتهامات صحيحة.

غاضبًا صرخت:

- كيف حدث هذا، أين يزيد؟

رد وهو منكس الرأس:

- للأسف هو من تقدم بطلب لكل هذه القروض، وهو الوحيد الذي كان يعلم أمرها، وبنقل ملكية المطاعم استطاع مواصلة سحب هذه القروض لضمانه، إن المطاعم في أمان الآن وتحت ملكيته هو.

صدمة لم أستوعبها، ظللت أضحك والمحامي يتحدث بكل جدية عما حدث.

- أين هو الآن؟

- مع الأسف لقد غادر مصر في إجازة، ولا أحد يعلم موعد عودته.

- هل تم الحجز على المطاعم؟

- لا..

- من يدير المطاعم الآن؟

- زوجته.

إجابات كلها صادمة وسريعة ومباشرة، كانت تضرب في قلبي ورأسي وعقلي..

كان الأمر أشبه بمريض بين الحياة والموت، ولا حل في إيقاظه إلا إنعاشه بالكهرباء، عقلي بدأ يستوعب كل ما حدث وما فاته.

يزيد هذا أخي الذي أحببته من كل قلبي ووثقت به بعدما خذلني العالم، وفجأة أصبحت سجينًا خلف القضبان، تم الحكم عليّ بعشرين عامًا، سأكون كاذبًا لو قلت لك إنني أتذكر أي يوم منهم، لكن ما أتذكر أنني لم أكمل خمس سنوات في السجن، تم خرجت بعدما سدد يزيد ما تبقى من سنوات السجن، لم نتحدث مع بعضنا البعض كان المحامي هو الوسيط بيننا، لقد أعاد لك الفيلا والسيارة لكنك لا تملك أي نسبة في المطاعم، ماذا عن حسابي البنكي؟ رصيده صفر.

لم يحاول التواصل معي ولم أحاول التواصل معه، عدت لفترة قصيرة وقبلت بأي دور يقابلني لأجمع بعض الأموال التي تساعدني على العيش، لكن بدأ عقلي في التلاشي، لا أتذكر أي مواعيد، تجتاحني نوبات من الذهول المفاجئ، أصمت لساعات، أميل للعزلة ساعات أكثر، عقلي لا يتذكر إلا أحداثه القديمة، بل ويتعايش معها بكل سلام نفسي، تجاوزت هذه الاضطرابات كعادتي وقاومت حتى أجمع المال الذي يكفيني للعيش، جمعت ما يمكن جمعه وبدأت فكرة الاعتزال تراودني، فعقلي بدأ يتلاشى وينهار رويدًا رويدًا وبدأت أفقد تركيزي مع الوقت رغمًا عني، أخذت قرارًا بيني وبين نفسي أن يكون قرار الاعتزال آخر أيام السنة.

طلب ياقوت من السائق التحرك إلى شاطئ الشاطبي، انطلق السائق إلى هناك.

خرجنا من السيارة ودخلنا الشاطئ..

استقبلنا العامل استقبالًا حافلًا..

- سيد ياقوت من سنين لم تشرفنا بزياراتك..

ابتسم ياقوت ثم أعطى له خمسين جنيها ودخلنا الشاطئ، في لمح البصر كانت الطاولة بالكراسي، كل شيء جاهز وعلى اتم استعداد لاستقبال الممثل العجوز.

قال ياقوت وهو يتابع غروب الشمس:

- في هذا المكان وقبل أن أعلن اعتزالي بيوم واحد، كنت أجلس هنا أتابع غروب الشمس، بينما سمعت صوت أم تنادي على ابنتها "آية"، أكره ضجيج الأطفال وأكره أصواتهم المزعجة، خصوصًا في اللحظات التي يهربون فيها مع أمهم، اقترب الصوت أكثر فأكثر والأم تنادي بغضب، فجأة تعثرت الصغيرة بي فساعدتها على النهوض، كانت طفلة في غاية الجمال، عيناها واسعتان، شعرها أسود، وملامحها في غاية البراءة، قبّلت يديها ثم سمعت صوت خطوات أمها تقترب..

- "أعتذر لك يا أستاذ."

- لا داعي للاعتذار، ما شاء الله ابنتك جميلة..

نظرت إلى السيدة..

- أيلا!

نظرت إليها بتعمق وصدمة..

لقد كبرت، لم تعجز كما عاهدتني، أكثر من خمسة عشر عامًا ما زالت كما كانت ابنة العشرين.

بادلتني النظرة والصدمة..

صمت لثوانٍ معدودة..

حتى جاء صوت رجل من بعيد يقترب منا..

أعتذر لك سيدي..

ابتسمت له:

- لا داعي للاعتذار، ربي يحفظها لكم..

بيديه اليمنى مسك ابنته، واليسرى وضع يديه على كتف زوجته "أيلا".

استداروا ثم ابتعدوا، ظللت أتابعهم، هي أيلا، نظري لن يخطئ أبدًا، قلبي يعرفها قبل

عيني، لقد تزوجت وأنجبت ربما تكون آية هي ابنتها الثانية، ظللت أتأملهم، وهم يبتعدون عني، في الوقت نفسه رن الهاتف.

- ألو سيد ياقوت، أحد المخرجين يطلب منك الحضور للقيام بدور بطولة في أحد أفلامه..

- المعذرة! أخبر الجميع أنني اعتزلت العمل.

أغلقت الهاتف في وجهه، ثم ضحكت وأنا أسمع أم كلثوم تقول:

- "وغدًا ستجمعنا أقدارنا بعدما عز اللقاء".

ثم اجتاحتني نوبة ضحك.

ضحكت على الدنيا..

لأنها لا تعطيك كل شيء، ولا تسلب منك كل شيء..

لأنها تعطيك ما تريده هي حتى لو كنت ترفضه..

وتُجبرك على تقبل الأشياء مهما بدت صعبة بالنسبة لك..

ضحكت على الدنيا..

التي كلما حاولت فهمها اكتشفت أنك لم تفهم حرفًا واحدًا من لغتها..

لأنها تغير المقادير والأقدار والمعطيات حسبما تريد..

ضحكت على الدنيا..

لأننا كلما أنجزنا فيها خطوة فاجأتنا بألف خطوة جديدة لا بد من اجتيازها..

لأننا كلما ظننا أننا وصلنا بر الأمان اكتشفنا أننا لم نصل للشاطئ من الأساس..

ضحكت على الدنيا..

التي تُجبرك على الرضا بما لا ترضى، وتُجبرك على الصبر بما لا تحط به خبزًا، وتجبرك على الفقدان بما يتمنى ويشتهي قلبك..

عاد ياقوت لصمته بينما كانت الشمس تغرب تمامًا..

"كم تمنيت لو كانت الحياة أخف علينا."

قالها وهو يشعل سيجارته ثم واصل:

- وأعلنت اعتزالي لأنني فهمت الدنيا بكل ما فيها، والدنيا بكل ما فيها لا تسوي في عيني حبة ذرة، قررت أن أعيش ما تبقى من حياتي في زهد تام، حتى أدوية الذاكرة والاكتئاب لم أتناولها، عقلي الذي أستحمل سنوات من التفكير والضغط، كيف أقاوم انهياره، ألا يحق له الانهيار بعد كل هذه السنوات من الضغوطات والتجاوز، تلاشت الذكريات من عقلي رويدًا رويدًا، حتى إنني فقدت أغلق ذكرياتي عدا الذكريات التي أنتمي لها، الأحداث التي أثرت في روحي وقلبي، تلك الذكريات التي كنت أعرف أنها أقوى من النسيان..

نهض ياقوت من مكانه ثم تحركنا ناحية السيارة حتى انطلقنا..

سألته:

- لو كان هناك سبب للانتحار فلماذا ستتخذ هذه الخطوة؟

أجاب:

- بالهجوم الذي يحدث في رأسي وقلبي، قد لا تفهم ما أقصده، لكنني مجموعة قرارات وأحداث متراكمة، مشاعر مؤجلة، كلها تجتمع أحيانًا، لتجعلني أشعر بكل اللحظات التي مررت بها، كل الحزن الذي أصابني، حتى رغباتي الانتحارية وقتها، لقد كان خطأي الأعظم هو التجاوز، التجاوز فوق طاقتي حتى تهالك قلبي وعقلي تمامًا، أنا مجرد جسد يتحرك، تلاشت قوتي وسيطرتي على نفسي وفي الكثير من اللحظات أشعر أنني قاب قوسين أو أدنى من الانتحار..

- هل يقتل الإنسان نفسه بالذكريات؟

أجاب:

- نعم، الذكريات والحنين والاشتياق والندم والخذلان حين تجتمع في قلب وعقل شخص واحد من السهل جدًا أن يقتل نفسه في لحظة لا وعي، الرغبة في الخلاص والهروب من كل هذه المشاعر كفيلة أن تدفعك للخلاص رغمًا عنك..

- لكنك لا تريد الموت يا ياقوت؟

- أنا لا أبحث عن الموت هذا هو الفرق، لكنني لست بعيدًا عنه، ما دمت لا تسيطر على نفسك فأنت لا تملك أي قرار عليها.

هنا عاد صوت عبد الوهاب في الراديو وهو يقول:

- "أنا راح زماني هدر ومكنش عندك خبر".

ظل ياقوت يردد المقطع ثم قال:

- الخطأ العظيم الذي ارتكبته في شبابي، كان انتظار الأشياء المدللة، لقد أضعت من عمري سنوات أنتظر معجزة تتحقق وتعود علاقتي بأيلا، لقد جلست سنوات على بابها منتظرًا العفو منها، لقد أضعت من يدي الكثير من الفرص الحقيقية التي كادت تغير حياتي للأفضل، أشخاص كانوا على استعداد للتضحية بكل شيء من أجلي، سنوات من عمري ضاعت متمسكًا بخيط ضعيف من الدخان، عسى تحن الدنيا وتعطيني ما أنتظره، كان بإمكاني تجاوز أمر علاقتنا كما لو يتجاوز الجميع، التعايش مع الوضع ومنح فرص لكل شخص يحاول الاقتراب مني، لكنني عشت راهبًا لها رغم كل ما حققته كنت أرى أن علاقتي بها القطعة الناقصة ليكتمل سياق حياتي، لقد أفسد الانتظار لحظاتي الحلوة، لقد أفسد الانتظار كل النتائج العظيمة التي حققتها بل وأصبحت أراها عادية، بل أقل من العادية لمجرد أنني أنتظر نجمة بعيدة جدًا عني، ونسيت أن كل شيء في الدنيا يمكن تعويضه إلا العمر، ونسيت أنه ليس على الإنسان إلا المحاولة والرضا بما كتب لك، سنوات من النزال في معركة لم يكتب لي فيها النجاح، سنوات من الركض في طريق كنت أعلم أنني لن أصل لنهايته أبدًا، وحين تندفع في طريق واحد لا ترى ولا تهتم بكل الفرص التي تتيحها لك الدنيا لعيش حياة أفضل، لأنك وبسذاجة إنسان عنيد رفض أن ينظر لما تحت قدميه وظل متعلقًا بالنجمة البعيدة جدًا عنه، فلم يتذوق لذة دفء ما يملكه ولم يستطعم كل إنجازاته، وفي نهاية المطاف لم ينل جزاء صبره وإيمانه بأن باب الجنة سينفتح له مهما طال الانتظار.

- لكن أنت من قررت الرحيل، لم تحاول حتى إقناعها مرة أخرى بالمحاولة؟

- لأنني أدركت في هذه المرحلة أن القرارات العقلانية هي الأسمى لمواصلة حياتي، حينها أستوعبت أن عشر سنوات وأكثر ضاعت هباءً والسبب أنني كنت أنصت لقلبي، أنصت لما يشعر ويريده، رحلت لأنني أدركت أن نصيبي في الدنيا هو النجاح، الشخصية القوية، تحمل الصدمات، كلها مميزات لا يملكها البعض، كلها مميزات يحسدني الجميع عليها، وكلها مكاسب حقيقية، أدركت أن نصيبي في الدنيا منها كل شيء إلا كل شيء، أقصد أنني أدركت أنه مهما كانت محاولاتي لن أفوز بما أريد ولو اجتمع أهل الأرض والسماء "هي ليست لك"، بهذه البساطة، كان بإمكاني المحاولة مرة أخرى لكن سنوات من المحاولة والنتيجة صفر بكل صدق، واجهت نفسي بالسنوات التي ضاعت على أمل الفوز بها، واجهت نفسي وأدركت أنني فاتني قطر الحب، فاتني قطر التجاوز، فاتني قطر التأقلم، وفاتني قطر العمر نفسه، ذاك الذي لا يعوض أبدًا، رحلت لأنني أدركت أن محاولاتنا ما هي إلا قبلة على جبين جثة هامدة لا قيمة ولا فائدة لها، بل ندمت أنني قضيت كل هذه السنوات، وكان علي اتخاذ قرار مصيري

إما مواصلة البقاء والتمسك بالأمل وإما الاعتراف أنها لن تكون معي مهما حاولت، لقد اخترت النجاة بما تبقى من عمري حتى لو كانت النجاة مبتورة القلب والرغبة والأمل، لكن أهون عندي من مواصلة التآكل من الأمل، الأمل مؤذٍ أيضًا يا سقراط.

سألته سؤالًا آخر:

- رغم كل ما حدث في حياتك، ورغم اختلافي معك في بعض النقاط، إلا أنك كنت تحاول طوال الوقت، ألا ترى من الغريب أن يكون شخص ممتلئًا بكل هذا اليأس ويتملك الاكتئاب منه سريعًا، لكنه ومع ذلك يواصل السعي والركض؟

أجاب:

- ليس كل الاكتئاب يعني أنك لن تركض ولن تتحرك من مكانك، وليس كل الاكتئاب يعني أنك لن تتقدم خطوة واحدة، على العكس أحيانًا يكون الاكتئاب سببًا في الركض والسعي، أحيانًا تركض وتسعى وتحاول مكتئبًا لأنك تطارد أصعب مرحلة في الاكتئاب "الاكتئاب الأسود" ذاك الذي إن تملك منك أنهى حياتك، هو كالشبح الذي يطاردك في كل مكان، كسمكة مفترسة في قلب مسبح كبير، إن توقفت السمكة المفترسة فسيجتمع عليها السمك الصغير حتى ينالوا منها، وأن توقفت إحدى الأسماك الصغيرة حتمًا ستصبح ضحية للسمك المفترسة، كلاهما يهرب وكلاهما يحاول النجاة من الآخر، أحيانًا تنهض من سريرك وتعمل بكل قوة لأنك لو قضيت يومك على سريرك سيفترسك الكسل واليأس، أحيانًا تُجبر على الانخراط مع الناس لأنك تعلم لو اجتمعت بنفسك فحتمًا ستنال منك وتحطمك، أحيانًا تصل لقمة النجاحات لتقاوم شعور أنك لم تتقدم خطوة في روحك، تشيد أحلامك وتخفي حطام روحك، أحيانًا يدفعك الاكتئاب للشراسة في خطواتك فيظن الجميع أنك شخص قوي عنيد، بينما في الحقيقة أنت هش وضعيف، ولا تملك إلا رفاهية اختيار شيء آخر غير السعي.

telegram: @alanbyawardmsr

ناهيك أن ثمة أشخاص طبيعتهم هي السعي والركض، طبيعتهم والظروف المحيطة بهم أثرت عليهم للحد الذي جعلهم ترسًا في عجلة الدنيا التي لا تتوقف يا سراج، حتى لو تهالك الترس، حتى لو تهشمت بعض أجزائه حتى لو أصبح يعمل على ربطة واحدة، سيواصل عمله حتى يتفتت تمامًا.

في الحقيقة ورغم كل محاولاتي إلا أنني لم أحاول لأنني شخص قوي، بل كانت محاولاتي لأنني أضعف من مواجهه الاكتئاب، لأنني حينها كنت أضعف من مواجهه نفسي.

لامستني كلماته، أعرف وأفهم ما يعني تمامًا، لكن خوفًا من أن تسرقني كلمات للتفكير سألته:

- لقد عشت الكثير من اللحظات الصعبة والمتعبة، لماذا عقلك حين تضيق به الدنيا لا يستجيب إلا لتذكر سنواتك مع أيلا؟

أجاب:

- لأنها الفترة الوحيدة في حياتي التي تمنيت العودة إليها لتغيير ما حدث.

لو كان بإمكاني لعدت بالزمن حيث اللقاء الأول بها في تجمعنا العائلي، ربما اعتذرت عن الحضور أو تأخرت قليلًا أو كان لدي مواعيد مهمة تمنعني من الذهاب، وإن حدث وذهبت والتقيت بها لكنت تمنيت أن يعود الزمن حيث اللحظة التي أعجبت بها، ربما كنت قد واصلت سخريتي من النساء، التنمر عليهن أو خضعت لإعجابي بها للحظات، ثم قضيت ليلتي مع إحدى صديقاتي اللاتي أعرفهن لتنسيني إعجابي بأيلا، ولو حدث وكررت تفكيري بها لربما كنت أخذت عهدًا على نفسي ألا أعجب بها، أو أتجنب محادثتي لها، لو كان بإمكاني لما بدأت معها طريق الهوى، لكنت اقتنعت بكلمات عائلتي ونصائحهم، ومهما حدث لن تتزوجوا، لو كان بإمكاني لكنت هجرتها قبل أن تحاول الاقتراب مني، ربما كنت أقنعت نفسي منذ فراقنا الأول أن كل شيء قسمة ونصيب، تجاوزتها سريعًا ثم نهضت من جديد وبدأت في التعايش سريعًا مع الأمر وكأن شيئًا لم يحدث، ربما لو كان وافق والدها على زواجنا، لكنت أصبحت الآن جدًا لأولادي، لتغيرت حياتي تمامًا، وعشت في هدوء تام، لم حدث كل هذا معي من الأساس؟، ربما كنت سمحت لفيدرا بالاقتراب مني أكثر وتزوجنا بالفعل، أو ساعدت حسين أكثر في عودتي إلى الساحة الفنية، ربما أعدت ترتيب حياتي واتخذت الكثير من القرارات التي حتمًا كانت غيرت حياتي للأفضل، لحظة واحدة في حياة الإنسان يتغير عندها كل شيء تتغير حياته كلها، لحظة واحدة في حياة الإنسان تختلف حياته بعد ذلك، تختلف اختلافًا كاملًا وللأبد، لذلك لو كانت هناك أمنية واحدة أتمنى تحقيقها هي لحظة العودة لهذه اللحظات لغيرت الكثير من القرارات والأفكار التي حطمتني تمامًا، لو كان بإمكاني لعدت واتخذت كل القرارات التي حتمًا كانت ستكون أفضل مما قررته واتخذته، مما دفعني للوصول إلى هذه النقطة البائسة التي لا يمكنني فيها مواصلة الركض، أو حتى العودة إلى الوراء، عالق في منتصف كل الأشياء، ولن أنجو من هذا المنتصف أبدًا.

وقف السائق أمام أحد المنازل القديمة، خرج ياقوت من السيارة وقبل أن يرحل أعطاني ورقة وقال:

- اقرأها فور وصولك إلى القاهرة..

ثم وجه بصره إلى السائق آمرًا:

- أعيده إلى منزله في القاهرة..

صعد ياقوت إلى المنزل القديم..

بينما انطلق السائق الصامت، متخذًا طريق مصر الصحراوي.

ما أن وصلت إلى القاهرة حتى أرسلت رسالة لفرح:

- "فرح أبلغي مجدي باستقالتي، سأغادر ولن أعود إلا بعد شهرين من الآن، كوني بخير ولا تنسي الاهتمام بشرف الدين".

عدت للمنزل وأعددت حقيبة السفر متوجهًا إلى مدينة دهب..

وقبل أن أخرج من المنزل فتحت الورقة الأولى التي أوصاني ياقوت بقراءتها..

"من رجل عجوز إلى شاب في مهد رشده، هذه نصائحي لك..

لا تندفع في الحب لكن أن قررت الحب فكن مخلصًا لمحبوبتك واعطها كل ما يغنيها عن العالم، لا تضيع أيامك في العمل لكن إياك أن تبخل بأي مجهود في عملك ما دمت رضيت بالراتب وطبيعة العمل نفسه، لا تتعرى أمام أي شخص لا تثق في عينيه وأفكاره، لا تخن شخصًا وثق فيك حتى لو كنت شخصًا خائنًا، لا تراهن على بقاء أي شخص لكن حاول التشبث بهم حتى آخر لحظة ما دامت رغباتهم البقاء ومهد لهم طريق الرحيل فور إشارتهم به، لا تثق ثقة عمياء في الناس، لكن لا تضع الخيانة مبدأ في تعاملك معهم حتى لا تقتلك الظنون، لا تخض صراعات من أجل إثبات أنك شخص جيد، لكن لا تتنازل عن حقوقك مهما كلفك الأمر، لا تهرب من مواجهة الأشياء، بل كن عدوانيًا معها لكن إياك وخوض معارك لا تخصك، وحافظ على قلبك وعقلك في شبابك، فلن تدرك حجم الإنهاك الذي يصيبهم من تجاربك الخاطئة إلا بعد فوات الأوان".

ثم في ظهر الورقة كتب:

- شكرًا على كل ما قدمته لي من وقت واهتمام وإنصات، أنت شخص جيد لكنك تشبهني كثيرًا، مصاب بلعنة التفكير والتخطيط، أخشى عليك من الدنيا يا بني، لكنني أثق أنك أقوى منها، خالص تمنياتي لك بحياة هادئة.

صديقك/ أحمد ياقوت.

ابتسمت للرسالة التي كتبها خصيصًا لي، ثم احتفظت بها وانطلقت إلى موعد انطلاق رحلتي إلى دهب، هناك حيث تنتظرني الحالة الثالثة.

# الفصل السابع

"من حين لآخر يحتاج المرء للانعزال بنفسه بعيدًا عن العالم وإلا أصابه الجنون".

*مدينة دهب/ العاشرة مساءً..*

وصلت إلى ثاني المدن المفضلة لدي في مصر مدينة "دهب"، مجتمع هذه المدينة متنوع لكن يحكمه إطار واحد "الحرية" الناس هنا من كل شكل ولون وثقافة وعرق، الأغنياء الذين يفضلون هذه المدينة عن صخب شرم الشيخ والغردقة، وأبناء الطبقة المتوسطة التي تعد دهب مدينة وجهتهم المفضلة للاستجمام، وحتى أولئك الكادحين لهم نصيب في مدينة تستقبل كل أطياف المجتمع، هنا يجتمع الباحث عن الاستجمام والهدوء، مع الباحث عن العزلة والهروب من الواقع، وذاك الذي لم يتحمل مرارة العيش في المدينة فقلل العيش بأقل إمكانيات ممكنة وسط الطبيعة، دهب هي مزيج بين الكادحين، الفنانين، المثقفين، البسطاء، الأثرياء وحتى المشردين.

ما أن تخطو قدماك في دهب فأنت هنا صديق ودود للجميع، ما دمت لا تعترض حرياتهم ولا تفرض عليهم أحكامك وعاداتك، ما دمت لا تتدخل في شؤونهم فأنت صديق الجميع.

رافقني في الرحلة "حبيبة"، فتاة في منتصف العشرينات، أسست شركة سياحة خاصة بها بعد وفاة والدها وهربت من ضجيج القاهرة إلى هدوء وبساطة الحياة هنا في دهب، تعود إلى القاهرة يومان كل شهر لمتابعة بعض أعمالها المتعلقة في العاصمة ثم تعود من جديد إلى دهب، "حبيبة" فتاة في غاية الجمال، ملامحها الشرقية الجميلة، كلما تحدثت معها شعرت بالأمل، طاقتها عالية ومتجددة وشغوفة بالسياحة والسفر، فتاة تدير مؤسسة كاملة بأكثر من خمسين عاملًا وعاملة، لها مكانة لطيفة عند الجميع لاحترامها واجتهادها واستقلاليتها، ويحترمها بدو المدينة الساحلية ويكنون لها كل التقدير والاحترام.

هذه ليست زيارتي الأولى لدهب لذلك أنا أعرف بعض طقوس الرحلات التي لا تتغير، البداية حيث حفل بدوي غنائي في قلب الجبل، حيث الخيم البدوية، الجلسات العربي - المربوعة - الخروف المدخن على الحطب، والشاي في كوبايات تشبه عقلة الإصبع، مع فقرات متنوعة من الأغاني العربية والبدوية وحتى الأجنبية والرقص، الرقص طوال الوقت.

وكعادتي في مثل هذه الفقرات، أجلس عند أحد الضفوف من بعيد، أتابع الأجواء من أعلى، أعيد ترتيب حياتي والأحداث التي حدثت معي، أفكر في خطواتي الجديدة وما أنوي القيام به، أعيد النظر في بعض الأشياء المتعلقة بحياتي، وأقيم بعض نتائج القرارات التي اتخذتها، ما دمت تستطيع مواجهة نفسك فيمكنك مواجهة العالم، هذا ما أعرفه جيدًا وأومن به كل

الإيمان، بينما كنت مشغولًا في ملكوتي أفكر في حياتي، سألتني حبيبة:

- وكيف حال القاهرة؟

- ما زالت كئيبة، أكثر المدن كآبة..

ضحكت:

- لن تتوقف عن كره هذه المدينة أبدًا..

- لو كانت مفضلة عندك لم غادرتها يا حبيبة؟

قالت:

- لم أغادر القاهرة لأنها مدينة كئيبة، غادرتها لأنها لم تعد تناسب طبيعة حياتي الجديدة، دعك مني توقعت أن تكون زياراتك هذه المرة مع زوجتك..

قلت:

- زوجتي؟ أظن أن هذا الأمر مستحيل، ربما أنتظر زواجك أنت أولًا..

ضحكت ساخرة:

- إذن لن تتزوج أبدًا، فأنا والزواج شيئان لن يجتمعا أبدًا..

أثناء الصمت الذي ساد بيننا، وعلى المسرح وقفت فتاة صغيرة ترقص وحدها على الموسيقى الصاخبة، اجتمعت عائلة وظلوا يتراقصون على الموسيقى، كان شكلها مميزًا وسط زحام الشباب، أب وزوجته وأولاده، مشهد عادي للجميع لم يكن كذلك بالنسبة لحبيبة، التي ظلت تتابعهم بابتسامة جميلة ثم قالت وكأنها تحدث نفسها:

- تعرف أنني أعطي خصمًا يصل لـ50% للعائلات..

- لماذا؟

- لأنني أحب فكرة أن يهتم الأب بإسعاد أولاده، لطالما رأيت أن محاولات إسعاد الأب لعائلته هي أعظم المحاولات التي يستحق الثناء عليها، خصوصًا وسط ظروف الحياة الصعبة، لذلك أستغل أي فرصة لمساعدة الآباء على إسعاد عائلاتهم.

حتى في مجالك أنت يا سقراط، رغم اختلاف المشكلات والأزمات والظروف بين الحالات أكاد أقسم وأجزم أن أغلب الحالات التي تشرف عليها ربما كانت أولى أزماتها في الحياة هي "العائلة"، العائلة كفيلة أن تظهر للمجتمع شخصًا صالحًا وسويًا، وكفيلة أن تخرج شخصًا

مشتتًا وفاسدًا ومريضًا.

قلت محاولًا استدراجها للحكي:

- إذن أنا ممتن لعائلتك..

نظرت إليّ باستغراب ثم قالت:

- لكل قاعدة استثناء، إياك أن تظن كوني امرأة ناجحة أنني ولدت في عائلة مستقرة، أنت لا تعلم مرارة أن تعلمك الدنيا كيف تصبح شخصًا ناجحًا، أنا لست ممتنة لعائلتي ولو كان الأمر بأيدي لاخترت أن أولد وأعيش حياة مختلفة عما ولدت فيها وعيشتها.

سألتني:

- لماذا عدت إلى دهب؟

قلت:

- لسببين..

السبب الأول، أنني في حاجة للهدوء والهروب من ضجيج وزحام القاهرة..

والسبب الثاني، هو إحدى الحالات التي راسلتني واتفقنا على موعد الجلسات ومن حسن الحظ أنها هنا في دهب لذلك لم أتردد في السفر.

قالت:

- والسبب الثالث الذي ظهر الآن، هو أنني سأكون إحدى حالاتك..

- لن تقدري على تحمل نفقات 10 جلسات..

قالت:

- سيكون متاحًا لك قضاء شهر كامل هنا على حسابي الشخصي..

- لم أتردد لحظة في الموافقة..

قالت:

- قبل أن نبدأ أريد أن نتفق ألا يقع أحدنا في غرام الآخر، شرط طفولي وساذج لكن أعذرني أريد أن نقطع على أنفسنا هذا الوعد.

قلت ضاحكًا:

- لا تقلقي بشأن هذا.

أخرجت من جيبي علبة السجائر، ثم صببت كأسًا من النبيذ وأعطيته لها ثم بدأت:

- العائلة هي مصدر الآلام ومصدر السعادة، إن شعرت بالآلام فيها لن تشفى، ولو تناولت كل عقاقير الدنيا، وإن شعرت بالسعادة والطمأنينة لن تتعرى أبدًا ولو تعريت أمام الدنيا، سيبقى بداخلك شعور الدفء والأمان مهما أرعبتك الدنيا بمخالبها.

- أسمي كما تعرفه حبيبة، حبيبة قاسم عبد التواب، ابنة المعلم الكبير قاسم عبد التواب، رجل له صيت في كل مكان في مصر، مكانة محترمة بين الجميع، منزل فخم، كل الرفاهيات متاحة، للوهلة الأولى تتمنى لو أنك تعيش نفس الحياة التي عشتها في طفولتي، كل شيء مثالي ورائع عدا شيء واحد ينقص هذه الحياة المثالية.

"الود"..

كانت عائلتنا لا ينقصها شيء وينقصها كل شيء، البيت الذي يملك كل شيء ولا يملك الحب هو لا يملك أي شيء، أبي كان شخصًا في غاية الجفاء، لا أظن أنني واجهت رجلًا بهذا الجفاء رغم أن أمي امرأة في غاية اللين والتسامح، تفكر طوال الوقت في إسعاده بينما يفكر طوال الوقت في فرض قسوته وسيطرته عليها وتحطيم آمالها، كنت أسمعه كل ليلة وهو ينهال عليها بالضرب بلا سبب واضح، وحين يأتي الصباح وأسألها عن سبب الخلاف، تقول إنه عاد من العمل غاضبًا ثم تبدأ في وصلة من الدفاع عنه.

"مسكين والدك، يفكر طوال الوقت في متطلبات منزلنا، في تلبية احتياجاتك واحتياجاتي، يتحمل ضغوطات كبيرة من أجلنا".

كان دفاعها عنه يثير غضبي أكثر فأكثر، رضاها عن هذا الوضع الكريه كان يثير غضبي أكثر، لم يحاول أبي الاعتداء، الحقيقة أنه كان يعاملني برفق ولين، يسعى لتوفير كل متطلباتي، لكن معاملاته القاسية لأمي جعلتني أرفض معاملته، كنت أستقبلها منه لتجنب أي أذى منه لكن في نفسي كنت أرفضها كل الرفض، لأبي قواعد لا يمكن كسرها أو تخطيها أولاها أن يعزلني عن العالم، في مرحلة المراهقة كنت محاطة بهالة تمنعني من الاقتراب من أي شخص، تمنعني من التنزه وحدي، تمنعني من المغامرة في أي شيء، هو أو أحد رجاله يتتبعاني في كل خطوة، في البداية شكوت لأمي من أسلوب الحياة المملة أشبه بحياة السجناء، كان مبررها الوحيد أنه يخشى عليّ من الأذى.

قضيت فترة في هذا السجن الكبير، لا أفهم السر وراء هذه الاحتياطيات الأمنية المبالغ فيها، بدأت مرحلة الثانوية العامة والاحتكاك أكثر بالمجتمع والناس، لاحظ أصدقاء الفصل

أنني منعزلة بطريقة أو بأخرى عنها، فأنا لا آتي إلى المدرسة إلا بسيارة خاصة، لا أتوجه إلى دروسي الخصوصية إلا بسيارة خاصة، ولو كان هناك احتفال أو حفل في المدرسة فأنزل من السيارة إلى الحفل وأعود فور الانتهاء إلى السيارة حيث العودة إلى المنزل.

كان كل شيء مملًا وسخيفًا حتى بدأ بداخلي شعور الرغبة في معرفة الحقيقة، بدأت أنتبه أكثر لتصرفات أبي، تحركاته، طباعه الصعبة، تفاصيله، شخصيته الطاغية التي تدير المنزل وتفرض زمام السيطرة علينا، في هذه الفترة تحديدًا اعتاد أبي أن يغيب عنا بالأيام، وبالتأكيد لا تقدر أمي على سؤاله عن سبب هذه العادة الجديدة، كل ما عليها هو إعداد العشاء كل يوم وانتظاره على الطاولة حتى الخامسة فجرًا، ومع حلول النهار تتأكد أنه لن يعود فتأكل سريعًا ثم تغدو في نومها، تمر أيام طويلة على هذه الحال، وحين يعود يعود مخمورًا وعدوانيًا، وبالطبع أمي عليها تحمل كم الإهانة التي توجه لها، لأنه زوجها الذي لا تقدر على الحياة في غيابه.

سألتها: لم يحاول أي شخص الاقتراب منك في هذه الفترة؟

قالت: كل الأبواب مغلقة أمام أي شخص يحاول ولو مجرد المحاولة الاقتراب مني، الهالة المحيطة بي مرعبة لأي شخص، خصوصًا أننا كنا في مرحلة المراهقة ولن يغامر أحد بالاقتراب مني والدخول في دوامة لا يعلم مداها، والحقيقة أن هذا الأمر لم يعنيني من الأساس، شخصيًا لم أكن في حاجة لوجود أي شخص، على الأقل في هذه الفترة لأنني لا أفهم من الأساس معنى أن يكون شخص ما في حياتك، وكان أمر منزلنا يشغل رأسي وتفكيري بشكل مستمر.

واصلت حديثها عن أمها:

- لم تفهم أمي طبيعة عمل أبي طوال هذه السنوات، لم تحاول أن تسأله من الأساس، ما تعرفه عنه أنه "مقاول"، وهذا حسبما تقول يكفيها لتساؤلاتها، بينما كنت أنا أرى أن أبي مخادع، وأن أمي لا تعرف شيئًا عن حياته طوال هذه السنوات.

وذات يوم وأثناء عودته مخمورًا سقط من جيبه مفتاح الغرفة، غرفته الخاصة التي تقع في الطابق الثاني والمحرم علينا دخولها، الغرفة الوحيدة التي لا تفتح إلا في حالتين..

الأولى حيث يستقبل أبي ضيوفه..

والثانية حين يقرر أبي الانعزال عنا ويمكث فيها.

تقول أمي إن هذه الغرفة لم تدخلها منذ قرابة عشرين عامًا، من يوم زواجها وهي غرفة

محرمة تمامًا وقد أقسم أبي عليها أن يطلقها إن حاول أحد الدخول لهذه الغرفة، فجأة أصبح مفتاح هذه الغرفة الغامضة بين يدي، فجأة يمكنني الدخول ومعرفة ما يحدث فيها، انتظرت خروج أبي من البيت، ولحسن الحظ خرجت أمي لشراء بعض مستلزمات المنزل، وقفت أمام باب الغرفة الأسود العريض، باب أثري من قديم الأزل، وقفت أمامه لثوانٍ، ترددت كثيرًا وفكرت في توابع ما سيحدث حال معرفته بالأمر، لكان الرغبة في معرفة ما بداخلها كان أقوى من ترددي وقلقي وبالفعل فتحت الباب، وكأنني فتحت بوابة عالم آخر.

غرفة كل ما فيها قديم ومعتق، أنتيكات عفى عليها الزمن، ساعة قديمة معلقة على الحائط مثل تلك التي نراها في الأفلام. ومكتب ممتلئ بالأوراق وبجواره خزينة قديمة، اقتربت من المكتب وبدأت في تصفح الأوراق، فواتير وحسابات مجرد أوراق عملية لا قيمة لها بالنسبة لي، حاولت فتح الخزينة لكنني فشلت، فكرت في كلمة السر أكثر من مرة وفي المحاولة الأخيرة، حللت أن رجلًا نرجسيًا مثل أبي الطبيعي أن يكون الرقم السري هو تاريخ ميلاده، وكما توقعت بالضبط كان الرقم السري هو تاريخ ميلاده، ما إن فتح باب الخزينة حتى رأيت مسدس 9 ملي يعلو رفوفًا من الأموال وبعض الأوراق، لم أشغل بالي كثيرًا بالأموال، حتى المسدس كان أمرًا متوقعًا لرجل في مثل شخصيته العدوانية، أخذت الملف وبدأت في القراءة، مجموعة أرقام وحسابات لم أفهمها، صور مع بعض الشخصيات المؤلوفة بالنسبة لي، معظمها شخصيات لرجال أعمال معروفة في مصر، "أحمد الحوشي" أعرف هذا الرجل جيدًا هو واحد من أهم رجال الأعمال في مصر لكن سمعته السيئة معروفة بين أوساط الجميع ما بين قضايا غسيل أموال، وممنوعات وخلافه من الأعمال الخارجة عن القانون، لكنه يملك من النفوذ ما تجعله تحت الحماية القانونية، ثُرى ما علاقته بأبي، خرجت من الغرفة وأنا مصدومة مما رأيت، خصوصًا علاقته التي تبدو وطيدة بأحمد الحوشي.

عدت لغرفتي وقبل أن أعود رميت المفتاح في الصالة ليجده أبي، وبدأت رحلة البحث عن حقيقة أبي، وعن علاقته بأحمد الحوشي، وأثناء رحلة البحث اكتشفت أن أبي واحد من أكبر الرجال الفاسدين في مصر، متورط في الكثير من القضايا، لكنه يملك أيضًا ما يملكه أحمد الحوشي، يملك غطاء دبلوماسيًا كبيرًا يستطيع من خلاله إخفاء براءته من كل التهم الموجهة له، تحدثت مع أمي عن الأمر، لكن رد فعلها أثار غضبي أكثر، لقد نفت كل ما علمته عن أبي، بل ودافعت عنه بضراوة.

"أبوك رجل صالح، زار بيت الله عشرات المرات، خيره في كل بيت، وسمعته طيبة وسط الغلابة والمساكين، كل ما يُقال عنه مجرد شائعات لأنهم يكرهون الخير لأبيك."

قلت معترضة:

- أبي رجل فاسد ويستحق السجن..

هنا انهالت علي بالضرب وهددتني بأنها ستخبر أبي بما أخبرتها به، الوجه الآخر لأمي تلك الست العدوانية المستعدة للتضحية بكل شيء من أجل أبي، تحوّلت فجأة لامرأة مستعدة للنيل مني حال الاقتراب من أبي.

شعرت بخيبة أمل كبيرة من رد فعلها، لكنني لم أتوقف عند هذه المحاولة، واصلت متابعة ومراقبة أبي، وذات يوم قررت التنصت عليه وهو يتحدث في الهاتف، كان يواعد شخصًا ما قائلًا "سأنهي أعمالي في التاسعة مساءً ثم أتوجه إليك"، وقبل التاسعة مساءً كنت قد هربت من المنزل بالفعل وذهبت إلى مقر عمله أراقبه من بعيد، وما أن حانت التاسعة حتى خرج من عمله وانطلق بسيارته، تتبعته بالتاكسي حتى توقف عند مدخل إحدى الفيلات في المهندسين.

هي مغامرة لا بأس إذن من استكمالها..

حاولت تسلق سور الفيلا، لكنني كنت أخشى أن يراني أحد من رجال الأمن..

ظللت أراقب الوضع الهادئ لساعات..

ومع أذان الفجر انشغل الحراس في الصلاة..

فليتقبل الله منهم صلاتهم وليكن بجواري..

استغللت الفرصة وتسلقت السور..

وأصبحت في حرم الفيلا..

كان الجميع في سباته، وأنا أمشي على أطراف أقدامي، حتى سمعت صوتًا عاليًا في إحدى الغرف، اقتربت من الغرفة وضربات قلبي تزداد قوة وضجيجًا..

"حذرتك من الحمل ووعدتيني أنك تضعين كل الاحتياطات لهذا الأمر."

لم أفهم كلماته وماذا يقصد ردت عليه صوت امرأة:

- "حدث رغمًا عني".

قال غاضبًا:

- سيتكفل الأطباء بإجهاضك..

لترد المرأة غاضبة:

- لن أسمح لك بقتل الجنين.. هذا ابني..

هنا سمعت صوت أبي يعلو أكثر وأكثر وهو يقول:

- "لن أتزوج من عاهرة مثلك".

ثم بدأت الفوضى، كانت المرأة تصرخ وتستنجد، بينما أبي يكسر ويحطم كل شيء، لم أتمالك أعصابي وأنا أسمع صوت لكمات أبي على جسدها ووجهها، فتحت الباب عليها لأنقذها من تحت يديه..

ما أن فتحت الباب حتى توقف أبي، رأيت الصدمة في عينيه.

"أتركها يا أبي لأجلي."

سرعان ما نهضت المرأة، كانت فتاة في منتصف العشرينات، فتاة في غاية الجمال، تلصم أبي في مكانه لثوانٍ ثم اقترب مني غاضبًا..

"كيف أتيت إلى هنا؟".

لم أرد عليه بل كنت أتابع الفتاة التي تصرخ من شدة الآلام، والتي ظهر عليها آثار النزيف، لقد فات الوقت..

اتصل أبي بأحد الأطباء، وتحوّلت الغرفة فجأة إلى غرفة في مستشفى طبي، لقد فات الوقت بالفعل، وتم الإجهاض بالقسوة.

ظللت أبكي من قسوة ما رأيت، بينما كان أبي كلماته واضحة لمساعديه..

اهتموا برعايتها حتى تستعيد عافيتها، إياكم أن تخبروا أحدًا بما حدث، في هذا الوقت كانت الفتاة فاقدة الوعي تمامًا.

ظل الجميع يتحرك ويباشر عمله وكأنه لا يراني، بينما كان أبي يتابعني بنظراته، متوعدًا لي بجحيم قادم لا محال.

اتصلت أمي بأبي وهي تبكي لتسأله عني فقال إنه جاء فجرًا ليصطحبني لقضاء سهرة على شاطئ النيل تكريمًا لنجاحي في الثانوية العامة، أغلق الهاتف ثم واصل متابعته لحالة الفتاة.

مع نهاية اليوم أمسك يدي ثم ركبنا السيارة بمفردنا، طوال الطريق كنت في حالة صمت وصدمة أفقدتني النطق تمامًا، لم يحاول أبي فتح حديث معي، ولم يكن في حاجة لذلك فهو يعلم أنني أعلم تمامًا حال إخبار أي شخص بما رأيت فحتمًا سأرى ما لم أره من قبل.

عدت لغرفتي فاقدة النطق تمامًا، ظللت في غرفتي يومين بالتمام والكمال، تضع أمي الطعام على باب الغرفة ثم تطرق وتمشي، هكذا أمرها أبي بألا تحاول التحدث أو الاقتراب مني، كل ليلة أستيقظ مفزوعة على كوابيس لا تنتهي، المشهد محفور في ذاكرتي والفتاة تنزف وأبي ينهال عليها بالضرب المبرح، الفتاة وهي تصرخ وأبي وهو مصمم على إجهاضها.

اليومان تابعهما يومان ثم يومان ثم يومان، وفي اليوم السابع جاء أبي مبكرًا عن موعده المعتاد، على غير العادة دخل غرفتي في هدوء تام ثم جلس في مقدمة السرير، ونظر إليّ ثم بدأ حديثه معي..

- كيف حال صغيرتي؟

رددت بصعوبة: أنا بخير.

- أعرف أنك مصدومة مما رأيت..

قلت: حتى هذه اللحظة أقول أتخيل أن ما رأيته ليس حقيقيًا..

قال وهو يقترب مني:

- أنا لست أبًا سيئًا بالنسبة لك أليس كذلك؟

قلت:

- لكنك زوج سيئ مع أمي، ورجل أعمال فاسد، وكدت أن تقتل فتاة بينكما علاقة على أمي، وقتلت جنينًا، أنت رجل سيئ يا أبي.

توقعت أن ينهال عليّ بالضرب، توقعت أن يغضب، كانت لأبي ملامح حادة ومرعبة، كفيلة أن تصيبك بالخوف فور اقترابه منك، لكن هذه المرة كانت الأولى التي أرى ملامحه عادية وهادئة، اقترب مني أكثر وأمسك خصلات شعري ثم قال:

- أتفهم غضبك وأعرف أنك مصدومة مما رأيت، لكن الدنيا عدوانية، وحش كاسر تغير الناس وتخرج أسوأ ما فيهم، أبوك ذات الصيت والسلطة الواسعة ولد في حي فقير وحياة في غاية القسوة، حياة الرفاهية التي تعيشينها الآن قد كلفتني الكثير والكثير، كلفتني سنوات، سنوات أمنع نفسي من كل رفاهيات الحياة حتى أصنع لنفسي اسمًا ومجدًا وحياة لعائلتي.

- بالفسادة والظلم يا أبي؟

قال: الدنيا، لو لم أواجهها بهذه الطريقة لم وصلت لما وصلت له..

- الدنيا حجة كل شخص ظالم وقاتل يا أبي..

قال وهو يضع رأسي على صدره:

- هذا ما ستقرأينه في الروايات وتشاهدينه في الأفلام، لكن الدنيا عدوانية وقوية حد أنها تغير الأشخاص نفسهم، الطيب يمكن أن يكون شريرًا، والمسالم يمكن أن يكون قاتلًا، الوفي قد يصبح في ليلة وضحاها خائنًا، والشريف قد يتحول فجأة لرجل مدنس وفاسد..

لم أرد عليه فواصل:

- ورغم كل هذا لقد حاولت قدر المستطاع أن أكون أبًا شريفًا لك، لم أبخل عليك بالعطاء، لم أحرمك من أي شيء..

قلت:

- لقد قمت بهذا عن دون قصد يا أبي، لقد حرمتني من الحب، أقصد أنك لم تحاول يومًا احتوائي، بخلت عليّ بما هو أهم من المال بالدفء، لم تعانقني يومًا، لم تتحدث معي ولم تنصحني، لم تسمعني أو تحاول المناقشة معي، لم تكن أبًا صالحًا يا أبي لقد ربيتني على الجفاء والقسوة والعدوانية، كنت أرى كل صديقاتي يتنزهن مع آبائهن، يتحدثون عنه وعما قام به لإسعادهم، فأشعر أنني يتيمة الأب، كنت دائمًا تحت الحراسة المشددة، تحميني من كل شيء حولي، ولم تفهم أن الحماية الوحيدة التي احتاجها وأريدها هو وجودك بجواري، كان وجودك يكفيني عن الكثير والكثير يا أبي، لكنك بخلتَ عليّ بكل معاني الحب والدفء والطمأنينة.

شعرت بدموعه على خدي، ذاك الذي لم أره بهذا الضعف أبدًا، بعد دقائق من الصمت قال وهو يستعيد هيبته:

- حسنًا من الآن لن توجد حراسة ولن توجد مراقبة، لكنك تعرفين تمامًا حال نطقك بأي كلمة ما الذي سيحدث لك..

نهض أبي من مكانه ثم استدار واتجه لباب الغرفة، وقبل أن يخرج كرر كلماته:

- لو نطقت بكلمة واحدة فأنت تعرفين جيدًا الجحيم الذي ستعيشه.

ما إن خرج حتى انهرت باكية، وقضيت فترة في صمت تام، قررت بالفعل أن أحتفظ بالسر بل وأسطح علاقتي بأمي التي حتمًا لن تصدقني مهما أقسمت لها ومع هذا القرار توترت علاقتي بها، أمي التي كانت بمثابة السند والصديقة، تغيرت علاقتنا، وأصبحت أكثر

جفاء وبرودًا، والآن ماذا يمكنني أن أقول لك يا سقراط؟

بدأت الفجوة التي كنت أخشاها، لم يفهمني أبي ولم تحتويني أمي، وبدأت مشاعر الاحتياج تسيطر عليّ، لم أعد أملك صديقة واحدة يمكنني التحدث معها، كانت أمي هي كل أصدقائي وعائلتي وبعد ما حدث اتسعت المسافات بيني وبين أمي.

كنت في سن في غاية الخطورة، المرحلة التي تشكل حياة الأنثى للأبد ما بين نهاية الثانوية العامة والالتحاق بالجامعة، في هذه الفترة تحتاج الفتاة للدعم النفسي والمعنوي، لقد بدأت احتياج حقًا للحب والاهتمام، كنت أرى صديقاتي يعشن حياة اجتماعية أفضل رغم أنني أعيش في مستوى مادي أفضل، هي الفجوة التي تخلق في روح الأنثى، فجوة لا يمكن تعويضها مهما حاولت.

أتذكر ذات يوم كنا نجلس في أحد التجمعات العائلية، دار الحديث بيننا فتيات العائلة في منزل جدي الكبير، كنا نتحدث في موضوعات مختلفة تمامًا مثل التي يتحدث عنها كل فتيات هذا العمر، الأحلام، الحب، الزواج، والعمل، والأمنيات التي نفكر فيها قبل أن ننام، كثيرة هي الأحاديث وما أكثرها، كعادتي كنت أجلس في هذه المجالس صامتة تمامًا، أسمعهم وهم يتحدثون عن حياتهم، بينما كنت أتمنى لو كان بإمكان أي شيء الاستماع لصمتي وحديثي الداخلي مع نفسي، بدأنا في لعبة الأسئلة ومعها كانت كل فتاة تسأل الأخرى عن مواصفات الرجل الذي تتمناه شريك حياتها.

سمعت الكثير من الأمنيات والرغبات..

إحداهن قالت:

- أتمنى الحياة مع رجل رومانسي، ذاك الذي تجده يهتم بكل تفاصيلك، يراك إنجازه ومعجزته الوحيدة في الحياة، رجل يكتب لك الجوابات ويتغنى بك ويفكر طوال الوقت في إسعادك..

ردت الأخرى عليها:

- أتمنى الحياة مع رجل قوي الشخصية، يمكنني الاعتماد والاستناد عليه، رجل يقود حياتنا، رجل يطمئن قلبي ويراضيني..

ردت الثالثة:

- أتمنى أن يكون ثريًا، يشبه أبي ذاك الذي يوفر لي كل متطلباتي وأحلامي، أتمنى أن أكون له حلمًا ونسافر معًا حول العالم، لا يتردد في صنع مغامرات جديدة، يريد أن يكتشف كل

العالم..

فقالت الأخيرة:

- أتمنى رجلًا يشبه أبي تمامًا، حنيته، واللين الذي يعاملني به، حبه لأمي وطريقة إدارة البيت، أتمنى رجلًا في نفس جمال ووسامة أبي، وشخصيته المتفردة، وخوفه الكبير علينا وإخلاصه واهتمامه بنا.

الكثير من الإجابات التي تناسب طموحات فتيات في مهد عمرهن، وحين جاء دوري قلت رغمًا عني:

- أتمنى ألا يشبه أبي أبدًا..

ثم استوعبت أن الإجابة لا تليق ولا تصح في مثل هذه التجمعات فقلت أقصد يشبه أبي في كل شيء.

انتهى اليوم وأنا أفكر في السؤال وإجابات صديقاتي..

- حسنًا كيف هو شريك حياتي الذي أريده؟

- ألا يكون نسخة أخرى من أبي بكل ما فيه، لا أريد أن يكون شريك حياتي في قسوة أبي وتصرفاته، عدوانيته معنا وشخصيته التي يستقوى بها من ضعفنا، أريد رجلًا يعرف كيف يحتويني ويهون علي الحياة ويسمعني، أن يلبي احتياجاتي المادية هذا أمر مفروغ منه، لكنني أريد أن يلبي احتياجاتي العاطفية، الشعور بالطمأنينة والأمان ويدعمني ويكون بجواري السند والأمان ويد العون، لا أريد رجلًا في جفاء أبي في تعامله معنا على أننا وجدنا لإرضائه فقط، لا أتمنى أبدًا ان تكون سعادة ابنتي في خروج أبيها من البيت، وأمانها في غيابه عنها، أتمنى أن يكون منزلنا دافئًا وهادئًا، لغته الحب وموسيقاه الهدوء وأجمل ما فيه هو التكاتف والدفء، لن أسمح للعيش مع رجل يكون سببًا في بكاء ابنته، لا يطيب خاطرها ويراضيها قبل منامها، لا يسعى لسعادتها ورضاها.

- أتمنى أي نسخة في الدنيا إلا تلك التي رأيتها من أبي..

قاطعتها:

- الطفلة التي تخرج من منزل تفتقد فيه للحب، ستعيش حياتها كلها تبحث عنه، الطفلة التي لم تحتويها عائلتها ستظل تبحث عن أي احتواء ولو كاذب لمجرد أن تشعر بالأمان والطمأنينة، الطفلة التي تخرج وفي قلبها فراغ من عائلتها ستظل تبحث عما يملأ هذا الفراغ.

ابتسمت ووافقتني الرأي ثم واصلت:

- وحين تضيق بك الدنيا ويقتلك الفراغ، أول ما يمكنك القيام به هو العمل..

وفي السنة الأولى في الجامعة اتخذت قرار بالبدء في مشروعي الخاص..

بدأت مشروع ملابس صغير، اشتريت مكنة وبدأت في تصميم الأزياء في غرفتي، وعن طريق مواقع التواصل الاجتماعي بدأت في التسويق، كان مصروفي من أبي يكفيني لعيش حياة الرفاهية لكنني كنت أريد التركيز على صنع حياة خاصة بي، وفي هذه الفترة تحديدًا ظهر "هشام"، وهذا الشاب تحديدًا دونًا عن أغلب شبان الجامعة، كانت له شخصيته وطلته المميزة، لم يحاول يومًا الاقتراب مني أو فتح حديث معي يتعدى نقاشًا بين زملاء في الجامعة، "متربي أربع مرات" كما كان يلقبونه في الجامعة، هادئ طوال الوقت ولا يتحدث مع أحد، يذهب لحضور المحاضرات ثم يشرب القهوة في الحديقة ثم يعود إلى المنزل، ذات يوم فوجئت بمراسلته..

أنا أعرف عن مشروعك الصغير، الحقيقة أن عيد ميلاد أمي قد اقتربت وربما لو أهديتها فستانًا من الفساتين التي تصممينها، ستكون هدية جميلة.

رددت عليه:

- كل عام وهي بخير، حسنًا لك ما تريد، أخبرني أي الألوان المفضلة لها؟

كتب:

- الأبيض..

وعدته أن أسلمه الفستان قبل الموعد المحدد، أسبوعين، وبالفعل اتفقنا أن نلتقي في حديقة الجامعة وأسلمه الهدية، كان في غاية السعادة، وحين جاء وقت الحساب قلت:

- هذه هديتي لوالدتك..

ابتسم ابتسامة امتنان ثم قال:

- ستسعدها هذه الهدية، أنا وجيد أمي، لقد مات أبي في طفولتي وتركني لها، ومنذ ذلك الحين وهي بمثابة الأب والأم بالنسبة لي، وبالنسبة لها أنا كل حياتها..

شعر أنه حكى شيئًا لا يخصني فاعتذر عنه لكنني أصررت أن يواصل فواصل:

- لقد تعبت أمي كثيرًا في تربيتي، حرمت نفسها من كل رفاهيات الدنيا في سبيل أن التحق بالجامعة وأنجح وأحقق ذاتي، تقول أمي دائمًا أنت أملي وعوضي الوحيد في الدنيا،

لهذا السبب في كل مناسبة أفكر في إسعادها بكل الطرق الممكنة.

شعرت بالشفقة عليه فاقترحت عليه:

- ما رأيك لو أقمنا لها عيد ميلاد مختلفًا، نحجز لها في أحد اليخوت على شاطئ النيل ونحتفل بها؟

- هل هذا يعني أنك سترافقيني الحفل؟

هززت رأسي: نعم..

ومن هذا اللقاء والاقتراح بدأ كل شيء يتغير في حياتي.

توقفت حبيبة عن الحكي ونحن نتابع شروق الشمس، نهضنا وعدنا للرحلة، شعاع الشمس البسيط الذي يضيء الدنيا، والوجوه التي ظلت ترقص طوال المساء على أنغام الموسيقى، انطلقنا وسط الجبال وما أروعها، في لحظات الشروق، عدنا للخيم المقامة على ساحل البحر الأحمر، بأجسادهم المنهكة عاد الجميع إلى خيمته مستعدًا للنوم لساعات قليلة قبل الانطلاق للبرنامج الثاني في الرحلة، دخلت الخيمة وأمسكت الهاتف.

إشعار جديد من إليزا..

- كيف كان يومك يا سقراط؟

كتبت: على ما يرام، دهب مدينة جميلة أحب العيش فيها..

سألتني إليزا: هل انتهت جلساتك مع ياقوت؟

أجبت:

- نعم..

فقالت:

- بالطبع لقد استفدت مما حدث في حياته..

قلت:

- لقد زاد مخاوفي من الدنيا..

ردت:

- بعد كل هذه التجارب التي مرت بك أمازلت تخشى الدنيا؟

أجبت على الفور:

- نعم، ما زلت أخشى الدنيا، لأن الدنيا لا تضع نفس الاعتبارات التي نضعها نحن لقوتنا، الدنيا لا تعترف بما حققنا ما دامت لم تعترف به هي، الدنيا لها مقاييس مختلفة عن تلك التي نؤمن بها ونضعها في اعتباراتنا..

سألتني:

- وما أكثر ما تخشى في الدنيا؟

أخشى أن أقضي الدنيا على وهم أن الأمور ستتحسن، فأواصل تأقلمي على الأشياء الصعبة على أمل أن تنتهي لكنها لن تنتهي، أو أنني أقضي ما تبقى في حياتي في محاولة للوصول إلى غايتي لكنني اكتشف بعد كل هذه السنوات أنني لم أتحرك خطوة واحدة للأمام، أو يضيع عمري في انتظار أحداث لم تُكتب لي من الأساس، أخشى أن تغيرني الدنيا لأصبح الشخص الذي كنت أسخر منه، أقوم بنفس الأفعال التي كنت أرفضها، وأصبح النسخة التي عاهدت نفسي أن نصل لها أبدًا، أخشى أن أموت قبل أن أحقق شيئًا يذكر في حياتي، أخشى أن تمر أيامي في هذا القلق والترقب وأنتظار الأشياء البعيدة، أن أموت قبل أن تعوضني الدنيا عن لحظاتي الصعبة، يفنى بي العمر وأنا أتخيل حدوث أشياء لن تحدث، لا تصدق أنني صلب ولا أخشى شيئًا فالدنيا هي أكثر الأشياء المرعبة التي أخشاها.

قالت إليزا:

- وأنا مثلك لكنني لا أعرف هل حقًا أخشى الدنيا أم أنني أصبحت نسخة لا تبالي بها، لا يهمني ما سيحدث مهما كان كان قبيحًا ولن يعجبني ما سيحدث ولو كان قطعة من الجنة، أنا مثلك لكنني لا أعرف إن كنت حقًا متشوقة لمواصلة حياتي أم أنني رضيت بهذه الدنيا القبيحة ولم أعد أخشى أي شيء فيها.

واصلت إليزا:

- فرح وياقوت يتشابهان في كل شيء، لديهم نفس الدوافع للانتحار وهو شعور "الخذلان" من العالم، الفكرة أن فرح ما زلت تملك قوة وطاقة للمواصلة، أما ياقوت فقد فهم الدنيا بكل ما فيها لذلك قرر العزلة عنها.

لم أرد عليها فكتبت:

- على أي حال احمي نفسك من الطاقة السلبية التي قد تواجهك من سماع مرضاك..

انتهت المحادثة فخرجت للشاطئ أستمتع بجمال الأجواء، من بعيد رأيت شابًا وفتاة في

حالة حب، كانت حالة هيام وحب تسيطر عليهما، تابعتهما من بعيد وأنا أبتسم، أحب لحظات الحب الدافئة، تلك اللحظات التي يختفي فيها العالم في قاموسهما ويستمتعان معًا بقضاء وقت لطيف بعيد عن ضجيج العالم وزحامه، راودني بعض الحنين لحياتي القديمة، حيث كان كل شيء سهلًا وبسيطًا وممكنًا.

الفتاة التي أحببتها وتمنيت أن أقضي حياتي معها، عائلة القاهرة ما بين دهب وفريدة وهاجر وحتى سوما التي كانت أقرب المقربين لقلبي، أم أن فراق العجوز يوستانيا ما زال يؤلمك، لقد كانت هي الأخرى بمثابة الأم والعائلة والناصح لك، أم الاستسلام وسلك طريق آخر مع المافيا، ديفالو بكل أحداثها التي انتميت لهم، انتميت لهذه العائلة وتمنيت أن تكون نهايتنا أهون من تلك التي حدثت معنا، هل كتب علينا التشتت يا صديقي، أن نواصل البحث عن شيء واحد ننتمي له وينتمي لنا، أما أننا ننتمي إلى حيث لا ننتمي، هل كتب علينا أن نعيش حياتنا بدور وقناع المستمع الجيد، أم أنه سيأتي علينا الوقت يمكننا التحدث، التعبير عن مشاعرنا ومخاوفنا، ونهرول ناحية شخص آخر يسمع أحاديثنا وما نفكر به وما نتمنى، سرقتنا الحياة من أنفسنا وأصبحنا ملكًا للآخرين، سرقتنا الحياة من حياتنا وأصبحت حياة للآخرين، متى نرسى ونصل لبر، نعيش لحظات لأنفسنا، أليس من حقنا أن تهدأ مراكبنا ونرسى على ميناء واحدة، أليس للتائه أن يجد ضالته بعد سنوات من البحث؟!

وكعادة أغلب أحاديثي مع نفسي تنتهي بتنهيدة تعبر عن كل شيء، عدت للخيمة وغدوت في نومي مستعدًا ليوم جديد في رحلتي في دهب، مر أسبوعان بالتمام والكمال قضيتهما في حالة من الزهد والتجلي، لم أحاول استدراج حبيبة لمواصلة قصتها فقد كنت أعلم أنها ستأتي من تلقاء نفسها حين تشعر بحاجتها للتحدث، هذه واحدة من أهم قواعدي في التعامل مع الحالات، ما دامت لم تأت إليك وتتحدث معك فلا تحاول التعدي على رغبتها في الصمت.

اتصلت بي فرح لتخبرني بأمر زواجها من مهاب، كانت نبرتها في غاية التحدي وكأنها تريد أن تقول "لقد أخبرتك أن مهاب ليس بهذا السوء الذي تظنه" باركت لها وأنا أضحك ثم تمنيت لها الحياة السعيدة التي تريدها، لأنها بالفعل تستحق أن تعيش حياة سعيدة هادئة بعد كل هذه السنوات من الضغوطات والمواقف والأحداث الصعبة.

السفر لدهب هو فرصة رائعة لالتقاط الأنفاس واستعادة ذهنك من جديد، كانت فرصة مناسبة لإعادة ترتيب أوراق حياتي، ومن ضمن القرارات التي اتخذتها هو البقاء في هذه المدينة والعيش فيها، لكن علي أولًا إنهاء كل الارتباطات التي تنتظرني في القاهرة.

دعتني حبيبة لجولة ليلية على أحد جبال دهب..

السماء صافية، والظلام دامس، والنجوم والمجرات تراها بالعين المجردة، الهواء البارد، الحطب يحاول تدفئة السقيع الذي نشعر به، ولحظات من التجلي، الكل مشغول في عالمه وأفكاره، الكل ممد على الأرض يتابع السماء وزينتها، في مشهد يُذهب العقل.

مددت حبيبة بجواري ثم سألت:

- هل تتمنى أحد بجوارك الآن؟

قلت وأنا أطيل النظر إلى النجوم:

- سراج سقراط نفسه..

ضحكت ثم قالت:

- لقد كان من أحلامي النوم في هذا المكان مع شخص أحبه ويحبني، وتمنيت حدوث هذا مع هشام، بعد لقائي بوالدته تغيرت حياتي تمامًا، اقتربنا من بعضنا البعض وبدأت تقوى علاقتنا، كما قلت لك كنت في حاجة لعلاقة واحدة في حياتي يمكنني الإنصات والتحدث معها، بدا كل شيء غريبًا وكنت في حاجة لعلاقة تجعلني أشعر بالانتماء لها، سنوات من الوحدة والعزلة، وهشام كان أكثر شخص يمكنني الوثوق به، شخص مهذب، حياته طبيعية، ولا يريد من علاقتنا إلا الصداقة لأجل الصداقة، كان لهذا الشاب طموح كبير في بدء حياته بطريقة مثالية، وكان طموحي هو صنع كيان مستقل بذاتي، لذلك كانت أحلامنا مشتركة، وأهدافنا واحدة، ما ينقصني هو شعور الدفء والأمان والطمأنينة والدعم، وما كان ينقصه هو شخص معه يحملان مسؤولية الطريق ويتجاوزان كل العقبات التي قد تقف أمامهما، لم يمر وقت طويل حتى بدأ كل منا في سلك طريق حياته، سرعان ما تعلم تصميم الأزياء وسرعان ما بدأ في مساعدتي، شكلنا معًا ثنائيًا جميلًا تطورنا سريعًا وبدأ النجاح يدق أبوابنا.

- ماذا عن والدك؟

- لم يهتم كثيرًا بما أقوم به، ربما أخبرته أمي أنني علمت بحقيقته بتجنب أي محاولة للاحتكاك بي، ربما أدرك أنني كبرت بما يكفي لشق طريق حياتي، لم أهتم بالأسباب التي جعلت أبي لا يعير لخطواتي أي اهتمام.

واصلت طريقي ومحاولاتي لنجاح الكيان، وفي نفس الخطوات التي كنا نخطوها لتأسيس هذا الكيان، أصبح هشام جزءًا أصيلًا من يومي، مخبئي السري عن الدنيا وما فيها، كنا نتحدث طوال اليوم، نتشارك كل شيء ولا نبخل على بعضنا البعض بأي حب أو اهتمام أو طاقة، شعرت بمعنى كلمة السند والعون، ولذة أن يكون في حياتك شخص يهتم بك وتهتم به

وتركضان معًا في طريق واحد، لم يحاول هشام التعدي على علاقتنا، كان يعلم تمامًا أن ما يجمعني به هو علاقة عملية ونحن أصدقاء لا أكثر من ذلك، لذلك كنت أمامه أبدو عادية حين يحدثني عن النساء التي يعجب بهن، كنت أحسه على الارتباط مثل كل أصدقائه، لكنه كان يسخر من الفكرة ويقول إنه يكتفي بعلاقتنا، بينما في الحقيقة كنت أغار كلما اقترب من إحداهن، بل كنت أشيط غيظا ومع ذلك أتظاهر أمامه بأن كل شيء بخير، وأن الأمر لا يعنيني من الأساس، واستمر كل شيء في سياقه الطبيعي.

وذات يوم اتصل بي هشام في الرابعة فجرًا..

- حبيبة هل يمكنك المجيء إلي؟

قلت وأنا أحاول استوعب العالم:

- كم الساعة الآن؟

- أنا في المستشفى لقد تم نقل أمي إلى مستشفى الأورام الخاصة، هل يمكنك المجيء؟

نهضت مفزوعة من على سريري ونظرت إلى الساعة:

- الرابعة فجرًا مستحيل مستحيل..

- ماذا حدث لها؟

- نوبات جديدة وفقدت الوعي تمامًا..

- حسنًا لا يمكنني المجيء إليك في هذا الوقت، سأرسل لك بعض المال حتى الصباح..

رفض اقتراحي وقال سينتظرني في الصباح..

مر الوقت بطيئًا جدًا حتى الثامنة صباحًا، وما أن ضرب المنبه حتى انطلقت إلى المستشفى، كانت الحالة في غاية الخطورة وتحتاج للعناية المركزة، رفض المستشفى وضعها في العناية إلا بعد دفع جزء من تكاليف العناية..

- كم المبلغ المطلوب؟

- خمسة وسبعون ألف جنيه رعاية لمدة أسبوع.

تنهد هشام ثم قال: لا أملك إلا عشرين ألفًا..

في هذه اللحظة وبشكل تلقائي، تركتهما واتجهت إلى البنك ثم سحبت المبلغ المطلوب، وعدت إليهما وقدمته إلى الحسابات.

رفض هشام هذا التصرف لكنني لم أكن أنتظر منه الموافقة من الأساس، في هذه اللحظات ما دمت تملك ما يجعلك تنفذ الموقف فلا تتردد، لم يكن في وسعي إلا تقديم كل المساعدة لأنني أعرف ظروف حياتهما الصعبة.

خرجت والدة هشام من المستشفى والتزمت العناية في المنزل.. شهر كامل يومي عبارة عن الاستيقاظ ثم التوجه إليها وقضاء اليوم معها ثم العودة إلى المنزل، حيث النوم والاستيقاظ من جديد لمتابعتها، ساعدتها في المنزل بينما كان يحضر هشام المحاضرات ويعود لأكتبها في دفتري ونبدأ المذاكرة.

ضحكت حبيبة ثم واصلت:

- دعني أقول لك إنني توليت أمر البيت من الألف للياء بالمعنى الحرفي للكلمة، كانت هذه المسؤولية تسعدني لأنني لم أعتد عليها، تخيل أنني لم أشعر يومًا بدفء العائلة إلا في بيت هشام، كنت أدير كل شيء حتى تستعيد أمه عافيتها، وكنت سعيدة بما أقوم به، شعرت بقيمتي وكياني الأساسي في الحياة "امرأة تدير المنزل" تعلمت كيف أطهو، كيف أرتب المنزل، كيف أغطي المصاريف اليومية، وتعلمت وحدي النزول إلى الأسواق وشراء ما يحتاجه البيت، كانت والدة هشام تعلمني كل هذه الأشياء خطوة بخطوة.

بدأت تلميحات والدة هشام بأنها تتمنى لو تزوج بنتًا تشبهني تمامًا، لقد بدأت تعاملني كأني ابنتها، كنت أفهم تلميحاتها لكنني لم أجاريها يومًا في هذه التلميحات، لأنني وببساطة لم أكن أي مشاعر ولو إعجاب لابنها، كنت أراه كالأخ، أعطف عليه لظروفه الصعبة، وأحاول إسعاد والدته لأنني أعرف كم عذبتها المعاناة، وأشعر بالمسؤولية نحوهما لا أكثر من ذلك.

يومًا كنا نجلس نشاهد إحدى المسرحيات على التلفاز فسألتني بشكل مباشر عن رغبتي في الزواج نفسها فقلت:

- صدقيني يا أمي أنا لا أريد الزواج، ليس لأنني معقدة كما قد تظنين عني لكنني ما زلت لا أومن لهذه الفكرة وأراها مسؤولية لا أتحملها.

قالت وهي تضحك على المسرحية:

- كل النساء تفكر في هذا قبل الزواج، تخاف من تحمل مسؤولية منزل لكن يا حبيبتي الزواج سنة الحياة، ومهما كان النجاح مهمًا في حياة المرأة فنجاحها الأكبر في تكوين عائلة وتربية الأولاد.

قلت:

- أنا لا أمانع ولا أقول لك إنني لا أريد الزواج، لكنني ما زلت أرى نفسي لست قادرة على تحمل هذه المسؤولية، تفكيري الآن منصب على مشروعي، آمل أن أصنع كيانًا شخصيًا يمكنني الاعتماد عليه.

ردت:

- الاعتماد على رجل أفضل من الاعتماد على ملايين الدنيا، في النهاية الدنيا لا تسوى ذرة ما دمت لا تملكين من يساعدك ويهون عليك، وقد يكون رجل هو سبب في انطلاقتك.

تهربت من الموضوع ولم أهتم كثيرًا برأيها، كنت في هذه الفترة أركز بشكل كامل على نقل مشروعي من كونه صفحة إلكترونية ليصبح كيانًا على أرض الواقع الأتيليه الخاص بي.

مرت هذه الفترة في هدوء تام، وبعد الكثير من المحاولات قررت افتتاح أول مشاريعي الخاصة "أتيليه دهب."

أيام التجهيزات حاول أبي مساعدتي، سعى بكل الطرق توفير ما أحتاجه لكنني لم أنس أنني قد عاهدت نفسي ألا ألجأ له مهما حدث، كنت أعتذر له بهدوء تام وأواصل طريقي، بينما كان اعتمادي الكبير على هشام، لقد تشاركنا المجهود والأفكار والخطوات، قضينا قرابة شهر كامل لا ننام، نسعى لبناء المشروع الذي حلمت به طويلاً، أعجبتني شخصية هشام وفكرة الاعتماد عليه، لم يبخل بتقديم كل سبل المساعدة، أحببت هذه المشاركة، الوحيدات مثلنا حين يقدم أحدهم المساعدة يشعرن بالامتنان المبالغ فيه.

وفي الليلة قبل الأخيرة على الافتتاح، كنا نجلس في الأتيليه نضع اللمسات الأخيرة، قال وهو يرتب أحد الرفوف :

- أحب فيك إصرارك على الفوز بالحياة مهما كانت العواقب.

قلت وأنا أرتب رفًا آخر:

- لا أستطيع أن أجزم أنني سأفوز عليها لكنني على الأقل حال أنني لم أفز بها فلن أشعر بالندم..

نظر إليّ ثم سألني :

- كيف لا تشعرين بالندم؟

قلت:

- لأنني لم أحارب من أجل الفوز، حاربت لأنه بديهيات، لو لم يملك الإنسان ما يحارب

لأجله فما قيمة حياته من الأساس يا هشام، لن أندم لأنني حاولت وهذا يكفيني.

قال وهو يتجه نحوي:

- أنا مثلك لذلك لم أيأس أبدًا..

ضحكت ثم سألته:

- وأنت تريد الفوز بها؟

اقترب مني أكثر ثم وضع يديه على كتفي:

- سأفوز بها حتمًا سأفوز، لكن الآن يكفي أنني ألمسها..

شعرت بالتوتر فأدرت ظهري وواصلت ترتيب الرفوف:

- أتمنى أن ننجح، أتمنى أن نصل لوجهتنا..

قال:

- ستنجحين.. هذا أمر طبيعي أنا أثق في نجاحك.

تنهدت وفي نفسي رددت:

- يا رب وفقني..

وتم الافتتاح "أتيليه دهب"، أتذكر جيدًا بعد نهاية مراسم الافتتاح، وقفت في الرصيف المقابل للمحل، وظللت أتمعن في الاسم، كنت أقول لنفسي..

"لقد أصبح لك كيان على أرض الواقع، محل خاص بك، لقد تحقق واحد من أحلامك، تحقق بعد عناء المحاولات وشقاء الطريق، بعد هزيمتي من عائلتي وبعد فترات طويلة قضيتها وحدي، وبعدما قلت لن أستطيع تجاوز وتحقيق شيء بعد الشرخ الكبير الذي تركه أبي في روحي، تجاوزت واستطعت التغلب على كل هذا والآن تحقق أحد أحلامي، عظيم يا حبيبة أنت قوية، أقوى مما تظنين عن نفسك يا حبيبتي، الآن يمكنني أن أستريح قليلًا".

سألتها:

- كيف كان شعورك وقتها؟

تحركت خطوات معدودة ثم وقفت:

- كنت أملك الدنيا، لكنني افتقدت شيئًا ما وقتها، ربما كنت في حاجة لصديقة بجواري،

ربما انتظرت قدوم أبي وأمي، ربما انتظرت وجود شيء ما بجواري يجعلني أشعر بالسعادة أكثر..

سألتها:

- ألم يكن وجود هشام كافيًا بالنسبة لك؟

قالت :

- لا.. فالخطأ الكبير الذي حدث في بداية علاقتي بهشام أفقدني الكثير من المشاعر..

- أي خطأ؟

قالت:

- إنني رأيته كشخص مسؤول مني، المرأة مهما بدت قوية فتحملها لمسؤولية رجل يتنافى مع طبيعتها يا سقراط، مهما بدت قوية ويمكنها الاعتماد عليها هي تحتاج لرجل مسؤول منه، يحمل همها ويفكر في أمرها وتعتمد عليه، صحيح ساعدني هشام كثيرًا وأظهر لي أنه شخص يمكنني الاعتماد عليه، لكن بالنسبة لي كنت أرى أن هشام أخي الصغير المسؤولة عنه وعن تصرفاته.

ولأنني كنت أعامله بهذه الطريقة فقد جعلته بطريقة أو بأخرى شريكي في الأثيليه، لقد اعتمدت عليه اعتمادًا كاملًا، وبدأت تظهر عليه علامات الارتياح المادي، كنت في غاية السعادة وهو يشتري لأمه منزلًا جديدًا، يهديها كل فترة سلسلة أو خاتم ذهب، بدأت تتغير مجرى حياتي ومعه بدأت سعادتي بما حققته تزداد وتزداد، أن تعمل وترى نتيجة وتأثير عملك على الآخرين، أن تقدم لهم كل ما تملك، هذا يعني قيمة ومفهوم العمل والسعي، ولقد أحببت سعادتهما بالتغير الذي حدث في حياتي.

لا أخفي عليك بدأت أشعر بالإعجاب بشخصية هشام، فرغم أنه بطريقة ما مسؤول مني فكان يعجبني أنه لا يبخل على أمه بأي عطاء، على العكس كان يفكر دائمًا في إسعادها ورضائها.

"الحنية"

الحنية يا سقراط، يأسرني الشخص الحنين، ذاك الذي يفكر في المحيطين به، يضع سعادتهم نصب عينيه، لو امتلك جنيهًا قسمه بينه وبين من يحب، لو أكل أكلة لذيذة حتمًا يفكر في أمر الشخص الذي يحبه ويحاول أن يعين بعض من الطعام لأجل المحبوب، لو زار أماكن جديدة أعجبته لتمنى وجود المحب معه، لو أراد الرحيل عن العالم فيبقى المحبوب

أول شخص يفكر في أمره ويسأله "إلى من سيتركه؟"، الحنية في العطاء والود والرغبة في إسعاد الطرف الآخر.

تأثرني الحنية بكل تفاصيلها العشوائية البسيطة، توضح طباع الشخص في مثل هذه الأمور العادية التي تبدو تافهة للبعض.

مضى الوقت أكثر وبدأت علاقتنا تسلك إطارًا عاطفيًا، لقد تعودت على وجوده، وبدأت البدايات "حلوة البدايات كلها حكايات"، بدأت في اكتشاف هشام كحبيب وعاشق بعد فترة طويلة لم أتخيله إلا مجرد صديق، بدأت يهتم أكثر، يتابعني خطوة بخطوة، بعد نهاية كل يوم عمل نخرج مساء ونقضي وقتًا لطيفًا، نتسكع في شوارع القاهرة، نزور مدنًا وأماكن جديدة، نتحدث عن كل شيء وأي شيء، وفي البدايات مهما كان الوقت الذي تقضي مع حبيبك فأنت لا تشعر به، أقدامك لا تتعبك من المشي لساعات، والصداع لا يقترب من رأسك مهما تحدث وسمعت من الطرف الآخر.

استمر الشد والجذب والدلال بيننا، كنت أعرف أنه يريدني وينتظر مني أي فرصة مناسبة للتعبير عن مشاعره، وكنت أعلم أنه لن يمل أبدًا من انتظاري.

سألتها:

- لماذا كنت ترفضين بدء علاقة معه رغم أنك تقولين أن هشام كان شخصًا جيدًا؟

قالت:

- لم أرفض هشام كشخص على العكس كنت أعرف أنني سأعيش أيامًا حلوة معه، هو يحبني ويريدني وسيعوضني عن أغلب المشاعر التي احتجتها وأردتها، وأظن أنني سأستطيع تعويضه عن المشاعر التي يريدها ويبحث عنها، كانت مشكلتي الوحيدة في التوقيت يا سقراط..

وقتها كنت في غاية الحماس لمواصلة والتركيز على العمل، لا أفكر إلا في التقدم والاستمرارية حتى أصل لوجهتي، كنت أخشى أن يكون الحب سببًا في إعاقة مسيرتي أو تشتيت ذهني وربما الضرر ينفسي ومن ثم الانشغال عن مشواري وطريقي، صحيح كنت في حاجة ليداعب قلبي شعور الحب لكنني كنت في حاجة أكثر للتركيز على مشواري، الخوف من الهزيمة أو الانكسار في وقت قد لا أتحمل فيه أي تعثر، لذلك فلا ضرر ولا ضرار، لتجنب طرق الهوى ونركز في مشوارنا وطريقنا، فنحن لن نقدر على تحمل أي خيبة أو هزيمة من الدنيا.

أحب هذه الأفكار والمبادئ..

ضحكت:

- كلنا نحب ونؤمن بها ونتعايش معها حتى نقع في الحب.

- استمر هشام في محاولاته القوية للارتباط بي، واستمرت محاولاتي في الرفض لكن لم تكن في نفس قوة إصراره، وفي إحدى ليالي العمل المنهكة وبعد نهاية أحد الاجتماعات القوية مع أحد الموردين، كنت في حالة غضب وسخط كبير، كدت أحطم الأثيليه بكل ما في من الغضب، ربما الأمر لم يكن يستدعي كل هذه الثورة لكنني كنت بالفعل في غاية الغضب، فأنا وحدي أتحمل مسؤولية الأثيليه ووحدي أتحمل كل الأضرار التي تحيط بي، على المكتب كان يجلس هشام يتابع انفعالاتي وأحاديثي مع نفسي، كدت أسقط على الأرض من شدة الغضب.

هنا اقترب مني وقال:

- حبيبة أنت لست وحدك، أنا معك..

رددت غاضبة:

- لا لست معي، أنا وحدي تمامًا، وحدي تمامًا في كل شيء، ولا يمكن لأي شخص تحمل المسؤولية معي.

بدأت في كتابة ما تقوله حبيبة لكن بطريقتي المعتادة:

- ربما كانت مشكلتي يا سقراط في هذه الفترة أنني أحمل العالم على عاتقي، أفكر طوال الوقت في المسؤولية التي أحملها وأضعها أمام نفسي وعلى عاتقي، أحاول بشتى الطرق الفوز إنجاز ما يمكن إنجازه، لو سقطت فكثيرٌ هؤلاء الذين سيشمتون في سقوطي، أولهم أبي الذي ورغم تمنياته لي بالنجاح لكنني أعلم أن في نفسه هو يريد مني الخضوع والاستسلام، أقاربي الذين كثيرًا حاولوا إقناعي بالزواج، وغيرة فتيات العائلة لأنني سلكت طريقًا مختلفًا عنهن، عدا أنني لن أتحمل نظرات أمي التي ترى ابنتها سلكت طريقًا مغايرًا لرغبتها، لو سقطت فكثيرٌ هؤلاء الذين سيسخرون من التحدي الكبير الذي تحديته لهم بأنني سأنجح وأسلك طريقًا مختلفًا دون مساعدة من أي شخص أولهم أبي.

المسؤولية التي كنت أحملها على عاتقي كانت أكبر مني، يمتلكني الصداع طوال الوقت لأن رأسي لا يهدأ من التفكير، لأن رأسي لا يتحمل كل السيناريوهات والاحتمالات التي أفكر فيها، كل التخيلات التي تخطر على بالي والتي تصرخ طوال اليوم في رأسي، التفكير الذي يقودك

للجنون يا سقراط..

أنا المسؤولة عن حياتي وما دمت أنا المسؤولة فأنا الوحيدة التي سأتحمل عواقب قراراتي، وأنا من سأدفع ثمن أخطائي، وأتحمل ضريبة هذه الأخطاء وأنا من سأقوم بإصلاح ما أفسدته الظروف بحياتي، أنا المسؤولة فلا يحق لي الشكوى لأنني من اخترت هذا الوضع، ولا يمكنني الظهور في مظهر أفضل من الناجي الوحيد حتى لو كنت في غارقة في قلب المحيط، وما دمت لا يحق لي الميل فلا يهم أن سقطت مئات المرات وأعلنت أنني لا أميل أبدًا، بل إن القوة هي التظاهر بالثبات مهما كان الحطام الكبير في قلبي، وإن كنت في قلب العاصفة والسماء تمطر بالصدمات وغابت عن حياتي شمس الأمل وانعدمت كل إشارات الوصول سأقول للناس إنني أعيش ربيع أيامي وحياتي.

واصلت حبيبة:

- وأثناء ثورة غضبي الكبيرة، اقترب هشام مني أكثر ثم عانقني، كانت المرة الأولى التي يعانقني فيها أحد، هل تفهم هذا الشعور الذي أقصده، المرة الأولى التي يعانقني فيها أحد، رغمًا عني غامرتني نوبة بكاء غريبة، كنت أبكي كما لو أنني لم أبك طوال حياتي، ربما كنت في حاجة لهذا العناق الطويل جدًا حتى يستثنى لي الانهيار ولو لحظات.

سمعت مرة أن الإنسان يحتاج لعناق مرتين كل يوم ليهون عليه مأساة الدنيا.

لكنني لم أفهم المعنى إلا بعد أن شعرت أنني أخيرًا وصلت لقمة الهدوء والسكينة، تتوقف الأرض عن الدوران، تهدأ أحداث العالم، تنزاح هموم الدنيا، وتصبح أثقالها أخف من الريشة، شعرت أنني ولدت من جديد، بقلب لم يتألم وذاكرة لا تتذكر إلا الأحداث السعيدة، في العناق الطويل تنسى أحزانك، أوجاعك، الأزمات التي تمر بها، وتستسلم لشعور أن كل شيء سيكون على ما يرام، تسرق من الزمن لحظة تتوقف الأفكار في رأسك ويتنهد قلبك بعد أيام من التراكمات والضيق.

الحضن هو المكان الوحيد الذي يتسع لك بكل ما فيك من فوضى وعشوائية وضجيج، المكان الوحيد الذي لا يمكنك في التمثيل أو ادعاء أنك لست بخير، لا تحتاج من الأساس لهذا الادعاء لأنك في حرمة أصدق المشاعر الإنسانية التي تمر عليك، الحضن هو المكان الوحيد الذي لا تبذل فيه أي مجهود، كل ما تحتاجه ان تتعرى من كذبك وتخلع قناع قوتك وثباتك، هنا يمكنك ان تبكي عن كل الأشياء التي ضاعت منك، يمكنك أن تبكي لأتفه الأسباب وتنهار مهما كانت أسباب الانهيار، الحضن هو المكان الوحيد الذي يعيد طاقتك المفقودة، يرمم حطام روحك، ويهون عليك المأساة، وتشعر أنك أخيرًا وصلت للهدوء والسكينة بعد سنوات

من الركض والسعي، إلى الشعور الأسمى والألذ في الدنيا، الطمأنينة والهدوء.

لم أشعر بنفسي إلا ويديه تداعب خصلات شعري..

- أنا معك يا حبيبة..

ابتعدت عنه ثم اعتذرت وخرجت من الأتيليه واتجهت إلى المنزل..

وفي صباح اليوم التالي اتجهت إلى الأتيليه هناك كان ينتظرني هشام كعادته يضع خطة للتعامل مع أزمة توقف الاستيراد التي حدثت مؤخرًا، واثناء انشغاله قلت له بشكل مباشر:

- هشام أنا أحبك..

توقف فجأة ثم نظر إلي وتلعثم، وبدا وكأنه طفل صغير يشعر بالخجل..

ربما حان الوقت لنصبح مغا كما قلت.

تنهدت حبيبة ثم ظلت صامتة لفترة طويلة، أخرجت من علبتها سيجارة الحشيش، وظلت تدخن بشراسة وتتراقص على الأغاني البدوية، ثم واصلت:

- الحب هو الدافع الوحيد لبقاء الإنسان حيًا، مادمت لم تحب فأنت لم تكتشف معنى الحياة بعد، الحب هو الشعور الوحيد الذي يجعلك تتحمل كل الصعاب وتتجاوز عنها بل ويزيد إيمانك بنفسك حتى تستطيع تجاوز أي أزمة ممكنة.

سنة كاملة في علاقة ربما هي الأجمل في حياتي..

هشام هو مصباح علاء الدين، الرجل الذي قدم لي الجنة، رغم أنه لا يملك منها إلا كلماته، شاعرًا بالكلمات، لقد اكتشفت هشاشتي للحد الذي جعل أبسط الكلمات تأثرني وتجذبني أكثر له، اللين في التعامل.

حين يحدث خلافات بيننا يقول بطريقته الرومانسية "لسنا في حرب لإثبات صحة وجهة نظرنا"، ثم يعتذر عن مضايقتي ويبدأ في محاولاته لإسعادي وكثيرًا هي المرات التي اعتذر فيها وهو لم يكن المخطئ من الأساس، طريقته في احتوائي أنا التي لم يحتويني أحد من قبل كان حين أشعر بالحزن أو التعب على أتفه الأسباب، تجده أول من يسمعني ويهون علي، بل يهتم بالاستماع لي بكل إنصات وجدية كأنني أحدثه عن مشكلة عظيمة، بل أغلب الوقت كانت مشكلتي تافهة، كذلك طرقه المختلفة في التعبير عن الإعجاب والحب واهتمامه بأدق أدق تفاصيلي، أحببت الحياة معه وأحببت كل شيء يجمعني به، لقد كانت علاقتنا جميلة والنهاية المنطقية لمثل هذه العلاقات هي الزواج، أليس كذلك؟

هززت رأسي: أظن أن هذه هي النهاية المتوقعة لهذه العلاقة..

ردت وهي تضحك:

- لو كانت هذه هي النهاية التي حدث، ترى هل سأكون بجوارك الآن؟ بالطبع لا..

ثلاث مهن تستفيد من النهايات الحزينة المأساوية..

المأذون..

المحامي..

والطبيب النفسي..

واصلت:

- في يوم روتيني جدًا فوجئت باتصال والدي..

حبيبة أين أنت؟

أخبرته أنني في الأتيليه أنهي بعض الأعمال..

قال إنه ينتظرني في الخارج..

تركت الأعمال التي أقوم بها وخرجت له، انطلق بسيارته وكعادته لا يجرؤ أحد على سؤال أبي أين سنذهب وهو يصطحبه..

زيارة مفاجئة يا أبي..

قال:

- نعم، لكن هناك أمر ما استدعاني للمجيء إليك..

- ماذا حدث؟ أحدهم تقدم لخطبتك..

- للوهلة الأولى توقعت أن يكون هشام، هذا ما ظننته أو ربما تمنيته..

أصمت الأصوات التي اجتمعت في رأسي منتظرة مواصلة حديثه:

- أرى أنه شاب مناسب لعائلتنا، مكانة اجتماعية مرموقة ومهذب ويملك طموحًا عظيمًا..

قلت بحياء:

- أنت تعلم يا أبي أنني لا أفكر في الزواج الآن، وأن كل تركيزي منصب على مواصلة

مشواري ونجاحي..

قال:

- لم أقف في طريقك حين اخترت بدء مشروعك الخاص، بل حاولت مساعدتك ولن أقف في طريق رغبتك في التركيز على نجاح مشروعك، لكن لابد أن تفهمي أنك لا تسيرين في الحياة وحدك، وأن لنا حقوقًا عليك..

ثم اشتدت نبرة صوته وواصل:

- والحقوق إن لم تقدم من تلقاء نفسها فيمكننا أخذها بالقوة..

ابتلعت ريقي ثم قلت:

- تأكد أنني لن أتأخر في إسعادكم يا أبي..

هز رأسه ثم طبطب على كتفي:

- هذه هي حبيبة ابنتي التي أحبها..

وقفنا أمام إحدى الفيلات المعروفة في المعادي، وما أن رأى الجميع سيارة أبي حتى تهافتوا عليه، اقترب الجميع لاستقباله كاستقبال الملوك والأمراء، خرجنا من السيارة وظل صاحب الحفل يرافق أبي حتى وصلنا إلى طاولتنا، كان حفل أحد أصدقائه القدامى، يعجبني تقدير الناس لأبي في كل مكان يذهب إليه، أحب احترام الجميع له..

وبعد نصف ساعة تقدم إلى طاولتنا شاب في غاية الوسامة..

سعدت بلقائك يا حبيبة، أتابع مشروعك، وسعيد جدًا بما تحقق في وقت قصير..

ابتسمت له، ثم شكرته على لطفه..

جلس بجوار أبي، ثم قال:

- أنا المهندس رامي الدهشوري، لوالدك الفضل الكبير في قصة حياتي، لقد كان ملهمي وساعدني كثيرًا..

يحب أبي هذا النوع من المدح، يحب دائمًا أن يشكر الجميع في أفضاله وتصرفاته ومواقفه وينسب كل خطواته له.

واصل رامي حديثه عن نفسه وعن أعماله وبين الحديث والآخر ينسب كل خطوة لأبي، بينما كنت أسمعه في هدوء تام، فسألني أبي عن رأيي في رامي..

هو لطيف وشخص عملي جدًا..

قال:

- أنا أرى ذلك أيضًا، حسنًا دعنا نلتقي به مرة أخرى في مكان أكثر هدوءًا، وتتحدثان على انفراد..

قلت:

- أبي، رامي شخص لطيف لكن صدقني أنا لا أفكر في الأمر بهذه الطريقة..

تنهد أبي ثم سألني:

- حسنًا لن أضغط عليك هذه المرة، لكن دعيني أخبرك بشيء ما إن كان رجل ما في بالك، فأنا لن أعارض ولن أمانع ما دام يتوافر فيه الشروط التي أراها مناسبة لنيل شرف نسب عائلتنا.

تنهدت، فكلماته تدل أن أمر زواجي من شخص من اختياراتي واعتباراتي أنا سيحتاج مجهودًا كبيرًا لإقناعه..

تأكد يا أبي أنني أفهم ذلك جيدًا.

تعرف يا سقراط أنني أعرف كيف أساير أموري مع أبي، الوحش الذي أنام معه في بيت واحد كل يوم..

فترة صعبة أخرى تمر على حياتي، لاحظ هشام أنني بطريقة ما تغيرت معه، تعمدت تجنب أخباره بما حدث لأنني أعرف رد فعله، وأعرف التخبط الذي سيحدث له، لكن كما المتوقع تمامًا، إصراره دفعني لإخباره أن أمر زواجي بات قضية أبي التي يفكر فيها هذه الفترة.

كنا نجلس في أحد المقاهي القريبة في محيط وسط البلد، طلبنا القهوة ثم جلسنا نتحدث عن خططنا العملية المستقبلية ثم وبشكل مفاجئ سألني:

- لقد أصبح أبوك يتردد كثيرًا عليك، هل هناك أمر ما قد حدث؟

قلت:

- لقد تقدم أحدهم لخطبتي..

قال:

- وماذا فعلت؟

- بالطبع رفضت، لكن رفضي ما هو إلا بداية لأحداث متوقعة، ما دام صمم على زواجي فلن يتأخر حتى ينفذ قراره..

قال غاضبًا:

- لن يغصبك على الزواج، أنا أعرف هذا..

ابتسمت ردًا على جهله بشخصية أبي:

- أنت لا تعرف شيئًا عن أبي..

قال متحمسًا:

- حسنًا ما دام أمر الزواج مطروح، سأتقدم لخطبتك..

لم أرد عليه..

ظل يواصل ضغطه للإجابة عليه فقلت منفعلة:

- لن يوافق بك يا هشام، لأبي متطلبات مختلفة عنك، هو يريد تأمين مستقبلي بهذه الزيجة، لن يرفض كل أبناء أصدقائه ومعارفه بكل علاقاته ومميزاتهم، من أجل شاب مع أمه ويعمل معي في الأتيليه.

سمع هشام ردي ولم يرد، أشعل سيجارته والتزم الصمت، أدركت أنني لم يكن عليّ إخباره بالرفض بهذه الطريقة القاسية، اعتذرت له عن طريقتي في الرد، تقبل اعتذاري في هدوء تام ثم نهض واستأذن بالرحيل.

أسبوع كامل راودتني كل الأفكار التي تقرّب المسافات بين هشام وأبي، ذاك الذي كتب عليه الرفض قبل أن يحاول حتى خطبتي..

سألتها:

- حبيبة من البداية كنت تعرفين أن زواجكما مستحيل، لماذا سمحت ببداية العلاقة من الأساس؟

قالت:

- لا أملك إجابة مقنعة لبدء علاقتي به، كان كل شيء واضح من البداية، هشام لن يكون أبدًا الرجل الذي يوافق عليه أبي، ظروف حياته وتفاصيلها بعيدة كل البعد عن شكل الحياة ومواصفات الرجل الذي يحتاجه أبي ليكون زوجًا لابنته، قضيت أسبوعًا انقطعت كل أخبار

هشام، وظل الفراغ يحاوطني، حتى خطرت على بالي فكرة..

- ماذا لو ساعدت هشام ليصبح الرجل المناسب بالنسبة لأبي؟

ضحكت من كلمات وفكرة حبيبة لكنني واصلت استماعها:

- ثم؟

قالت:

- بعد أيام من التفكير، ذهبت إلى منزل أمه، استقبلتني العجوز أفضل استقبال، استأذنت منها لأدخل غرفته، دخلت فوجدته نائمًا على سريره يحدق في السقف، ما أن رآني حتى نهض من مكانه..

- أهلًا حبيبة.. غياب أسبوع عن العمل دون إذن، ماذا تقول اللائحة؟

قال ساخرًا:

- لائحة ظالمة، تتحدث عن غياب الموظف وتعاقبه، لكنها لا تذكر عقاب كسر القلب..

- كفاك دراما يا هشام..

رد :

- دراما! تحطيم أحلامي في لحظة دراما! تعرفين أنني أحبك وأريد الزواج منك يا حبيبة وأنت تعتبرين حزني، دراما!

- يا هشام ما أقصده أنني أملك حلًا لتصبح الرجل المناسب لخطبتي..

صمت مستمعًا لما أنوي القيام به فقلت:

- أبي لا يعلم رصيدي في البنك، لا يعلم شيئًا عما امتلكه، ماذا لو تم نقل بعض أرصدتي لك، ثم هاجرت أنت لمدة عامين وأسست شركة خاصة لك في دبي، وفور عودتك تأتي لخطبتي..

اندهش هشام مما عرضته عليه..

- هل أنت واعية بمَ تقولين؟

قلت :

- هذا هو الحل الوحيد يا هشام، لابد من التضحية لنتزوج..

- أظنه قرار غير مدروس يا حبيبة، أنا أريد الزواج منك لكن ليس على حساب تعبك ومجهودك..

رددت:

- صدقني لا توجد حلول أخرى..

توقفت حبيبة عن الحكي، لكن في نفسي كان سؤال يراودني..

- حبيبة، في البداية هشام لم يكن هو الرجل الذي رأيته زوجًا لك، وظل فترة طويلة بالنسبة لك مجرد أخ وصديق، ثم الآن تعرضين كل حياتك له حتى تتزوجي منه، ما الدافع الحقيقي وراء تقديمك لهذا العرض؟

تنهدت حبيبة وقالت:

- ربما دوافعي لن تقنعك لكنني بالتأكيد كنت أومن بها كل الإيمان، أفهمني يا سقراط، رغم أنني استطعت مسايرة ومجاراة الأحداث وعرفت كيف أتعامل مع أبي إلا أنني لم أنس قذارته، لم أنس أفعاله ولم أنس أنه السبب الوحيد في تشوهاتي النفسية منه، لذلك ومنذ لحظة اكتشافي حقيقته، وقد عاهدت نفسي أن يكون كل اختيارات حياتي برغبتي الشخصية، لا يهم ما سأخسره لا يهم ضريبة اختياراتي، الأهم أن أختار أنا بنفسي كل شيء.

- حتى ولو على حساب نفسك؟

- نفسك حيث تختار أنت الأشياء التي تعيشها، تختار الطرق التي تسلكها، الاشخاص الذين تعيش معهم، نفسك يعني أن تسمح لها بالاختيار والتجربة، نفسك أن تكون مسؤولًا عنها مسؤولية كاملة، إن كان يحق لأي شخص التحكم في حياتي فأنت لا تملك نفسك بالفعل بل أنت مجرد آلة يتحكم فيها الآخرون لإرضاء رغباتهم.

ما قيمة العالم لو خسرت نفسك يا سقراط، ولقد عاهدت نفسي أن أفوز بنفسي ولو على حساب العالم، ولتفز بنفسك في العالم لابد أن تملك قلبًا شجاعًا يمكنه المغامرة وخوض المعارك الطويلة مع الدنيا.

قلت:

- لكن ثمة معارك الخسارة فيها قد تكون نفسك تلك التي تسعي للفوز بها.

ردت:

- اتفق معك..

- في الأخير طلبت من أبي تأجيل الحديث عن أمر الزواج لعامين، سألني عن السبب أخبرته أن هشام يستعد للسفر، وقد زادت المسؤولية علي، وأنا في حاجة للتركيز أكثر خوفًا من أن يغرق الأتيليه في المديونيات، في المرة الأولى رفض أبي التأجيل بل وصمم أكثر أن يصبح أمر زواجي أولى أولوياتي في هذه الفترة، استمر الضغط من جانبه حتى اضطررت للتحدث معه بشكل مباشر، بالطريقة التي يحبها.

أبي تأكد أنني سأفعل كل ما في وسعي لإرضائك، لا أحد في الدنيا يحبني مثلما أحببتني ولا أحد يريد مصلحتي أكثر منك، شخصيتي التي تنال احترام الجميع ونجاحي الذي حققته في وقت قصير لولا وجودك لما حدث، أنت ملهم لكل شخص مررت على حياته يا أبي، لا يمكنني إنكار حقيقة أن كل ما حققته في حياتي ينسب الفضل لك وحدي، لقد تعلمت منك الكثير الأشياء لأبدأ وأواصل هذا الطريق، فهل ترى يمكنني بعد كل هذه الأشياء التي تعلمتها منك أن أتزوج من رجل لا تريده أنت؟

بالطبع لا يا أبي، حتى لو أعطيت لي حرية الاختيار سأقول الاختيار لصاحب الفضل في كل شيء، لأنني ومهما وصلت وحققت لن أصل لربع علمك وخبرتك في الحياة.

بهذه الكلمات أقتنع أبي برغبتي ووافق على تأجيل الحديث عن أمر زواجي، وفي هذه الفترة كنت قد نقلت ممتلكاتي لهشام حتى يستطيع فتح شركة له في دبي، بالفعل سافر إلى هناك كما الاتفاق بينهما، وبدأ في تأسيس الشركة، وبدأت أنا فصلًا جديدًا في مراعاة أمه والعناية بها، كنا نتحدث طوال اليوم تقريبًا، أسأله عن التطورات الجديدة ويحدثني عن خطواته وإنجازاته، وفي المساء نبدأ قصتنا الجميلة في خيالنا، حيث كيف ستكون شكل حياتنا معًا، في هذه الفترة ايضًا بدأت أعراض الشيخوخة تظهر على أمه، كنت أقضي أغلب الوقت في رعايتها، عادت ضغوطات أبي من جديد، وعاد القلق والتوتر، وما بينهم ونتيجة لغياب السيولة المادية اضطررت للعمل في أحد المصانع من أجل الاستمرار في السوق وسداد مستحقات الموردين والقروض التي بدأت بها مشروعي، لقد قررت المغامرة بكل شيء من أجل مواصلة العناد مع أبي، حتى أواصل صنع حياتي الشخصية كما أريد.

ومع اقتراب عودة هشام بدأت تتغير معاملته معي، وهنا بدأت مخاوف أخرى تظهر في رأسي، كان يغيب باليوم واليومين دون أن نتحدث عن تفاصيل يومنا، حتى سؤاله عن والدته لم يعد كمان كان، سألتني العجوز عنه أكثر من مرة لكنني لم أملك إجابة للرد عليها، كنت أكذب وأخبرها أن كل شيء على ما يرام، وأن العمل الكثيف هو السبب الوحيد الذي يمنعه عن التواصل معنا.

بدأ الموردين يطالبون بمستحقاتهم، كذلك أرسلت البنوك الكثير من التحذيرات قبل اللجوء

للمحكمة، حاولت الاتصال بهشام أكثر من مرة لكن دون جدوى، قضيت شهرًا كاملًا انقطعت فيها كل أخبار هشام، بينما كان الفليان بدأ يفور في رأسي، والعجوز ما بين الحياة والموت.

شهر كامل من التساؤلات والمخاوف والسيناريوهات المتوقعة، شهر كامل لا أستطيع إيجاد حل أو مخرج من تلك الأزمات التي ظهرت فجأة، أخيرًا قررت السفر إلى دبي لمواجهة هشام، أخبرتهم في البيت أنني سأغادر إلى دبي، حيث الاتفاق على استيراد بعض المستحضرات التي احتاجها في الشركة، وبالفعل سافرت إلى هناك وأنا أقول في نفسي لن أعود إلى مصر إلا مع هشام.

توقفت حبيبة ثم قالت:

- في المرة المقبلة سأحكي لك عما حدث في دبي..

" لا تندفع أبدًا يا سقراط، فالاندفاع مصيره السقوط" .

آخر ما قالتها قبل أن تذهب لتعود إلى المجموعة، حيث استكمال برنامج الرحلة السياحية.

ظللت أتابع من بعيد، كانت تتحدث عن المكان الذي نحن فيه، تتحدث بحماس عن الأنشطة التي تقوم بها شركتها، وتبتسم لكل شخص يريد سؤالها عن شيء ما.

عادت حبيبة إلى المجموعات السياحية التي تديرها، جلست أدون في مذكراتي ما حدث مع حبيبة، وأحاول فك شفرة الأحداث السيئة التي حدثت لها.

# الفصل الثامن

"المعاناة لا تعني أنك ستنجح.. يمكن أن تعاني وتموت"

بعد هذا اللقاء واصلت برنامج رحلتي التي ظننت أنها ستكون رحلة للهدوء والسكينة، لكنني اكتشفت أنها مجرد جلسات نفسية جديدة في مكان جميل لا أكثر من ذلك، طلبت من حبيبة نقل إقامتي إلى أحد الفنادق المطلة على شاطئ البحر، سألتني إن كان شيء ما قد أزعجني فأخبرتها أن كل شيء على ما يرام وأنني أحتاج للعزلة مع نفسي أكثر مع الالتزام بحضور ما تبقى من الجلسات، قضيت شهرًا كاملًا في خصام تام مع الناس، حياتي عبارة عن الاستيقاظ مبكرًا، الخروج والجلوس على الشاطئ، ثم العودة إلى الفندق ومن ثم الانطلاق إلى السهرات الليلية حتى أشعر بالنعاس فأعود لغرفتي منهكًا، أغدو في نومي العميق وهكذا، من حين لآخر كنت أبحث عن أصدقائي القدامى، سوما التي اختفت عن الأنظار، فريدة تغيرت حياتها وأصبحت واحدة من أهم مقدمي البرامج التليفزيونية، هاجر يبدو من صفحتها الشخصية أنها استقرت على شواطئ الحب، وبالطبع لا توجد أخبار عن دهب ذاك الذي قرر أن يعيش حياته متنقلًا بين المساجد، الأصدقاء القدامى، حيث الذكريات الأولى، المواجهة الأولى للحياة، صحيح كنا بؤساء لكننا كنا أقوياء معًا، كانت جلستنا في شقة القاهرة، سهراتنا، أحاديثنا وسخريتنا من ألاعيب الدنيا، تهون علينا الحياة.

مريم الحب والجرح الأول، الفتاة التي قررت الدنيا أن تسرقها مني، فتاة الليل التي لم تكن إلا فتاة في غاية العفة والجمال قررت أن تنتقم من كل شيء حولها فسلكت طرق الهوى، من حسن حظها أن محاولاتها الأولى كانت معي، فعادت لرشدها وعقلها، ومن سوء حظي أنني تعثرت بها فلولاها لما عشت كل هذه الجراح التي لم تتلاءم رغم مرور السنوات، تلاعب الحنين بي أكثر وأكثر فتذكرت عائلتي الثانية، ديفالو الشيطان الأعظم وقائدها ديفيد شاهين، بالمناسبة لقد أحببت شخصية هذا الرجل رغم كل مساوئ، أحببت أفكاره ونرجسيته وقدرته على اتخاذ الكثير من القرارات المصيرية، صحيح بعض القرارت لم تكن موفقة، لكن حتى نفسيًا كان معه كل الحق، فـ لا يمكن لأي شخص ان تصيب كل قراراته فما بالك بقرارات كلها مصيرية تحدد حياة أو موت غيره من الناس، ديفيد كان عدوانيًا وشرسًا لكنه لم يكن أنانيًا.

لو كان ديفيد أنانيًا- كما وصفه أفراد عائلته- لاستمر في النزال والصراع سواء كان مع المافيا او حتى مع الحكومة، لو كان أنانيًا لواصل القتال من أجل الفوز بابنه المخطوف، لو كان أنانيًا لاستمر في محاولاته للفوز بهم حتى ولو على سبيل مساعدي، لكنه أدرك أنه لن يفوز بهم، أدرك أن من العدل ألا يواصل معركته بجنود لهم أغراض مختلفة عن أغراضه، لو

كان أنانيا لاستمر في استغلالهم لتحقيق أهدافه الشخصية.

الأنانية أن تجبر العالم على الوقوف بجانبك في صراعك مع الدنيا، أن تجبرهم على خوض معارك لا تخصهم، تحملهم هم استعادة غنائم سرقت منك، وتزرع بداخلهم كراهية أشخاص لم يؤذوهم، الأنانية، لم يكن شاهين رجلًا أنانيا، وربما لو كان هذا لما وصل ليقين أنه لا فائدة ولا قيمة لمواصلة الركض مع الآخرين، اليقين بأن يحق لكل شخص اختيار معركته الخاصة مع الحياة.

اختفت أخبار كل أفراد العائلة، تفرقوا وعاش كل شخص حياته بالطريقة المناسبة له، سواء كانت يمنى أو مروان أو حتى داليدا، الشخص الوحيد الذي كان بيننا تواصل هو "ياسين"، وتواصلي معه لا يعني وجوده بالفعل، لا يعني أبدًا أن ما يجمعني به علاقة متبادلة.

تنهدت ثم رن الهاتف - الإشعارات - رسالة جديدة من إليزا، الفتاة التي لم أرها حتى الآن، الفتاة الغامضة بالنسبة لي، رغم ذلك فأنا أشعر بالراحة في حديثي معها، سألتني إليزا عما جرى في حياتي خلال الفترة الأخيرة، أخبرتها بما يحدث دون الخوض في تفاصيل.

صمتت لثوانٍ ثم كتبت سؤالًا حاولت كثيرًا تجنبه بيني وبين نفسي..

telegram: @alanbyawardmsr

كيف للمرء أن يسمع ضجيج الآخرين وفي قلبه أحزان الدنيا؟

وقتها لم أملك إجابة للرد عليها، لكنني أدركت حقيقة ما، ألا وهي أننا نسمع صراخ الآخرين حتى يهدأ الصراخ الذي يملأ عقولنا، نسمعهم لتخرس كل الأصوات المزعجة في رؤوسنا، أنا وهم مثلي قد تجدهم أول من يفكرون لأجلك ويحملون همك ويقترحون عليك كل الحلول الممكنة للخروج من أزمتك الكبيرة، لكنك تجدهم يتعثرون في أزماتهم البسيطة، وتعثراتهم الصغيرة نفسها قد تكون سببًا في تدمير حياتهم، لكنهم أول من سيقاتلون من أجل إنقاذ حياتك، نحن نستطيع مداواة جراح الآخرين أو على الأقل مساعدتهم على التعافي بينما لا يمكننا تحديد مصدر الألم الذي نشعر به، لكننا نشعر به، أنا وهم مثلي يمكنهم فهم كل ما يدور في رأس كل شخص يمر على حياتنا، بل ونرتب ونعيد ترتيب الفوضى في رأسه، لكننا نعاني من فوضى أكبر في رؤوسنا، نفهم ونعرف فيما يدور في عقل الآخرين ونحن أجهل من معرفة ما يحدث في رؤوسنا، لا يمكن فهم اللغة التي نفكر بها، ولا نفهم من السبب في هذه الفوضى ومتى ظهرت من الأساس، ننصح الآخرين ونساعدهم في التسامح والتصالح مع الذات، بينما نحن في خصام طويل مع أنفسنا، خصام طويل لا أحد يعرف سببه من الأساس، فجأة انقطعت لغة الحوار بيننا، فجأة اختلفت الطرق والأهداف، والتراكمات كانت

سببًا في زيادة الفجوة حيث اختلاف وجهات النظر حتى العتاب بيننا لم يعد موجودًا، نركض في دنيا فارغي الهوية والشخصية، نمد الآخرين بالأمل ونحن غارقين في يأسنا وبؤسنا، أنها قوة منح الآخرين ما تحتاجه، قوة أن تدعمهم وأنت غارق في بؤسك، منحهم الأمان وأنت ترتجف، نحن نسمع أوجاع الآخرين حتى لا تلتهمنا أوجاعنا بهذه البساطة وهذه الفلسفة الحزينة.

فسألتني سؤالًا آخر:

- ماذا لو فقدت القدرة على الاستماع للآخرين وحتى الاستماع للصوت الذي يصرخ في رأسك؟

قلت:

- ستكون لحظة الخلاص يا إليزا..

كل ما يحدث معي هو مجرد محاولة للهروب من ضجيج رأسي، محاولة للهروب من شبح أفكاري الذي يطاردني، أظن وقتها أنني لن أتحمل هذا الشبح ولن أقدر على مواجهته، ربما سألقي بنفسي من الشرفة، أو أمام قضيب أحد القطارات، ربما سأبكي طويلًا حتى تنفجر عيني من فرط البكاء، ربما سأضرب رأسي في الحائط حتى تتهشم تمامًا، لا أعرف لكن بالتأكيد حين تجتمع كل هذه التراكمات دفعة واحدة فلن أنجو سالمًا منها أبدًا.

ردت إليزا:

- ستبتلعك أحزانك يومًا ما..

ردت:

- تمامًا كما ابتلع فقدان فريدة لأخيها، تمامًا كما جن جنون دهب من قسوة الأحداث التي مرت على حياته، تمامًا كما ابتلعت الخيبة حماس وشغف داليدا، وضاع وانتهى ياسين من الضغوطات، وتمامًا كما حطمت الدنيا أحلام الفنان أحمد ياقوت.

ردت:

- لا أعرف من كل الأسماء المذكورة إلا أحمد ياقوت، من كل هؤلاء؟

وراء الشاشة ابتسمت ثم كتبت:

- هؤلاء كانوا مثلنا تمامًا، حالمين، لهم أحلام عظيمة، وطموح لا ينتهي، لكن الدنيا ابتلعت وحطمت كل هؤلاء، حطمتهم وابتسمت على حطامهم، بل وسخرت من ضعفهم أمام قوتها

المهولة، كل هؤلاء كانت لديهم أهداف، ركضوا وحاولوا لأجلها، وبنوا مرسى على كل شواطئها، لكن الدنيا تكسر الحالمين جدًا، كانت لهم أحلام، ركضوا نحوها، لكنها الدنيا..واه لو كانت الدنيا أخف..

فجأة اتصل موظف الاستقبال في الفندق..

- أ/ حبيبة في انتظارك في الاستقبال..

- أخبرته أنني سأنزل بعد خمس دقائق..

اعتذرت لإليزا عن مواصلة الحديث معها، أغلقت الهاتف ثم أرتديت ملابسي ونزلت لحبيبة التي كانت تنتظرني.

شهر كامل لم أرها، لم تحاول التواصل معي ولم أحاول التواصل معها، تمامًا كما اتفقنا، تبادلنا التحية ثم انطلقنا بسيارتها الدفع الرباعي إلى رأس محمد في سيناء، خلال الطريق سألتني عما قمت به في عزلتي، فوجئت بروتيني اليوم "تعيش في الجنة وتنطوي في غرفتك؟".

رددت: "الجنة هو العيش مع من تحب ولو في قلب الجحيم"، ابتسمت لردي ثم عاد الصمت حتى واصلنا إلى وجهتنا..

أنت تائه يا سقراط، وأنا كنت تائهة مثلك، لكن توهانك أفضل مني، على الأقل لا تبحث عن أحد، بينما أنا حين سفرت إلى دبي، بدأت رحلتي في التيه.

توقفنا بالسيارة لنتابع غروب الشمس..

وهي تواصل:

- حين وصلت إلى دبي كنت في حالة من هدوء تام، أضع كل الاحتمالات والأسباب التي تجعل هشام لا يتواصل معنا طوال هذه الفترة، انطلقت إلى مقر الشركة، وهناك أخبرتني موظفة الاستقبال أن السيد هشام في إجازة، طلبت منها إعطائي رقم هاتفه الشخصي، رفضت بالطبع، أخبرتها أنني صديقته من مصر، لكن هذا لم يكن شفيعًا لها، طلبت منها أن تتصل به وتخبره أنني جئت إلى هنا، فقالت أن من غير المسموح الاتصال به أثناء الإجازة، سألتها عن موعد انتهاء الإجازة فقالت حسب توقعها سيعود بعد يومين، حاولت معها بشتى الطرق لكن دون جدوى، في النهاية سكنت في أحد الفنادق القريبة من الشركة.. يومان مرا علي كعشرين عامًا، قاومت كل الأفكار السلبية، قاومت كل الاحتمالات السيئة، قاومت أي رد فعل منتظر مني، كنت أقول "حين نلتقي سأعرف كل شيء".

بعد يومين عدت من جديد إلى الشركة، وطلبت لقاء هشام، لكن فاجأتني موظفة الاستقبال أن السيد هشام مشغول جدا اليوم، ولا يملك وقتا للقاء أي شخص، سألتها إن كانت أخبرته بزياراتي فقالت نعم لكنه لم يغير أوامره، اقتنعت أن الإصرار في مقابلته في الشركة أمر شبه مستحيل، ما كان علي إلا الانتظار حتى يخرج وأراقبه حتى يستقر في مكان آخر، وقفت لساعات في الجهة المقابلة للشركة أتابعه، وقد بدأ الغضب يتسلل في روحي، لكنني قاومت حتى اللحظة الأخيرة، بعد أكثر من ست ساعات خرج هشام من الشركة وانطلق بسيارته، لاحقته حتى توقف أمام أحد المطاعم، دخلت وراءه، كانت في انتظاره امرأة في منتصف الأربعينات، ظللت أتابعهما من طاولة تراهما بوضوح، من علاقتهما يبدو أن بينهما صداقة عميقة.

بعد نصف ساعة اقتربت منهما..

- هشام كيف حالك؟

فوجئ برؤيتي وتلعثم:

- حبيبة، كيف حالك؟

ابتسمت من توتره:

- أنا بخير..

هذه حبيبة صديقتي من مصر، ديانا شريكتي يا حبيبة..

نظرت إليها ثم سألته:

- شريكتك؟

ابتسم وغمز بعينه:

- نعم نعم، سأخبرك بكل شيء فيما بعد.

جلست معهما صامتة تماما، كانا يتحدثان عن العروض المقدمة للشركة، ويتشاوران في بعض الأمور العملية، ظللت أتابعهما، وقد بدا من طريقتها في الحديث انها تملك صلاحيات كبيرة جدا وقوة في اتخاذ القرار، من حين لآخر كنت ترمقني ببعض النظرات المبهمة، شيء من التعالي في نظراتها، لم أفهم سببه.

ظل الحوار بينهما لمدة ساعتين وظللت صامتة تماما حتى استأذنت لتذهب للقيام ببعض أعمالها، وهم يودعان بعضهما قالت ديانا "سأنتظرك في المساء لا تتأخر"، ابتسم هشام لم

قال لا تقلقي سأكون في الموعد.

رحلت ديانا وبدا هشام متوترا جدا، كان كاللص الذي يحاول إخفاء سرقته بكل الطرق الممكنة، جلست أتأمله وأبتسم من تصرفاته ومحاولاته للتظاهر بالثبات أمامي، تركته يحاول جاهدا أن يجمع نفسه..

لطيفة ديانا..

قال متوترًا:

- نعم هي كذلك..

لم تخبرني أنها أصبحت شريكتك يا هشام..

تهرّب من سؤالي:

- كيف حال أمي؟

قلت:

- بخير، منذ فترة وتحت الرعاية الطبية، تشتاق لرؤيتك..

قال مفزوعًا:

- ماذا حدث لها؟

قلت:

- أعراض الشيخوخة..

تنهد هشام، ثم قال:

- أعرف أنني مقصر في حقها لكن رغمًا عني، في الشهور الأخيرة تعرضت لأكثر من تعثر كبير كاد يحطم حياتي..

تنهدت مستعدة للاستماع له:

- ماذا حدث؟

قال:

- في العام الأول سارت الأمور على ما يرام، كنت قد بدأت بالفعل سلك طرق النجاح وضع اسم شركتي بين المنافسين، لكن بعد ذلك حدث اضطراب كبير في سوق العمل، طال

الإفلاس والإغلاق الكثير من الشركات المنافسة، ولم تنجُ شركتي من هذه الزوبعة القاسية، اضطررت لتقليل عدد الموظفين في الشركة، لكن لم ينصلح الحال، فاضطررت لتخفيض التكاليف، لكن هذا الحل لم يكن قويًا أبدًا، فلجأت لآخر الحلول..

القروض، حتى أساير سوق العمل، لكنني في النهاية لم أنجُ أيضًا، وكدت على وشك إعلان الإفلاس بالفعل.

قاطعته: لمَ لم تخبرني بكل هذه الأحداث؟

قال:

- أردت المحاولة وحدي، أردت إثبات لنفسي أنني بإمكاني النجاح بمفردي..

لم أرد على رده السخيف فسألته ماذا حدث بعد ذلك؟

واصل:

- كانت ديانا هي المنقذ والمخرج من هذه الأزمة، صاحبة إحدى أكبر شركات التسويق المنافسة، فوجئت بحضورها إلى مكتبي وطلبها شراء أسهم الشركة مع سداد كل القروض ودفع الشيكات المؤجلة والمديونيات التي تبتلع الشركة، كان قرارًا صعبًا لكن السجن كان أصعب وأصعب، لذلك وافقت على عرضها..

20% من أسهم الشركة تخصني قيمة العلامة التجارية..

80% من أسهم الشركة ملك لها قيمة سداد كل المديونيات وإنقاذنا من الإفلاس.

هنا وقفت وبدأت غاضبة:

- إذن هي تملك كل الصلاحيات الآن وأنت مجرد موظف عندها..

رد وهو يتجنب النظر في عيني:

- كان هذا الحل الوحيد لتجنب الإفلاس..

رددت غاضبة:

- لقد أعطيتك كل جهدي وتعبي ولم يكن يحق لك التصرف به بهذه الطريقة.. لاحظت أن الأمر أكبر من بيع ممتلكات الشركة، بل هناك أمر ما يخفيه هشام..

- وماذا عن علاقتك بها؟

- لا شيء أكثر من أننا تزوجنا، لأضمن استمراريتي في الشركة..

- ماذا قلت؟

كررها بصوت خافت:

- لا شيء أكثر من أننا تزوجنا.

لا أتذكر إلا أن اجتاحتني نوبة ضحك هيستيرية، كنت أضحك بصوت عالٍ حتى إن الجميع حولنا لاحظوا ضحكاتي العالية، الضحك من وعلى كل الأحداث، لقد أضاع هشام شقائي وتعبي طوال هذه السنوات، تصرف بسذاجة وغباء وصبيانية، من أجل إثبات لنفسه أنه شخص ناجح على حساب تعبي، ليثبت لنفسه أنه يعتمد عليه، أضاع معه أيامي، بل واستمر غبائه ليتزوجها، لقد حطم أحلامي معه، لقد كان هزيمتي الأولى في الدنيا وباختياري، الرجل الذي راهنت عليه والرجل الذي حطمني بتوقعاتي وآمالي.

الآن أنا في منتصف الطريق، حيث لا يمكنني استرداد المبالغ التي دفعتها لهشام، لا يمكنني البقاء في دبي، لا يمكنني استمرار علاقتي بهشام، وفي مصر ثمة التزامات ومديونيات تلاحقني من كل اتجاه، يومين بالتمام والكمال وقررت العودة لاستقبال مصيري في مصر.

قاطعتها وقلت وأنا أستعد لكتابة شعورها :

- توقعت أن تكوني أكثر عدوانية مع هشام..

ردت:

- وأنا أيضًا توقعت أن يكون رد فعلي عدوانيًا، لكن كان شعورًا بالهزيمة أكبر من رد فعلي، لقد خذل توقعاتي وطموحاتي، وحطم كل آمالي في، لقد خضت صراعات طويلة مع نفسي حتى أثق به، حطمت عشرات السدود من أجله، لقد راهنت نفسي عليه، أعطيته كل ما أملك ليثبت لنفسي أنه الرجل المناسب الذي يستحق كل هذه التضحية، وما رأيته منه وتمسكه بي جعلني أقع في غرامه وأقدم له قلبي على طبق من ذهب، لكنه لم يكن جديرًا بالثقة ولا المسؤولية، المسافات التي تقطع بحماس وتحدٍ وتعود منها مهزومًا ومنكسرًا، لا تدري لمَ البكاء، على ثقتك التي انقلبت خذلانًا فجأة، على رهانك الذي تحول ضدك، على عنادك الذي حطمته الدنيا، إصرارك أن تصل لمرادك فتكسرك الدنيا وتجبرك على الاستسلام، أم أنك جاهدت طويلًا ألا تقع في فخ الحب حتى لا تنهزم فوقعت وانهزم وحطم قلبك وأحلامك دفعة واحدة، كانت الخيبة أكبر من رد فعلي يا سقراط.

أي فعل كان سيعوضني عن تعبي الذي راح هدرًا، مراهنتي على شخص ساذج وضعيف، أحلامي التي حطمها بغبائه وسوء إدارته للأزمات، تضحياتي وتحملي من أجل تجاوز الفترات

الصعبة، كلها المحاولات التي ضاعت هباء، عنادي مع الدنيا ومع أبي حتى أحقق ذاتي، وخيباتي في نفسي تلك التي قضيت سنوات أرممها وأعيد بناءها من جديد، بل وتحديت الجميع من أجلها.

كل ردود الفعل لن تعوضني عن الأشياء التي افتقدتها..

كل ردود الفعل لن ترمم أحلامي التي تحطمت..

كل ردود الفعل لن تعيد الأشياء التي افتقدتها..

كل ردود الفعل لن تعيد ثقتي بنفسي..

لو كان للصراخ قيمة لأيقظت المدينة من ضجيج صراخي..

لو كان للبكاء فائدة لقضيت أيامًا أبكي حتى يمتلأ النهر..

لو كان للغضب عائد لابتلعت وحطمت كل شيء حولي.

لكنني أدركت أن كل ردود الفعل باردة وباهتة لن تعيد الأشياء ولن تصلح ما تم كسره في روحي، فالتزمت الصمت والهدوء محاولة استيعاب ما حدث، وأحيانًا تبقى الصدمة نفسها أشد الأفعال قسوة على روحك.

واصلت حبيبة:

- ما أن خطت قدماي مطار القاهرة حتى تم القبض عليّ بتهمة التهرب من دفع قروض للبنوك.

فجأة أصبحت أسيرة خلف القضبان، أقف متهمة بالتهرب من دفع القروض وعشرات البلاغات من الموردين الذين ظنوا أنني هربت من مصر، بالطبع لم يقف أبي مكتوفي الأيدي بل دفع كل المديونيات لينقذني من هواني، لكن وقبل الإفراج عني، قضيت قرابة شهر في السجن "الحبس الاحتياطي".

وهذه الفترة تحديدًا غيرت الكثير من المفاهيم الشخصية بداخلي، غيرت الكثير من القناعات وجعلتني أرى العالم بمنظور أكثر واقعية، راجعت نفسي عن كل الأخطاء التي اقترفتها، إعطائي المبالغ وتضحياتي الكبيرة وكل الاستثناءات التي قمت بها من أجل رجل لا يستحق أن تتقدم خطوة واحدة لأجله فما بالك بتلك التي قطعت أميالًا، لم ألق لومًا على أحد، كنت أنا المتهمة الوحيدة في نظري، لم ألق اللوم على أحد فتهذيب النفس وتحمل مسؤولية أخطائها أولى خطوات التعافي وتصحيح المسار.

# الفصل العاشر

"إنها العائلة أما أن تصنع إنسانًا أو كومة عقد"

الكاتب الروسي: تولستوي.

بعد الخروج من السجن، وفي إحدى القرى السياحية، دعاني أبي لقضاء فترة نقاهة معه، كنت أعلم أن دعوته ما هي إلا جلسة لإنهاء الخلاف بيني وبينه، خصوصًا بعدما علم بكل التفاصيل التي حدث في علاقتي بهشام، كنت أعلم أن لقائي به حتمًا ولابد سيأتي مهما تأخر، لذلك وافقت على السفر معهم، كان اهتمام أبي في الأيام الأولى في رحلتنا هو إسعادي بكل الطرق الممكنة، ولا أخفي عليك أنا أيضًا كنت أريد إعادة الفوضى التي حدثت في حياتي، ثلاثة أيام بالتمام والكمال قضيتها في فترة نقاء تام، وفي اليوم الرابع خرجنا بمفردنا إلى أحد المطاعم التي يمتلكها، الترحيب والاحترام هي اللغة المشتركة في كل مكان تخطو فيه قدماه، ظللنا قرابة ساعة نتحدث عن أمور عادية، قليلة هي المرات التي يمكن لأبي الاستماع لأي شخص، ثم ودون مقدمات قال:

- أنا فخور بك يا حبيبة..

لم أتوقع أن يبدأ كلماته معي بهذه الطريقة، ولم أرد سماعها منه، كنت أريد إثبات نفسي وأن أسلك طريق النجاح بعيدًا عنه، لكن أن يفتخر بك عدوك اللدود في وقت هزيمتك فهذا يعني انتصاره عليك، إهانة مغلفة بكلمات لطيفة.

قلت محاولة التظاهر بثبات أمامه:

- لقد حاولت تحقيق ذاتي، لكن الأمور لم تسر كما أردت.

قال وهو يلتهم إحدى قطع الدجاج المرصوصة على الطبق:

- أظن أنك نجحت في ذلك، الخطأ الوحيد الذي قمت به هو التضحيات الكبيرة التي قمت به لصديقك، لكن حتمًا سينال عقابه فلن أسمح لوغد مثله استغفال ابنتي الوحيدة.

أعرف شراهة أبي في الانتقام، وأعرف عدوانيته فقلت محاولة استعطافه:

- أبي، هذا خطأي كما قلت وأظن أنني أنا من أستحق العقاب وليس هذا الوغد، أنا من أسأل عن أخطائي وثقتي به.

رد وهو يضحك:

- دعك من كلام الفلسفة، عمومًا هذه ليست قضيتنا، لقد تحملت ضريبة عنادك وإصرارك

على الركض بعيدًا عني، وقد كلفنا هذا العناد خسائر لا تُحصى، أظن حان الوقت لتفهمي أنني لست عدوك.

قلت بجراءة:

- سامحني من فضلك، لكن الخلاف بيننا أخلاقي من الدرجة الأولى..

نظر إليّ وقد بدا الغضب في عينيه لكنني واصلت ولم أبالِ:

- أبي، لقد قتلت أخاك من أجل الميراث، اسمك في الكثير من قضايا الاختلاس والقتل وغسيل الأموال، وبالطبع لم أنس معاملتك لنا، وما قمت به مع الفتاة المسكينة.

توقعت أن يغضب، يثور، يكون له رد فعل عدوانيًا معي، لكنه طلب المزيد من الطعام واتسم لثوانٍ ثم قال:

- وقمت بأكثر من ذلك، وصدقيني لو كان بإمكاني لقمت بما هو أكثر وأكثر، لستِ نادمًا على ما قمته به على العكس، أظن أنني كنت رحيمًا في بعض الوقت.

نحن لسنا في غابة..

الدنيا لن ترحم الضعفاء، ستأكلهم تمامًا كما نأكل نحن قطع الدجاج.

لقد واصل أبي حديثه عن أفعاله العدوانية الشرسة بكل سلام نفسي وهدوء، كما لو كان يتحدث عن أفضاله، كان يقول بوضوح "هذه الغابة لابد أن تكون أسدًا فيها حتى لا تأكلك الضباع"، وكان هذا مبرره لكل أفعاله.

قاطعت حبيبة ثم قلت:

- ولن يشعر بالندم يا حبيبة، أتعرفين لماذا؟ لأن أباك يؤمن بأن الدنيا لا ترحم الضعفاء، وأن النجاة منها لابد أن تكون قويًا وفي غاية الشراسة حتى تتعايش في عالم لا يرحم الضعفاء، تعرفين يا حبيبة رغم خلافي الأخلاقي مع أبيك إلا أنني اتفق معه في بعض النقاط التي لا أجرؤ على القيام بها لكنها نظرية، البعض يؤمن بأن الحياة سباق لابد أن تكسر وتحطم كل من ينافسك لتصل إلى مرادك، لأنه وحين تتبدل الأدوار لن يرحمك منافسك، الدنيا ساحة حرب لن تفوز بطيبة قلبك وثقتك بالآخرين بل ستفوز بقوتك وثقتك بنفسك، الناس في الحياة أشكال وطباع، الشرس، المسالم، الجبان، الشجاع.

الشرس يؤمن دائمًا أن كل شخص يحاول الاقتراب منه يريد النيل والانتقام منه، لذلك سرعان ما تجده ينقض عليك قبل أي محاولة منك للمساس به، والمسالم يؤمن أنه ما دام لا

يؤذي أحدًا فلن يؤذيه أحد، هذه النظرية السخيفة التي حطمت الكثير من المسالمين وجعلتهم فريسة سهلة للوحوش، الجبان هو ذاك الذي وحين يرى معركة تجده أول من يهرب منها، هو لا يريد خوض أي معركة، ليس لأنه لا يريد بالضبط خوض المغامرات، بل لأنه يعرف أنه أضعف من خوض أي معركة في حياته، وحتمًا ستكون الهزيمة جزاءه، ولأنه لا أحد يحب الاعتراف بهذا الضعف فيتوارى أمام قناع الطيبة، يقنع نفسه أنه ليس الطرف الأضعف بل الأكثر طيبة، يشكو من قسوة الدنيا ومراراتها، ويتغنى بسلميته محاولًا إخفاء هذا الضعف كونه لا يريد من الدنيا إلا السلام والهدوء.

أما الشجاع فهو الذي يغامر ويعاند ويعافر مع الدنيا، تكسره مرة ويكسرها مرة، ينام ليلة منتصرًا وليلة مهزومًا، تحطمه الدنيا ويحطمها، يجاهد معها وتجاهد معه، يواجه الدنيا بقلب لا يعرف الخوف ولا يعرف القسوة لكنه لا يترك حقه ولا يتهون في حقوقه حتى لو كلفه الأمر حياته.

أبوك يا حبيبة رجل واجهته الحياة بمخالبها، فجعلت منه نسخة بلا قلب، لا يشفق لا يرحم أحدًا، يؤمن كل الإيمان ما دمت لم آكلك فحتمًا ستلتهمني، لذلك هو من يبادر بالقسوة، لقد أحب نفسه ومصالحه للحد الذي جعله يمكنه تدمير أي شخص يحاول الاقتراب أو المساس به.

قالت حبيبة غاضبة:

- أراك تحاول إظهار أبي في صورة الرجل المثالي المجني عليه..

قلت:

- لا، أبوك مجرم ومذنب ورغم قوته وشراسته وفلسفته العدوانية مع الحياة، إلا أنه كان أضعف من مواجهة نفسه ومحاولة الحفاظ عليها، أبوك مجرم لا خلاف على ذلك.

تنهدت حبيبة ثم واصلت:

- استمرت المناقشة لمدة ساعة كاملة، كان يحاول إقناعي بأفكاره ومبادئه العدوانية والحقيقة أنني لم كنت قد فقدت بالفعل طاقتي في الجدال..

- أبي، ماذا تريد مني؟

رد بكل وضوح:

- لنضع حدًا لهذا الخلاف، لقد وافقت على خوض طريقك وحدك، وسمحت لك بالتجربة والمجازفة تمامًا كنت تريدين، وتحملت كل أخطائك وقراراتك وأنقذتك من السجن، وما دام

لم تعاملني كأب فكل ما قدمته لك وبالعرف العملي بين الناس، هي مديونيات لابد أن ترد، الآن حان دوري لأشكل شكل حياتك التي أريدها، وصدقيني ستعودين أقوى مما كنت لن أمنعك من تحقيق أحلامك لكن هذه المرة تحت طوعي ورغبتي.

هززت رأسي موافقة على عرضه، كنت أعلم أنني لو لم أوافق فسأغضب على الموافقة، لذلك كان علي الموافقة بهدوء تام.

خرجنا من المطعم مستسلمة تمامًا لما هو قادم، مواصلة الصراع مع أبي لا فائدة منه..

مر شهر كامل في حالة هدوء، حتى نادتني أمي..

- أحدهم يريد رؤيتك..

- من؟

- امرأة مسنة تقول إنها تريد لقاءك..

- خرجت من الغرفة إلى الصالون..

- أم هشام، كيف حالك يا أمي؟

- كانت في غاية الحزن والتعب، ما أن رأتني حتى ارتمت في حضني وبكت..

- ماذا حدث؟

- سامحني هشام يا ابنتي..

قلت محاولة فهم ما حدث:

- كيف حاله؟

- لقد تم إلقاء القبض عليه بتهمة الاتجار في المخدرات في دبي...

قلت مفزوعة:

- متى حدث هذا؟

ردت:

- قبل أسبوع..

ظلت تحكي ما حدث معه، ولكنني كنت مشغولة بأمر آخر، هل لأبي دخل فيما حدث؟

واصلت مواساة العجوز، وكنت بدأت أشعر من طريقتها أنها تعيش آخر أيامها..

- هل حضر محام للدفاع عنه؟

ردت:

- لا، لقد تخلى الجميع عنه حتى شريكته وزوجته..

دعني أقول لك رغم شعوري بالشفقة على أمه، إلا أنني ابتسمت، لقد نال عقابه كما قال أبي، بكاء أمه في صدري لم يجعلني أشعر بالتعاطف معه، ابنها وغد ويستحق جزاء خيانته لي.

- هل بإمكانك مساعدته يا حبيبة؟

قلت وأنا أحاول التخفيف عنها:

- سأقوم بكل ما علي القيام به..

خرجت العجوز فاتصلت بأبي أسأله فيما حدث، قال أبي بشكل قاطع:

- اتفقنا أن يكون عقابه مسؤوليتي..

- لقد زارتني العجوز يا أبي وطلبت مساعدتي..

هنا وللمرة الأولى انفجر أبي غاضبًا:

- أي محاولة منك في هذا الموضوع، ستنالين عقابًا أشد قسوة..

ابتلعت ريقي، ثم أغلقت الهاتف مستسلمة تمامًا للواقع..

في النهاية، علمت أنه تم الحكم على هشام بخمسة عشر عامًا مع الأشغال الشاقة.

وطبعًا كان شعور الشماتة في روحك أكبر من حزنك على ما سيحدث للعجوز، فور سماعها الحكم..

قالت وهي تُشعل سيجارتها :

- ودعني أقول لك إنني شعرت بالراحة حين علمت بقرار المحكمة، لتسامحني العجوز على شماتتي، لكنني تأذيت أشد من أذى من ابنها، لتغفر لي سعادتي الكبيرة في مصير ابنها فلقد حطم حياتي ودمرها، وكان سببًا في خضوعي لأبي، أنا الذي عاهدت نفسي ألا أخضع أبدًا، هي ليست شماتة بالمعنى الحرفي للكلمة لكن حين يتعمد شخص ما إيذاء وتدمير حياتك، فالطبيعي أن تشعر بالسعادة حين يجير عليه الزمن ويهزمه، طبيعي أن تنتابك السعادة حين تحزنه الدنيا وتكسره، خصوصًا لو كان قد تعمد كسر قلبك أنت الذي لم تفكر يومًا إلا في

ترميم حطامه، من الطبيعي أن يترمم شيء في روحك حين يتحطم الشخص الذي حطمك عن قصد، في النهاية أنا لست قديسة أنا مجرد فتاة أرادت خير من الدنيا فلم تنل منها إلا القسوة والشر، لذلك شعرت أنه من الطبيعي أن أشعر بالشماتة.

انتهى هذا الفصل من حياتي وبدأ فصل آخر في حياتي..

كان فصلًا في غاية القسوة..

رددت بابتسامة:

- لكنني تعلمت يا سقراط.

خرجنا من السيارة وبدأت تتحرك بخفة على رمال الشاطئ مع الهواء البارد، الذي أعطى لها المزيد من الحرية والحماسة.

تعلمت ألا أعطي ما دمت لا أملك ضمانات لعطاء متبادل، وتعلمت أنه ما دامت رحلتك الفردية تسير بطريقة جيدة فلا تعطل مسارها برفيق قد يصبح هو العائق الوحيد في رحلتك، تعلمت أيضًا أن الناس مصالح ومنافع متبادلة فلا يغرنك المسكين الذي يمثل أنه يريد إسعادك ورضاءك فقط، بل صدقني هو يقدم لك حتى يتملك منك لأنه يُدرك تمامًا حجم عطائك الذي تخزنه في نفسك، تعلمت ألا أغامر مع شخص يرتجف، يده مرتعشة وقلبه هش سرعان ما تهزمه الدنيا، فلا يمكنك إلقاء اللوم على شخص ضعيف تخلى عنك في معركتك مع الدنيا، لكن اللوم الوحيد عليك لأنك من اخترت وراهنت على ذاك المرتعش، تعلمت أن العقل هو من يقود الحياة، وأن رغبة القلب ما هي إلا رغبة طفولية، تسمع لها لكنك لا تنفذها، تعلمت الكثير من الأشياء من هذه التجربة.

توقفت حبيبة فجأة وظلت تتأمل البحر في صمت تام ثم قالت:

- وكان الفصل الأخير في قصتي هو الزواج، وقد ظهر في هذا الوقت "أيمن الشيمي"، رجل الأعمال المعروف، تعرّف عليّ في إحدى جولاتي مع أبي، جمعتنا بعض الحفلات الليلية، كان يكبرني بعشرين عامًا، وقد كنت في هذا الوقت في قمة جمالي ورونقي، كنت قد استعدت جزءًا كبيرًا من نفسي وصحتي النفسية والجسدية، لقد بدا الإعجاب واضحًا في نظرات الشيمي، صحيح فرق العمر بيني وبينه كبير، لكنني رأيت مدى إعجابه بشخصيتي وجمالي، جمعني به أكثر من لقاء، وفي أحد لقاءاتنا وقبل إبداء رأيي سواء بالموافقة أو الرفض كان عليّ سؤاله عن حياته، كان رجلًا لطيفًا جدًا، ذوق، ويقدر المرأة بشهادة المجتمع الذي يتعايش معه بشكل يومي، لقد كان واضحًا وصريحًا معي من البداية "أنت تناسبين طبيعة حياتي، امرأة جميلة، مهتمة بنفسها، من أسرة عريقة، وشخصية قوية ولها كيانها

وحياتها، وتثق بنفسها، حتى ماضيك الذي أخبرتيني به لا يمثل أي عائق في علاقتنا فالأذى الذي أصابك ما كان لولا عطاؤك ومشاعرك وحبك المفرط وتحملك المسؤولية، أظن أننا سنعيش حياة رائعة مع بعضنا البعض فأنا لن أعوق مشوارك وأنت لن تكوني سببًا في أي أزمة بيننا.

شخصيًا كنت لا أرى أي سببًا للرفض، حتى عائق السن لم يكن عائقًا بالنسبة لي، لأنني كنت أحتاج رجلًا ناضجًا أعتمد عليه، تزوجنا بالفعل وعشت الأيام الأولى في سعادة وهدوء، وبعد نهاية الإجازة عاد كل منا لعمله وحياته العملية، وبدأت أنا في الاهتمام بالمنزل وبه، مع الاهتمام الكامل بعملي وحياتي أيضًا، استمر كل شيء هادئًا وفي أحد الحفلات التي كنا نحضرها بشكل دائم، في هذا الحفل تحديدًا انقلب وتغير كل شيء، كنت في هذا الحفل في غاية التألق والجمال، لقد تهافتت نظرات الحضور علي بطريقة مريبة، لم أسلم من مغازلة أصدقائه قبل الغرباء عنه، كان يبتسم لكل شخص يبارك لنا على الزواج ويبتسم غيظًا وهم يهنئونه على زواجه بي، مرت الليلة في صمت تام دون أن نتحدث مع بعضنا البعض، وفي اليوم التالي كان قد واعدني بالعشاء في أحد المطاعم المتنقلة في النيل، لكنه تراجع عن قراره فجأة، مر أسبوع في تصرفات غريبة جدًا من أيمن، وفي نهاية الأسبوع جاءت أمه وأخته إلى منزلنا بعدما دعوناهما للغداء، صمم أيمن على إجباري لارتداء ملابس رسمية لاستقبال أمه في المنزل، لم أبال كثيرًا لكن تأكدت أن شيئًا ما قد حدث، شيئًا ما يخفيه في نفسه، وافقت على اختياره لملابسي وخرجت لاستقبالهما، عائلة أيمن في غاية اللطف والود، وقد أحبتني أخته وعاملتني بلطف ومحبة، والأمر لم يختلف عن أمها التي كانت تعاملني كابنتها الثانية، الحقيقة كانت العائلة لطيفة جدًا لم أشعر بالغربة في تعاملها معي، رغم لطفهما وطريقتهما الجميلة في التعامل معي، إلا أن عقلي لم يتوقف عن التفكير فيما حدث.

بعد الغداء ونحن نجلس في الحديقة بدأت أخته تتجمل في ملامحي وشكلي وتحسد أيمن على زواجه مني، هنا انفجر أيمن قائلًا "مثل هذه الكلمات ستجعلها تشعر بالغرور من نفسها" نظرت إلي في دهشة غريبة ثم قلت لأخته "الجمال في عين الرأي" وابتسمت ثم سايرت الأمر، عادت أمه لمغازلتي وعن مدى اهتمامي بنفسي واهتمامي بأيمن ومدى اهتمامي بالنظافة وبجودة الطعام، الأمر الذي أثار غضب أيمن مرة أخرى "كفاك يا أمي حتى لا تظن نفسها مثالية"، هنا ردت أمه بخبرة عجوز تفهم ما يدور في ذهن فتاة عشرينية "يحق لها أن تظن هذا، وهذا سينعكس عليك، المثالية تجعل كل شيء يخصها مثاليًا وأولهم زوجها"، ابتسمت لرد أمه وظللت انتظر نهاية اليوم، ما أن خرجا حتى قررت مواجهته.

- أيمن، ماذا كنت تقصد من ردودك على أمك وأختك؟

قال وهو لا يبالي:

- لم أقصد شيئا، لكنك لست مثالية كما تظنين عن نفسك..

قلت وأنا أقترب منه، محاولة استدراجه للفراش:

- لم أقل ذلك يا حبيبي، ولو كنت فأنا مثالية لأنني زوجتك.

دفعني بطريقة غريبة حتى سقطت على الأرض ثم قال:

- لا لست مثالية، أنا لا أطيق النظر في وجهك، أنظري لنفسك هل هذه الملامح جميلة، هل ملابسك رائعة كما تظنين، أنت لا تجيدين الطهي، وحتى كيانك ومشروعك فشل مرة وسيفشل كل مرة، لأنك امرأة فاشلة.

ظللت لثوانٍ أسمع كلامه الغريب، كنت أمام رجل لا أعرفه، نهضت من مكاني واتجهت لغرفتي في حالة من الصدمة، أتذكر أنني استعدت شريط ذكرياتي فجأة، كل ما حدث معي والخذلان العظيم الذي حدث في حياتي، قاومت نوبة بكاء قاسية، لأنني كنت أعلم تمامًا أن بكائي قد ينقلب ويتحول لثورة غضب وحينها سأحطم حياتي، في اليوم التالي قررت أن أبدو فاتنة أمامه، جهزت نفسي لاستقباله في أفضل صورة ممكنة، ارتديت قميص نوم أسود، لونه المفضل، العطر الذي يثيره، ووقفت في المطبخ لمدة ساعتين أعد له كل ما يشتهي من طعام، لقد تعلمت من أمي كيف أكسب زوجي وأحافظ على استقرار المنزل، هذا لا يعني اختلافي معها في الكثير من النقاط، لكنني كنت أومن أن استقرار المنزل أمر في غاية الأهمية.

أنتظرته قرابة الفجر، كنت أقاوم النوم بكل الطرق الممكنة، وأخيرًا عاد للمنزل، فور عودته نظر إليّ ببرود تام، حاولت جذبه للحديث معي رغم يقيني أنني لم أخطئ في حقه، دعوته للعشاء، لكنه قال إنه أرسل السائق لأحد المطاعم وينتظر قدومه.

- لقد أعددت لك كل ما تحبه يا أيمن..

قال:

- لا يستهويني طهيك..

قلت محاولة مجاراته:

- تحب الأسود أليس كذلك؟

نظر إلى القميص الذي ارتديه ثم قال ببرود:

- كنت أحبه حتى رأيته عليك..

- يا ثقل دمك..

فجأة نادى أحد مساعدينا في الفيلا، ثم أمره بتجهيز غرفته الخاصة، لم أفهم سر تجهيزه للغرفة، ظللت أتابع تجهيز الغرفة ثم دخل إليها وأغلق الباب، طرقت الباب ففوجئت بوجود سرير ومكتب وحافظة ملابسه وغيرها من الأشياء الخاصة.

قال وهو لا ينتظر سؤالي:

- من اليوم سأنام هنا..

سألته باستغراب عن السبب فقال:

- لا أشعر بالراحة في نومي بجوارك، أشمئز كلما رأيتك نائمة..

- تشمئز مني!

رد ببرود تام:

- نعم أشمئز منك، لا أطيق النوم بجوارك.

خرجت من الغرفة مكسورة بطريقة لم أتحملها، لقد رأيت هذه الكسرة وهذا المشهد من قبل، هي تلك الليلة التي حاولت أمي إسعاد أبي وانتظرته طويلًا على طاولة العشاء لكنه لم يأت، كنت في حالة لا يرثى لها من الحزن والضيق، مرت الليلة ومعها عشرات الليالي، لقد هجرني أيمن هجرًا تامًا، بدأت رحلة تشويهي بكل ما يملك، لقد جعلني أجلس في المنزل بكامل مستحضرات التجميل كما لو أنني كنت عروسًا ليلة زفافها، جعلني أشك في كل تفاصيلي، امرأة مثلي تحافظ وتهتم بنفسها ونظافتها الشخصية فوق مما يتصور أي شخص، ومع ذلك كان يتعمد تشويهي أمام نفسي، لم يتوقف الأمر عند هذا الحب بل كان يقلل ويسخر من إنجازاتي وطموحاتي، حتى آرائي أثناء المشاكل العائلية التي كانت تستدعيني أمه للجلوس معهم وحلها، كان يستخف بها، رغم إعجاب الجميع بها، كان يتعمد التقليل مني في كل مكان وأمام الجميع بطريقة مهينة، كنت أكتم كل هذا في روحي ونفسي، لم أتحدث مع أحد عما أشعر به، ظللت أحتفظ بكل هذه الإهانة والانكسارات النفسية أمامه على ذنب لم اقترفه من الأساس، دعني أقول لك إنه لم يترك شيئًا في نفسي إلا وحطمه وأهانه وسخر منه واستخف به.

اتجهت في هذه الفترة لأحد الأطباء النفسيين الذي قال إن أيمن مصاب بجنون العظمة، هو لا يحب أن يشعر بأفضلية شخص عنه، لا يحب أن يكون مرافقه أفضل منه، نصحني

بالطلاق من هذا المريض الذي استمر في أفعاله الغريبة ضدي، طلبت الطلاق بالفعل وكلما طلبت الطلاق منه تحول لطفل لا يريد تخلي أمه عنه، يبكي وينهار ويترجاني بالبقاء معه، يعاهدني أنه سيتغير وبالفعل يوم يتبعه يوم حتى يعود لعاداته القديمة، لقد فقدت الثقة بنفسي يا أيمن لا يمكنني تحمل كل هذا الهجر، في الوقت الذي كنت أسمع فيه كلمات المدح والثناء من الجميع، كان يتعمد هو التقليل والشك في نفسي.

- وطبعًا وأثناء لحظات ضعفك اضطررت لخيانته؟

ردت:

- لا يا سقراط لقد قاومت رغم احتياجي لمن يدعمني ويمدني بثقتي التي ففقدتها تمامًا لكنني لم أخنه، كان يستحق الخيانة لكنني لا أستحق أن أكون خائنة، مرت سنة على هذا الوضع، بينما كان يضغط ويسأل الجميع عن سبب تأخير الإنجاب، كنت أحتفظ بحقيقة أن أيمن لم يلمسني إلا مرة كل ثلاثة أشهر وفور الانتهاء من المعاشرة يدفعني بعيدًا عنه بكل قذارة ويعود لغرفته ثم يعتذر بعد ذلك وكأن شيئًا لم يكن، لكنني ومع ذلك قررت التحمل للحفاظ على استقرار منزلي من جديد، لم أعد حمل أي اضطراب جديد في حياتي، حتى حانت اللحظة التي انتهى فيها كل شيء.

راسلتني إحدى صديقات أيمن وطلبت لقائي، فوجئت بتواصلها معي من الأساس، لكنها نبهت أنها تحتاج لرؤيتي لشيء لا يستدعي التأخير..

- أين سنلتقي؟

أرسلت إليّ عنوانًا وقالت:

- سأنتظرك هنا..

- متى سنلتقي؟

- غدًا في العاشرة مساءً لكن إياك أن تخبري أيمن بتواصلي معك، صدقيني الأمر خطير، ولا يستدعي التأخير..

أنهيت عملي بالفعل واتجهت إلى العنوان، وجدتها تنتظر أسفل العقار..

- تعالى معي..

صعدنا بالمصعد وبهدوء تام فتحت باب إحدى الشقق، قالت وهي تفتح:

- أمشي على أطراف أصابعك..

كانت الشقة مظلمة تمامًا عدا غرفة واحدة..

فتحنا الباب بهدوء..

ثم..

هنا انفجرت حبيبة ضاحكة:

- بالطبع ستقول لقد رأيت أيمن مع فتاة أخرى يمارسان الحب على السرير..

هززت رأسي:

- بالطبع..

واصلت نوبة ضحكها:

- صحيح كان على السرير يمارس الحب لكن ليس مع فتاة أخرى، بل مع رجل مثله..

- ماذا؟

- نعم ما قلته صحيح يا سقراط، رأيته يمارس الحب لكن مع رجل مثله، لقد تزوجت رجلًا شاذًا.

اجتاحت حبيبة نوبة ضحك هيستيرية وبدأت في تقليد ردود فعل أيمن:

- حبيبة أرجوك.. أرجوك لا تخبري أحدًا بما رأيته..

كنت أضحك من طريقته في استعطافي وهو يبكي أمامي عاريًا، يتوسل ألا أفضح أمره..

خرجت إلى الحمام وأخرجت كل ما في معدتي، ولم أدرِ بنفسي إلا وأنا في أحد المستشفيات.

استيقظت فوجدت أمي وأبي وصديقة أيمن بجواري..

عانقتني أمي: أنا آسفة يا ابنتي أنا آسفة..

حاولت الرد عليها لكنني عجزت..

جاء الدكتور وبدأ إجراءاته في الاطمئنان علي..

تحدث معي..

لكنني لم أرد، لم أتعمد الرد عليه، لكنني حقًا لا أستطيع الرد..

حاول أبي التحدث معي لكن دون فائدة..

- ماذا يحدث يا دكتور..

نهضت مع الدكتور حتى وصلت إلى مركز الأشعة، عدت للغرفة من جديد، وحاولوا مساعدتي والتحدث معي لكنني كنت صامتة تمامً..

بعد ساعة جاء الطبيب وقال لأبي:

- صدمة عصبية، لقد فقدت النطق بشكل مؤقت، لكن الأمر لا يستدعي القلق، الهدوء فقط وسيعود كل شيء لطبيعته.

مر أسبوع ومعه مر كل ما حدث وكل ما رأيته أمام عيني، كنت أخرج ما في معدتي كلما مر على بالي مشهد أيمن مع الرجل وهما في سرير واحد، لا أبكي بل أشعر أنني أريد الضحك، الضحك الهيستري مما رأيته، شيء آخر كنت أفكر فيه.

- أنني تعبت يا سقراط..

تعبت من محاولاتي وحروبي مع الدنيا، تعبت من قوة تحملي وصمودي، تعبت من ثباتي وقدرتي على التجاوز، ألا يمكنني رفع راية الاستسلام أمام الدنيا وإعلان هزيمتي منها بشكل واضح، بأنني لم أعد قادرة على المحاولة من جديد، ألا يمكنني الهروب معترفة تمامًا بأنني استهلكت من معاركها وأنني أضعف من مواجهتها، بأنني لم أعد قادرة على التحمل، ألا يمكنني الانهيار والبكاء مثلما يبكي كل شخص ضعيف ومحطم، صدقًا لم أعد قادرة على مواصلة التجاوز والسعي والثبات، لم أعد أستطيع تحمل كل هذه الأحداث، ألا يمكنني تقديم استقالتي من العالم، والهروب بعيدًا جدًا عنه حيث السلام والهدوء، حيث حياة بلا ضغوطات، بلا التزامات أو محاولات، حياة هادئة ساكنة لا تستدعيني للتفكير، لا تجبرني على خوض المزيد من الصراعات ولا تطالبني بالصمود والتحمل، حياة كل ما فيها هو الجلوس في هدوء تام وشرب الشاي والعيش في سلام نفسي، تعبت يا سقراط من مداواتي لأوجاعي، تعبت من ترميم روحي وتعبت من التعثرات ومحاولاتي للنهوض، تعبت من فكرة أن القصة لم تنته إلى الآن وأنني وبعد كل هذه الأشياء التي مرت عليّ ما زلت مجبرة على النهوض والتعايش مع دنيا لا تحبني ولا أحبها، ما زلت مجبرة على تعامل مع الناس بكل ما فيهم من مكر وخبث ومرض، تعبت لأن الدنيا لا تعطينا رفاهية للحزن، تعبت من دعمي لنفسي وإصراري على تحقيق ذاتي، ألا يمكنني العيش في دنيا لا تطلب منا التجاوز، لا تطلب منا التعايش والتأقلم، لا تطلب منا المحاولة والسعي، ألا يمكنني العيش في دنيا كل ما فيها هادئ وبسيط، لقد استهلكتني الطرق، أنهكتني المحاولات، حطم الحب قلبي، وفشل عقلي في

استيعاب الكثيرين، لقد مللت الركض والسعي ومللت من الهزائم والخيبات، ومن دنيا كل ما فيها يستدعيك للجنون أو الخلاص أو تدفعك لظهور أسوأ ما فيك يا سقراط.

لست امرأة ضعيفة، لكنني حقًا تعبت من فكرة وفلسفة الدنيا، ولو كان بإمكاني لاعتزلت كل الناس، لهجرت الجميع، لتركت العالم ينقلب رأسًا على عقب وابتعدت عنه، لو كان بإمكاني لعشت في جزيرة وحدي، بعيدًا عن الناس.

لكن التعب رفاهية أنا ومن هم مثلي لا يملكونها، لذلك كنت أعرف أنني فور استعادة نفسي سأعود من جديد لترميمها والتعايش والتأقلم من جديد، ما دمت أحيا فالحياة لن تتوقف عن سخافاتها وأذيتها وصراعاتها معي.

تنهدت حبيبة، ثم واصلت بعدما مددت جسدها على الرمال..

بدأت أستعيد النطق من جديد بكلمات بسيطة، وأول ما سألت عنه هو مصير علاقتي بأيمن، سرعان ما أجابني أبي:

- لقد علمت بكل ما حدث، علمت أيضًا من طبيبك النفسي عما دار في حياتك، وأنا أنتظر استفاقتك حتى نلتقي بأيمن..

هززت رأسي وقلت:

- أنا مستعدة الآن..

كنت لا أعرف ما يدور في رأس أبي لكنني أثق أن أبي لن يترك الأمر يمر مرور الكرام، في اليوم التالي خرجنا من المستشفى وعدنا للمنزل، وبعدها وفي اليوم الثالث خرجت مع أبي إلى مقر إحدى شركات أيمن، ما أن رآني حتى وضع عينيه في الأرض.

- حمدًا لله على السلامة..

لم أرد عليه..

جلس أبي بجواري وأمام أيمن على الصالون الخاص بالشركة، ثم قال بشكل مباشر وهو ينظر لأيمن بعدوانية:

- طلاق بالثلاثة يا أيمن..

نظر أيمن إليّ محاولًا استعطافي:

- تريدين الطلاق مني يا حبيبة؟

لم أرد عليه، ذاك النجس القذر يتخيل أنني أطيق النظر إليه، مريض..

كرر أبي كلماته بشكل أكثر عدوانية..

وافق أيمن بعدما قال أبي بشكل مباشر:

- أيمن الطلاق بالثلاثة والموافقة على شروطنا وإلا الفضيحة وتدمير سمعتك وسمعة شركتك بشكل كامل، ربما ستصبح شحاذًا، لن تجد من يعوّل على رجل نجس وشاذ مثلك.

قال أيمن متعجبًا:

- أي شروط؟

أخرج أبي من حقيبته عقد تنازل مكتوبًا فيه..

تنازل عن فيلا زواجكما بكل ما فيها..

التنازل عن حصته في إحدى شركات أبي..

التنازل عن معرض السيارات الذي كان أبي سببًا في تسهيل بعض إجراءاته..

التنازل عن 50% من ممتلكاته الخاصة.

قرأ أيمن الشروط بتعجب لا يختلف كثيرًا عن استغرابي من العقد الذي قدمه أبي..

- هذا جنون؟

رد أبي كاظمًا غيظه:

- الجنون هو حقيقتك، لك ما تشاء إما الطلاق والموافقة، وإما تدمير سمعتك وحياتك تمامًا مثلما دمرت حياة ابنتي..

- يكفي الطلاق يا أبي..

هنا انتفض أبي في وجهي:

- لو نطقتِ بكلمة واحدة سأدفنك حية..

ابتلعت ريقي وصمت..

وقف أبي أمام أيمن، ثم قال موجهًا نظراته الحادة:

- وقوفك بجواري شرف لك، جلوسك معي على طاولة واحدة شرف لك، ما بالك أن تكون زوج ابنتي، لقد خنت الأمانة التي أعطيتها لك، بل قمت بما هو أكثر من القذارة، كونك زوجًا

لابنتي لمدة عام واحد هذا شرف له ضريبة شئت أم أبيت ستدفعها يا أيمن، سواء وافقت وأنقذت سمعتك، أم لم تدفع وقررت بنفسك إنهاء حياتك، وأنت تعلم أنني رجل لا يتردد للحظة في أخذ حقه، سواء بطريقة سلمية أو بالدماء.

لم يقاوم أيمن نظرات وتهديدات أبي..

أمسك القلم ووقع على العقد..

على الفور طلب أبي المأذون الذي كان على وضع الانتظار، وأنهى إجراءات الطلاق، لقد كان أيمن يبكي كالأطفال، لا أعرف سبب بكائه بهذه الطريقة، الرجل الأربعيني الوقور تحوّل أمام الجميع لطفل بالٍ، لم أشعر بالشفقة عليه كنت أريد الخلاص من كل هذا.

نهضت حبيبة من منامها على الفراش ثم توجهنا للسيارة، وبدأنا في التحرك وهي تواصل:

- ما أن وصلنا البيت حتى قال استدعاني أبي مرة أخرى إلى مكتبه..

"الآن أصبح لديك ثروة طائلة".

أقول لك يا سقراط أنني كنت لا أفكر إلا في شيء واحد، ولم أتردد في إخبار أبي به..

"أبي لا أريد كل هذه الثروة، أرجوك تفهم موقفي، أريد العيش في دهب".

قال:

- العيش في دهب؟

- نعم يا أبي، لقد تعبت من الحياة هنا، أريد العزلة والابتعاد عن الجميع..

بالطبع لم يكن هذا هو القرار الذي ينتظره أبي، لكنني كنت قد صممت بالفعل على السفر..

"أبي صدقني، ما بيني وبين الانتحار خطوة واحدة والأفضل لي هو العزلة التامة."

تنهد أبي:

- حسنًا لنا شركة سياحة بإمكانك إداراتها إن أردت..

هززت رأسي وابتسمت:

- موافقة..

قاطعتها لأسألها ماذا عن الأثيليه يا حبيبة؟

ردت:

- تنازلت عنه يا سقراط..

لماذا هو أحد أهم أحلامك؟

ردت:

- تنازلت عن الحلم نفسه أتعرف لماذا؟

لأننا في الحياة لا لتحقيق أحلامنا، بل لتحقيق ما تفرضه علينا الدنيا، تنازلت عن أحلامي لأنني أدركت أن كل الركض الذي ركضته طويلًا ضاع هباءً، وأنني ومهما حاولت لن ألمس لذة تحقيق الأحلام، أنا في خلاف أبدي مع الدنيا مكتوب علي الهزيمة، مكتوب علي السعي دون وصول، تنازلت عن أحلامي لأنني قمت بكل شيء ولم أحصد أي شيء، كان خطأي الوحيد أنني لم أرتكب أي خطأ، نحن نتنازل عن أحلامنا حين ندرك أننا ومهما ركضنا لن نصل لوجهتنا، نتنازل حين ندرك أننا ل نصل لوجهتنا أبدًا مهما حاولنا ومهما بذلنا قصارى جهدنا.

لم أرد على حبيبة، كنت أعرف ما تُعاني منه حبيبة، كنت أعرف ذاك الشعور القاسي الذي يجتاحك فجأة.

الانطفاء الكبير الذي يحدث لك بعد سنوات من الركض بحماسة وشغف، الانطفاء الذي يحدث لك بعدما كنت تركض بكل قوة لتحقيق أحلامك، ذاك الذي يغيرك من شخص حالم طموح لشخص باهت ويائس، بعد سنوات من الهمة والركض والتمني، يُجبرك على التوقف ويصيبك بالتعاسة واللا مبالاة، بعد أن تمشي قدمًا تكتشف بعد كل هذا الركض أنك لم تتحرك من الأساس، الانطفاء بعد سنوات من الحروب والصراعات وبعدما تكتشف أنك خرجت من كل معاركك مهزومًا منها، خالي الوفاض، بل إن نفسك وروحك يرفضان حتى القيام بأبسط المهام اليومية.

كالدراويش نترك الدنيا عمدًا لأنها تركتنا، كالمحاربين الأقوياء ننسحب من كل معارك الدنيا مهزومين منها بعدما قتلت كل أصدقائنا، كطفل يظل يروي شجرة عظيمة حتى اشتدت فروعها، وبدل ما أن تُسقط بثمارها لتطعم جوعه، زرعت أشواكها في قلبه فقتلته بدم بارد، كبحار ظل يدافع ويقاوم أمواج المحيط العالية، ظل يدافع عن سفينته أمام الطوفان، ابتلع الطوفان كل الركاب، ولم يتبق إلا هو، لكنه صمم على الدفاع، وحين انتهت العاصفة اكتشف أنه لا يزال عالقًا في قلب المحيط، بعد كل هذا الدفاع والمحاولات اكتشف أن السفينة لم تتقدم ولو قدم واحدة، فقرر إغراق السفينة بنفسه، فلقد أدرك أنه لن ينجو من العواصف ولن تتحرك السفينة من مكانها، هكذا نحن حين نقرر التخلي عن أحلامنا، نتخلى عنها بعدما ندرك أننا لن نحققها مهما حاولنا.

واصلت حبيبة:

- مر كل شيء سريعًا في هذه الفترة، فجأة استقررت في دهب وفجأة أصبحت أدير إحدى شركات أبي السياحية هنا، وفجأة أصبحت حياتي وسط هذه الطبيعة الخلابة، من حين لآخر أذهب إلى القاهرة لإنهاء بعض الأمور المعلقة بالشركة ثم أعود إلى دهب من جديد، واستقرت الحياة عند هذا الحد، وأتمنى أن يبقى الاستقرار لأطول فترة ممكنة، لكنني ما زلت أعاني يا سقراط، وهذا السبب الذي طلبتك فيه.

عدنا من جديد إلى الفندق، وهنا صعدت حبيبة معي، خلعت بعض ملابسها بعدما سألتني إن كنت أمانع في ذلك، فأخبرتها أن تتصرف بطبيعتها، جلسنا على طاولة الطعام الذي قدمه الفندق لنا في الغرفة.

كل شيء مستقر حولي يا سقراط، لكنني ما زلت أعيش في فوضى، لقد سمعت قصتي الآن أخبرني ماذا أفعل لأتعافى؟!

سألتها:

- ألم تتغير نفسيتك بعدما تغير شكل حياتك؟

ردت:

- هكذا كنت أظن لكنني اكتشفت أن الآلام العظيمة لا يداويها الزمن، لا تتغير مع تغير المكان، لا تتشفى مع خطواتك الجديدة.

الآلام تتغير في اللحظة التي يمكن للمرء أن يوجه نفسه يا حبيبة..

هزت رأسها ثم قالت:

- وأنا لم أهرب يومًا من الأشياء، لم أنعزل هربًا من الحياة يا سقراط.

لم أهرب يومًا من الأشياء، لم أنسحب يومًا من صراع، أنا في العادة شخص يحب المواجهة ويؤمن أن الاعتراف بالحقيقة أقصر الطرق للتعافي.

لكنني قررت التوقف عن المحاولة في أمور تستهلك طاقتي بلا فائدة، قررت التوقف عن الركض في طرق طويلة ومجهولة، حررت نفسي من شعور الندم الذي دفعني لمواصلة طرق وعلاقات مسمومة لمجرد ألا أصبح الطرف السيئ، أدركت أنني لست مناسبة للجميع ولذلك أي محاولة للتغير لابد أن تكون لنفسي حتى أصبح أفضل لنفسي فقط وليس للآخرين، أدركت أنني لست مطالبة بأن أكون الطرف المسؤول وأن المرء يحتاج أحيانًا أن يرخي يديه

ليرى ما سيفعله العالم لأجله، كذلك أدركت أن من باب العدل اتجاه نفسي أن أشعر بالعطاء، المقابل لكل الأشياء التي أقدمها، أشعر بلذة التضحية لأجلي أنا أيضًا أستحق، ثم إنني توقفت عن الصراعات الجانبية، فأنا لست في سباق مع أحد لاثبات أو تحسين صورتي أمام أي شخص وأن رضاء الناس غاية لا تناسبني، أنا لا أستحق كل هذا الضغط والعناء، وكما تقبلت العالم بكل تفاصيله وصفاته المزعجة، أستحق أيضًا أن أتقبل نفسي بكل ما فيها، أو أن أحدهم يحاول لأجلي، لقد قررت أن تكون راحتي وسلامي النفسي أولوية عن أي علاقة مهما كانت.

لم أهرب يومًا من الأشياء يا سقراط، لكنني أرخيت يدي قليلًا وجلست في مكاني أتابع العالم وأنا أقول: "ليس عليك أن تحمل العالم على عاتقك اليوم".

قلت:

- وأنا اتفق معك لكنك في الوقت نفسه لا تعرفين ماذا تنتظرين من العالم؟

- ينصلح الحال لأجلك، تتغير مفاهيم الدنيا لتناسب مفاهيمك؟

- رغم قوتك وشخصيتك العنيدة إلا أنك كنت أضعف من تحمل هزيمتك من العالم، تعرفين لماذا؟

- لأنك رفضت الاعتراف بشكل كامل بالهزيمة، لم تلق لومًا على أحد، لكنك لم تواجهيها بأخطائها، لم تعترفي أن عنادك كلفك الكثير من الخسائر، لم تميلي على شخص لتستفيدي من خبرته في الدنيا، بل قررت وضع قلبك وروحك كبش فداء أمام الدنيا في سبيل التعلم، على طاولة المفاوضات مع الدنيا قررت المغامرة بنفسك والوقوف أمام المدفع، أنت شجاعة وقوية وعنيدة، لكنك لا تحبين نفسك يا حبيبة، والإنسان حين يكره نفسه لا يمكنه مصالحة العالم، يبقى في خلاف أبدي مع الدنيا، ما دمت في خصام مع نفسك ستبقى في خصام مع الدنيا.

- لن تتعافى ما دمت تريدين تغيير العالم، وترفضين تغيير نفسك.

ردت:

- ومن قال إنني لا أريد تغيير نفسي، صدقني أنا أحاول..

سألتها:

- هل حاول أحد الاقتراب منك؟

ردت:

- وما أكثرهم..

سألتها:

- ولماذا ترفضينهم؟

قالت:

- لأنني لست مستعدة لدخول شخص جديد في حياتي، يمكنني التعافي بنفسي.

رددت:

- أحب هذا المبدأ لكن في بعض الأحيان لا يمكن للمرء أن يتعافى ذاتيا، ما دام المرء في خصام مع نفسه لن يتمكن من مساعدتها، لا يمكن للمرء أن يتعافى في نفس البيئة التي أفسدت قلبه، فما بالك لو كانت البيئة الفاسدة هي قلبه، لن يمكنك التبرؤ منها والهروب بعيدًا عنها، في بعض الوقت يحتاج المرء لإصلاح نفسه بعيون الآخرين يا حبيبة، لذلك خلق الله الحب.

لننجو به من بعض العواصف التي قد تبتلعنا، ليهون علينا مأساة الدنيا، لنتجاوز به ومعه أيامنا الصعبة، لنخفف من أثقالها علينا، ولنتعافى من بعض الوصمات التي تركتها الدنيا لنا.

قالت:

- كيف أسمح بدخول شخص في حياتي وأنا كل يوم أفكر في الانتحار؟

ابتسمت ثم قلت:

- قبل عشر سنوات كان هناك شاب مصاب باضطراب ثنائي القطب، مع ميول انتحارية في غاية العدوانية، لقد قام بكل شيء ليتعافى أو لتخف حدة الرغبة في الخلاص، لكنه فشل فشلًا ذريعًا، وذات يوم قرر الخلاص من حياته، كانت ليلة شتوية كئيبة في ديسمبر، خرج من المنزل واتجه إلى الشاطئ وسط سيول الأمطار، عازمًا الإبحار حتى يبتلعه البحر، وما أن خطت قدماه الشاطئ واتجه مقررًا اللا عودة، وبعد أن لمست المياه قدميه، سمع صوت حيوان يستغيث، التفت وراءه فوجد كلبًا صغيرًا جدًا، يبكي من قسوة البرد وهطول الأمطار عليه، تجاهله ومضى في طريقه، لكن استغاثة الكلب هزت روحه، فعاد إليه ثم خلع قميصه وبدأ في تدفئة الكلب، الذي هدأ فور شعوره بالدفء، ظل الشاب يُداعب الكلب الصغير حتى ظهرت الشمس فقرر تركه على الشاطئ ثم استدار واتجه إلى البحر من جديد،

فجأة ركض الكلب نحوه وبدأ في السباحة معه، مع الأمواج العالية، كاد الكلب يغرق بينما كان الشاب يشاهده من بعيد، مع الأمواج القوية عاد مرة أخرى الشاب إلى الكلب لينقذه من حياته، وهنا بدأت قصة الحب بين الشاب والكلب الصغير، والذي أطلق عليه اسم "مايو"، عاد الشاب إلى بيته بصحبه الكلب، يوم، يومين استولى الكلب على اهتمامات الشاب البائس، حتى أصبح جزءا أصيلًا من يومه، وذات يوم قرر الشاب من جديد الوقوف على سور شرفته وتوديع الدنيا، تابعه الكلب وجلس على الأرض يتابعه، وقبل أن يسقط الشاب فكر..

"من سيعتني بهذا الصغير، من سيطعمه، من سيهتم برعايته، من سيلعب معه، ماذا لو هرب إلى الشارع ماذا ستفعل به كلاب الشوارع، ماذا لو سقطت الأمطار من جديد، من سيهتم بتدفئته، من سينقذه من سخافة وعدائية أطفال الشوارع؟".

نظر الشاب البائس إلى الكلب ثم عانقه..

- لا أستطيع تركك وحدك يا مايو..

- وهنا تخلى الشاب عن فكرة الانتحار، تعرفين لماذا يا حبيبة؟

لأن أصبح في حياته شيء ما يدفعه للبقاء..

- هذه هي فكرة الحياة نفسها، أن يكون في حياتك من تعيش لأجله يا حبيبة.

- صدقني لقد حاولت يا سقراط، لكنني لم أجد ما يمكنني الوثوق به مرة أخرى، لم أجد الشخص المناسب لحياتي.

قلت:

- لأنك لا تعرفين ما الذي يقوم به ليجعلك تثقين به يا حبيبة، دعيني أسألك ما المواصفات التي تمتلكينها ليقع أحدهم في غرامك، أو يختارك لتكوني شريكة حياته؟

بالطبع لا تملكين إجابة معينة، لأنك لا تعرفين ما يمكنك تقديمه للآخرين فبالطبع لا تعرفين ما الذي تحتاجينه في شريك حياتك، حسنًا تحتاجين لشخص يجعلك تثقين فيه، لكن هل سألت نفسك عما تملكينه أيضًا؟ أقصد من حقك وضع مقاومات ومواصفات لشريك حياتك، لكن قبل أن تطلب وتبحث وتسأل عليك أن تجلس مع نفسك وتسأل ما الذي تملكه ليجعلك مناسبًا لشريك حياتك، ما دمت لا تعرف مميزاتك لن تحصل على من يوفي احتياجاتك، الأمر أشبه أن تكون جائعًا وتدخل مطعمًا، ستقف أمام قائمة طويلًا لتبحث عن وجبة تناسبك، لكنك لا تعرف ما الذي يناسبك، لذلك سيطول الوقوف أمام قائمة الطعام، في النهاية قد تمل وترحل وأنت جائع لأنك لا تعرف ما تشتهي نفسك وما تستطيع دفعه، هذه

بالضبط فكرة العلاقات، أن تعرف نفسك قبل أن تطلب من الآخرين أن يعرفوك ويفهموك.

- وماذا عن الماضي يا سقراط، كيف يمكنني التعايش مع الماضي؟

قلت:

- الماضي هو جزء أصيل من حاضرك يا حبيبة، لا يمكنك التبرؤ من الماضي أو الهروب منه، الماضي هو جزء أصيل منك يا صديقتي، لولا الماضي لمَ تعلمنا كيف نتعايش في الحاضر، لولا الماضي لما تألمنا ومن لم يتألم لن يتعلم، عليك أن تتباهى بماضيك مهما كان سيئًا، انكساراتك التي حدثت لك في الماضي ستكون سببًا في صلابتك فيما بعد، خيباتك التي حدثت لك ستكون سببًا في انتصاراتك فيما بعد، المواقف التي حطم قلبك فيها لو تكررت ستكون سببًا في تجاوز مواقف أشد صعوبة فيما بعد، الخبرة التي نكتسبها من التجارب أهم وأفيد من تلك النصائح والإرشادات التي نكتسبها في الكتب ومحاضرات التوعية، الماضي يشكل شخصيتك وصفاتك واختياراتك، الماضي هو أنت في الحاضر والمستقبل، كل هذه التجارب التي حطمتك لولا ما كنت تعلمت أبدًا من الدنيا، خطأك الأعظم أنك وفي الماضي اندفعت بكل قوة أمام الدنيا، وحتى هذا الخطأ الكبير لولا ما كنت تعلمت أبدًا.

تنهدت حبيبة ثم سألتني:

- أومن أنني لم أستحق يومًا كل هذه الأحداث، لم يكن قلبي يستحق أن ينال الحطام منه.

- الكثير منا لم يكن يستحق أن يتحطم قلبه يا حبيبة، كان للمحب المغامر أن يصل لمحبوبه بعد مغامرته الطويلة، وكان يحق للحالم أن يحقق أحلامه بعد سنوات الركض والسعي، كان يحق لطيب القلب أن يعاشر من يشبهون قلبه، الوفي كان يستحق من يوفي معه، واللطيف كان يستحق اللطف لا القسوة والجفاء، والمسالم كان يستحق أن يعيش حياته هادئًا.

- لكن من قال إن الدنيا تسير بهذا المنظور الساذج، من قال إن العدل والحق جزء أصيل من فلسفة الدنيا وتعاملها معنا، الكثير منا كان لا يستحق كل الأحداث التي حدثت معنا، لكن ما فائدة البكاء واللوم على ما لم ترده علينا الدنيا به، صدقيني هي دنيا بكل ما فيها، من لحظات حلوة ولحظات مرة.

- لا تصدق أن كل الأشياء السيئة قد حدثت لك..

- صدقني في اللحظة التي ستؤمن فيها أن الأشياء السيئة قد انتهت..

ستجد الأسوأ يقف على بابك مبتسمًا ويقول:

- مساء الخير، أنا أسوأ من أسوأ الأشياء التي حدثت لك، وظننت أنها انتهت..

لذلك رديها دائمًا "الأسوأ لم يأتِ بعد."

وما عليك إلا الاستعداد لها يا حبيبة.

- تعرف يا سقراط، أحيانًا أتساءل ماذا لو كان أبي رجلًا سوي نفسيًا، ماذا لو اهتم بنشأتي، ماذا لو كانت أمي امرأة قوية لتواجه أبي، ماذا لو كان هشام رجلًا سويًا بما يكفي ليفي بعهده، ليحافظ على الأمانة، ماذا لو كان أيمن رجلًا سويًا أيضًا، حاول وسعى معي للحفاظ على استقرار منزلنا، أحيانًا أتساءل ماذا لو تغيرت الحياة، ماذا لو لم يقوموا بكل هذه الأفعال، ماذا فعلت أنا ليصحبوا بهذه الطريقة والقسوة والشخصية التي أذت قلبي وحطمته؟

قلت:

- ولن تجدي إجابة لكل تساؤلاتك، أهل الغلام الذي قتله سيدنا الخضر عاشوا حياتهم يدعون على القاتل، يبكون على ابنهم الذي قُتل بلا ذنب أو سبب، أهل السفينة التي أعابها الخضر عاشوا طوال حياتهم، يتمنون لو تعثروا بهذا الرجل الذي خرب سفينتهم، تخيل أنهم عاشوا وماتوا لا يعرفون الحكمة من الخراب الذي حدث في حياتهم، ولن يعرفوا إلا يوم العرض، بهذه البساطة والفلسفة.

الحكمة هنا كانت في الصبر واليقين أن كل الأشياء التي حدثت، قد حدثت لشيء ما لا يعلمه إلا الله، كل ابتلاء قد أصابك قد يكون نفسه نجاك من ابتلاء أشد قسوة ومرارة، قد تقضي عمرًا تبحث عن كل هذه التساؤلات ويفنى بك العمر ولم ولن تجد الإجابة، لولا كل هذه الابتلاءات لمَ وجد الصبر واليقين لمَ كانت لليقين والإيمان بالغيب قيمة ومعنى.

أما البحث عن السبب الذي يجعل الشخص المؤذي يؤذينا..

فالبحث عنه أشبه بالركض وراء الدخان محاولًا الإمساك به، ليست مسؤوليتنا البحث عن الأسباب التي دفعت شخصًا ما لأذيتنا، لكن مسؤوليتنا أن نحمي قلوبنا من أي أذى متوقع، ونتعافى من الأذى الذي حدث، ليست مسؤوليتنا أن نلتمس عذرًا للأذى، مسؤوليتنا أن نتعلم من الأخطاء التي ارتكبناها، والتي جعلتنا عرضة للأذى، ليست مسؤوليتنا أن نفهم أسبابهم، مسؤوليتنا أن نرمم حطامنا ونراجع مواقفنا التي أدت لشعورنا بالأذى، علاجهم أيضًا ليست مسؤوليتنا، تعافينا وحدنا هي مسؤوليتنا، أنا لا أهتم بالأسباب التي جعلت شخصًا ما يؤذيني، في النهاية هذا الشخص سيرحل ويواصل حياته، لكنني أهتم ومجبر على معرفة الأخطاء التي قمت بها لتجعلني أتأذى فإن لم أتعلم منها سأعيش حياتي عرضة لهذا النوع من السموم.

سألت:

- ماذا لو لم ارتكب خطأ من الأساس ليتأذى قلبي؟

ردت:

- الخطأ المقصود هنا أنك حتى لو لم ترتكب خطأ في حق المؤذي، فثقتك التامة خطأ فاضح، الوثوق الكامل خطأ فاضح، الاندفاع بكل مشاعرك خطأ كامل، المراهنة بشكل كامل خطأ أيضًا، أن تكون مخطئًا لا يعني أنك أخطأت في حق غيرك، أحيانًا يكون الخطأ الذي ارتكبته هو الخطأ في حق نفسك.

- هل سأتعافى بشكل كامل وأعود كما كنت قبل كل هذه الأحداث؟

سألتني فأجبت:

- لا يوجد ما يسمى التعافي بشكل كامل يا حبيبة.

الندوب التي تتركها العلاقات المسمومة، الجراح التي تحدث من الأحباء، كسرة القلب التي حدثت نتيجة للخيبة والخذلان، قد يداويها الزمن، لكنها لا تمحى أبدًا، ستبقى آثارها في حياتك، إن لم تعد تؤلمك فهي ستعيد تفكيرك اتجاه الكثير من الأمور، ستتغير مفاهيمك رغمًا عنك، ستتغير نظرتك وآراؤك، ستعيد النظر في تصرفاتك من جديد، لن تتعافى بشكل كامل ولن تعود كما كنت أبدًا، هذا لا يعني أنك ستقضي أيامك مكسورًا وحزينًا، بل سيداوي الزمن أثر الجراح، ستتعايش مع أفكارك الجديد بآثار ما حدث، ستصبح لك أفكار جديدة، خطواتك لن تدفع كما كانت، عطاؤك قد يكون أكثر نضجًا لكنه لن يكون بنفس السذاجة والطفولية التي كنت عليها قبل الأزمة، قد تقع في الحب مرة أخرى، ويأسرك أحدهم لكنك لن تحبه نفس الحب القديم الذي كنت تحبه بكل مشاعرك وتلقائيتك وعفويتك، وهذا لا يعني أنك شخص سيئ بل لأنك تألمت لتتعلم وتنضج كيف تتعايش مع الدنيا.

لا يوجد ما يسمى بالتعافي الكامل يا صديقتي، فكل موقف حطمك ستبقى آثاره حتى لو كان سببًا في تغييرك للأفضل، لكن ستبقى آثاره بكل بساطة، أي تسعى للعودة كما كنت قبل أن تحطم وتهزمك الدنيا فالمدينة التي ضربتها الحرب لن تعود كما كانت مشرقة فحتى لو تغير كل ما فيها، تبقى آثار دماء القتلى عالقة في أرضها وهوائها وجدرانها، أسعى فقط لتتغيري للأفضل، وصدقيني مع مرور الأحداث التي سخطت عليها في الماضي، ستشعرين بامتنان لها في المستقبل، لأنها جعلتك أكثر نضجًا وقوة.

اقتربت مني حبيبة ثم قبلتني:

- أتمنى أن تجمعني الدنيا بك مرة أخرى، لكن تأكد إن لم تجمعنا الدنيا، فالخطأ لم يكن خطأي، بل إن رغبتي في الخلاص كانت أكبر من مواجهتي للدنيا.

- سيكون كل شيء على ما يرام يا حبيبة..

- أنا أثق بك.

انتهت جلساتي مع حبيبة..

ومعها قررت العودة إلى القاهرة بعد رحلة استمرت قرابة الثلاثة أشهر، تعلمت فيها الكثير من الأشياء التي لن تنسى أبدًا، والأهم أنني استطعت مواجهة نفسي ببعض الذكريات التي كانت تطاردني في كل مكان، الآن يمكنني العودة حيث الحالة الأخيرة.

"ياسين".

# الفصل الحادي عشر

"إن الحياة ثلاث مراحل: اعتقادك أنك سوف تغير الدنيا، إيمانك بأنك لن تغير الدنيا، وتأكدك من أن الدنيا قد غيرتك."

سارتر..

عدت للقاهرة لكن كما أردت بالضبط لم أخبر أحدًا بأنني قد عدت، كنت في حاجة لمواصلة الهدوء والسكينة ومحاولة استعادة روحي ونفسي، الخروج من هذه الأزمة بأقل ضرر ممكن، لكن كانت في الخطة لقائي بـ"ياسين"، من بين كل الحالات التي قمت بالإنصات والإشراف لها ربما هذه هي الحالة الوحيدة التي أحببت الاستماع لها، ربما لما تربطني به من أحداث وذكريات قديمة، ربما لأنني أحببت قصة هذا الشاب الذي عانى كثيرًا في الدنيا، ربما لأنه.

من حبل أفكاري قاطعتني رسالة - إليزا :

- عدت للقاهرة؟

نعم..

أخبرتها بما حدث معي في دهب، عن حالة حبيبة وما كانت تعاني منه، وردودي ونصائحي لها..

سألتني :

- لقد جلست مع ثلاثة أشخاص، ترى أيّ منهم قد يخطو خطوته ناحية الانتحار؟

قلت:

- العامل المشترك بين الثلاث حالات هو "التجاهل" الجوهري للحقيقة، كما قلت لك من قبل أن هروب الإنسان من مواجهة نفسه قد يؤدي به إلى الانتحار حين يلتقي بها بعد خراب مالطا، التشبث المفرط بالأمل قد يدفع المرء للانتحار، واليأس والكآبة قد تغرقه في عمق اللا هوية، العطاء المفرط قد يعلم المرء الجفاء ويحطمه حتى يكتب شهادة وفاته، والثقة المطلقة قد تنقلب للتشكيك في كل شيء حوله بما في الشخص نفسه، التجاوز المتكرر قد يجعلك أثير نقطة للتوقف لن تتحرك بعدها أبدًا، خوض المعارك بكل ضراوة قد يحطم رأسك ويفتك بك، التحديات التي لا تنتهي تقتل المرء أيضًا يا إليزا، التطرف في العطاء، المبالغة في الحب، العناد الطويل، التشبث القوي، أن تتعايش مع الدنيا بكل ما فيك حتمًا ستنال منك،

وشخصيًا أرى أن الثلاث حالات قد ارتكبت وتعايشت مع الحياة بنفس الفكرة والمبدأ، لذلك فلا أستبعد أن ينتحر أي منهم في أي لحظة، لكنني على الأقل حاولت.

قالت إليزا:

- أعجبني أنك حاولت إقناع حبيبة بالإيمان، رغم يقيني أن الإيمان لن يغير شيئًا.

رددت:

- الإنسان يولد مؤمنًا يا إليزا، تخيل فكرة أن تعيش حياتك بلا أي أمل أو إيمان أن هذا الوضع سيتغير، فكرة مزعجة قد تدفعك للانتحار أيضًا، أنا لا أحب أن أقول نصائح دينية لكنني لا أنكر أن الإيمان الذي يحمله المرء في قلبه اتجاه المواقف السيئة، وأنها قد تتغير يومًا ما، قد يكون السبب الوحيد لبقاء الإنسان على قيد الحياة، الصبر أيضًا قد يكون هو السبب الوحيد للبقاء، أن تصبر على الأيام السيئة لإيمانك بأن ثمة أيامًا رائعة تنتظرك، أن تصبر على البلاء لإيمانك بأن الله جعل البلاء ما هو إلا فترة اختبار لقوتك وثباتك، أن الله ابتلاء ليمنع عنك ضررًا أكبر، أن الابتلاء ما هو إلا المرحلة الأخيرة قبل الفرج.

واحدة من أهم وأشد الاختبارات التي يتعرض لها الإنسان، أن يتحلى بالصبر أمام مواقف تستدعي للانتحار، يصبر على هجر أشخاص سعى بكل طاقته لبقائهم، أن يتحلى بالصبر على أوضاع قاسية فرضت عليه، يقاوم فكرة الانهيار أمام مواقف تدفعه بكل قوة للخلاص، أن يتحلى بالصبر وتقبل أحلامه وهي تنهار أمام عينيه ولا يقدر على إنقاذها رغمًا عنها، أن يتحلى بالصبر على ضيق الرزق في أشد حاجته للفرج، وأن يتحلى بالصبر على الحزن الكبير في قلبه، رغم تمنياته أن يعيش وينعم بلحظات سعادة وفرح، أن يتحلى بالصبر على فتراته السيئة التي لا تنتهي رغم غياب كل الدلائل، التي تبشر بأن هذه الفترة السيئة ستنتهي، لكنه يؤمن ويصبر عسى تبتسم أقداره يومًا ما.

ردت إليزا متجاهلة كلماتي:

- أعرف أنك تنتظر لقاءك مع ياسين لأسباب شخصية.

قلت:

- نعم، أحب هذا الرجل ومتشوق للاستماع له..

قالت إليزا:

- لو كنت مكان حبيبة..

تأخر الوقت وياسين ينتظرني غدًا، لذلك اضطررت لإنهاء المحادثة مع إليزا، وغدوت في نوم عميق.

مركب صغير في عرض المحيط، على متنها..

أحمد ياقوت بقبعته الكلاسيكية، يدخن السيجارة الكوبي، وكأنه يجلس في أحد مقاهي وسط البلد، يتصفح ألبوم صور ذكرياته، ومن بين كل صورة يبتسم وكأنه يستعيد مشاهد وذكريات كل صورة، فرح تجلس على حافة المركب تتابع تصاعد الأمواج، تترك قدميها تداعب المياه ثم ترفعها بسرعة، حبيبة بملابسها المكشوفة تكتب في دفتر أشبه بدفتر اليوميات، بينما هناك في الركن البعيد يقف ياسين أمام لوحته المبهجة، يلطخ بالألوان في ورقته البيضاء ثم يقول "رائع.. رائع" ويواصل.

إنهم يجتمعون على مركب واحدة لكن تشعر وكأن كل منهم لا يرى الآخر، لا يتحدث معه، كل منهم وكأنه في واد غير الوادي، اقترب منهم على حدة لكن لا أحد يراني.

فرح التي كانت تصرخ من حين لآخر "عد للمركب يا شرف الدين."

"سنفشل مرة أخرى، ماذا سيقول أبي عن تكرار فشلي"، هكذا كانت تردد حبيبة وهي تفكر في المعدلات الحسابية التي تقوم بها، بينما كان ياقوت يواصل ابتسامته وهو يردد: "أنت أفضل ممثل في مصر يا رجل"، ياسين وكلما امتلأت الورقة بالألوان، يمزقها ثم يقول لنفسه: "لا يهم سنعود أفضل"، فجأة ارتفعت الأمواج وقد بدأت تقسو على المركب، ظل الثبات يسيطر على ضيوفها وكأن شيئًا في المركب على وشك الغرق، حتى وقف ياسين وكأنه يريد قول شيء ما، ثم تنهد وعاد لكراسته".

ظلت الأمواج تحطم المركب الذي كان يتهاوى تمامًا، بينما واصل الجميع ثباته وصمته..

هنا صرخت في وجوههم..

- ألن يستطيع أحد إنقاذنا..

ابتسمت حبيبة ثم قالت:

- أنا سأتكفل بهذا الأمر ثم أعطت للجميع سترات النجاة..

هنا ردت فرح:

- عاهدوني أن نسبح معًا لا أريد الإبحار وحدي..

قاطعها ياقوت:

- إن لم نمت غرقًا سنموت من قسوة الصقيع..

قال ياسين في هدوء تام رغم ارتدائه السترة:

- لقد وصلت إلى هنا بعد عناء، لا أملك طاقة للنجاة فليحدث ما يحدث.

اشتدت الأمواج حتى غرق المركب تمامًا، سقطت معهم في المياه، وما أن رفعت عيني محاولًا متابعتهم لاحظت ثلاثة منهم فقط يحاولون النجاة، بينما اختفى الرابع، فشلت في تمييز الثلاثة والفرد الناقص بينهم، أحدهم قد غرق بالفعل.

فجأة سمعت صوتًا من خلفي "سقراط صدقني لن ننجو أبدًا ".

- صباح الخير يا سراج بيه..

- لن ننجو أبدًا..

- ماذا تقول؟

استوعبت أنني كنت في حلم، لقد رن الهاتف وطلبني المكوجي يخبرني أن الصبي يقف عند الباب منذ نصف ساعة ولم أفتح له.

- أعذرني يا عم محمود، حالًا سأخرج له.

أغلقت الهاتف، استلمت القمصان من الصبي، ثم عدت للغرفة أردد: "لن ننجو أبدًا".

أعددت فنجان القهوة ثم ارتديت ملابسي مستعدًا للقائي بياسين، شاب في بداية الأربعينات، لا أقول إلا أنه مجرد شاب لأن طريقته في الكلام وشخصيته لا يزال شابًا في منتصف العشرينات لا من المفترض أن يكون رجلًا ناضجًا في الأربعينات، هو يعمل في أحد أكشاك وسط البلد، لا أعرف اسم الشارع بالضبط، لكنني أعرف كيف أصل إليه، انطلقت بسيارتي ثم وقفت أمام الكشك، ما أن رآني حتى خرج.

- أهلًا أهلًا سراج بك..

عانقته عناقًا طويلًا، لم نلتق منذ زمن طويل يا ياسين.

ضحك ضحكته العالية الساخرة:

- ما زلت مصمصًا؟ حسنًا لن أناقشك، انتظر دقائق حتى يأتي صاحب الكشك وأذهب معك..

جلست لدقائق أنتظره حتى جاء صاحب الكشك، أستلم منه الكشك ودعه يرحل كان يقول

بصوت عال وهو في طريقه إلي "ياسين بك اعذرني على التأخير يا صديقي"، يرددها بصوت عال وكأنه يتباهى بي أو يريد إخبار أصدقائه البائعين أنني صديقه، ظللت أضحك على طريقته، ركب ياسين بجواري "السيط ولا الفنى يا دكتور"، وضحكنا ثم انطلقنا لأحد مقاهي وسط البلد.

"قهوة زيادة يابو خليل ونسكافيه وصاية للدكتور".

أخرج سيجارة من علبته ثم قال:

- الدخان يحب المشاركة يا دكتور..

أخذت منه السيجارة حتى جاء النادل بالطلبات..

- كيف حالك يا دكتور؟

أعترف أنني لم أتحدث مبتسما مع أحد مثلما أتحدث مع ياسين:

- أنا بخير، كيف حالك أنت؟

- حياة لا تسر عدوًا ولا حبيبًا يا دكتور، أتمنى لو ألقي حياتي على أحد وأهرب بعيدًا عنه..

ضحكت ثم سألته:

- وكيف تتعايش مع الدنيا يا ياسين؟

قال وهو يرتشف فنجان قهوة:

- حياة بنت عفاريت يا دكتور، تهزمنا مرة ونهزمها مرة، تكسرنا ونكسرها، تعاند فنعاند معها، مرة تضحك فنصدق ضحكتها فتخدعنا، ومرة تخدعنا فنشك فيها فتطمئننا، مرة تحبنا ومرة تؤذينا، وبنحاول نجاريها ونراضيها لأجل ترضى عنا.

- ألم تتزوج بعد؟

- زوج؟ يا دكتور أنا أتكفل نفسي بصعوبة بالغة، زواج يعني دهب ومهر وشقة ومصاريف يومية، دكاترة ولبن للأطفال وحفاضات وملابس عيد صغير وملابس عيد أضحى، ومدارس ودروس، الله الغني يا دكتور.

قلت موافقًا على جزء من كلماته:

- لكنك تحتاج لهذا الجزء في حياتك يا ياسين..

قال وهو يرتشف الرشفة الأخيرة:

- احتجت للزواج بعد العملية، لقد خرجت من المستشفى وحيدًا تمامًا، لا أحد يعرفني ولا أعرف أحد ولا أتذكر إلا تفاصيل الحادث، لقد أخبرني الدكتور أنه طوال فترة الغيبوبة لم يزورني ولم يسأل أحد عني وما زاد الطين بلة حين أخبرني أنني تعرضت لفقدان جزئي في ذاكرتي ربما هو الجزء الأكبر، وسيحتاج الموضوع وقت لأستعيد ما فقدته شرط الراحة والهدوء.

ضحك ياسين وواصل:

- الراحة والهدوء يحتجان لمنزل ومصدر دخل، وأنا لا أملك حق شراء سجائري يا دكتور.

سكنت الشوارع لأيام طويلة، الرصيف هو سريري، صندوق القمامة هو الأوبن بوفيه، والشوال غطائي الذي يحميني من البرد، قضيت فترة أقضي النهار بحثًا عن العمل، وفي الليل رحلة البحث عن مكان يؤويني حتى الصباح.

ومع مرور الوقت قررت أن أعمل "سايس" في أحد شوارع مصر الجديدة، المكان الذي التقينا فيه يا دكتور، ورغم أنها مهنة من لا مهنة له، ورغم فظاعتها عند أغلب الناس، إلا أن أسلوبي وطريقتي في التعامل مع الناس جعلتني شخصًا محبوبًا بينهم، ظللت لفترة أعمل في الشارع حتى عرض عليّ أحد ملاك إحدى العمارات المعروفة هنا، العمل في أحد العقارات كحارس لها بالعمارة والمبيت في غرفة الحراس في العمارة، هي فرصة ذهبية لا تعوض.

وافقت على الفور، وبدأت حياتي الجديدة، بدأت حياتي بطريقة رائعة بالنسبة لي على الأقل فكنت لا أعرف كيف كانت حياتي من قبل لكنني على الأقل أملك، مأوى، وطعام، ووظيفة، متطلبات الحياة الطبيعية.

عام كامل بدأت رحلة التعرف على نفسي، أحب الهدوء أكثر من الضجيج، أستمتع بقضاء وقتي في المشي والرسم والغناء، أحب التخطيط وأحب التلوين، وأحب مشاهدة المباريات، اكتشفت أيضًا أنني شخص قوي سريع التأقلم والتعايش مع الوضع، لكن ترى كيف كانت حياتي القديمة، ما كنت أومن به أنه قبل اكتشاف نظام حياتي علي اكتشاف نفسي أولًا.

قضيت قرابة سنة كاملة أحرس العقار، يعتمد السكان عليّ في شراء مستلزماتهم اليومية، ومن حين لآخر أسرق وقتًا لنفسي وأرسم، وذات يوم ذهبت لشراء بعض مستلزمات أحد السكان، وقفت أمام إحدى العربات المتجولة التي تبيع الخضار، كانت صاحبتها فتاة معروفة في السوق، سمعت عنها أن بضاعتها مميزة، لكنني لم أشتر منها أبدًا لسبب لا أعلمه.

في هذا اليوم ذهبت للعربة: بخمسة جنيه نعناع..

وقفت الفتاة تتأملني لثوانٍ: بخمسة جنيه نعناع يا حاجة؟

رددت بسخرية وهي تعاين جسدها: حاجة! حاجة إيه يا قلب ماما، حاجة بالجمال والحلاوة دي، اسمي نعناعة، صحيح رجالة عديمة النظر.

ضحكت ثم قلت: بخمسة جنيه نعناع يا نعناعة.

أعطتني ما أردت ثم قالت: الحساب عليا، أجمعهم وأذهب بهم لطبيب يكشف لك نظر.

ضحكت لها، ثم مضيت في طريقي.

وبعد نهاية يومي كانت عادتي أن أذهب لأحد "أكشاك" الشاي المطلة على النيل، أشرب الشاي وأتسلل من بين الحواجز حتى أجلس على إحدى الصخور القريبة جدًا من المياه، في الظلام الكالح وصوت أم كلثوم الصادر من مذياع الكشك، الهدوء والسكينة ومحاولة تذكر كيف كانت حياتي القديمة، فجأة سمعت صوت فوضى في نفس المحيط، كانت لفتاة تصرخ: "إن لم ترحلوا سألقي بأجسادكم في النيل طعامًا للسمك"، في العادة أنا لست شخصًا فضوليًا، فالمأوى الذي أستكن فيه وأبعد به عن ضجيج العالم،هو نفسه مأوى لأطفال الشوارع والمتسولين والمشردين أولئك الذين كنت منهم، واحدًا من عائلاتهم قبل ثلاث سنوات، لكن هذه المرة دفعني الصوت فنهضت واتجهت ناحيته بصعوبة بالغة وسط الظلام رأيتهم في حالة سكر يحاولون التعدي على فتاة، تقف بينهم وتمسك بيديها سكينًا صغيرًا، تنتظر اقتراب أي منهم لتبدأ قتالها معهم، ظللت أتابع الموقف من بعيد حتى انقض عليها أحدهم، وبدأ الآخر في الإمساك بالسكين الصغير الذي كانت تمسكه، سقط السكين بالفعل وبدأ الشابان في محاولة اغتصابها، هنا انطلقت نحوهما، وبدأت في لكم الأول ودفع الثاني، استمر القتال حتى أمسكت الفتاة السكين الذي سقط من يديها، سلخت أحد الشبان على ظهره فانتفض الشاب وبدأ بالصراخ، ثم أمسكت به ووضعت السكين على رقبته وهي تهدد زميله، إن لم يرحلا ستقتلهما.. سنرحل سنرحل.. هرب الشابان بينما الدماء كانت تسقط من رأسي نتيجة للخدوش التي حدثت من سكين كان يملكه أحد الشابين، نظرت للفتاة: "يقطع خبرك، يا عديم النظر، ما الذي جاء بك إلى هنا.. "نعناعة".

أخرجت من جيبي الخمسة جنيهات وأنا أضحك:

- أجمعهم واشتري لنفسك مسدسًا يحميك من البلطجية.

ثم أدرت ظهري لها وأنا أضمد جراحي وعدت لمأوي، تابعتني نعناعة من بعيد..:

- يا اسمك إيه، أنت يا راجل يا عديم النظر.

ظلت تتبعني ثم جلست بجواري وما أن رأت الدماء تنزف مني حتى هرولت ناحية الكشك وبعد دقائق، جاءت حاملة البن ووضعته على رأسي ثم خلعت حجابها وربطت رأسي..:

- الجرح بسيط لا يستدعي كل هذا.

لم ترد علي، واصلت مداوة جراحي ثم تأملتني من جديد وقالت:

- يقطع الحب وسنينه، ملامحك تذكرني بالحبيب الغائب..

رددت:

- لم يكن في وسامتي..

قالت مدافعة عنه:

- قطع لسانك، لا يوجد رجل في وسامته وشهامته، كان راجل يملى عين الشمس، مهندس قد الدنيا، تقارن نفسك به يا جربوع يا شحاذ..

قلت وأنا أضحك:

- الله نجده منك..

ردت بنفس الدلال:

- الله حرمه مني ومن جمالي ودلالي، يقطع خبر الرجالة وسنينها..

أمسكت يدي ثم وضعتها على كتفها بعدما أخبرتها أنني أشعر بالدوار:

- تعال يا خايب الرجا، تعال أوصلك لغرفتك..

استندت عليها، بعدما شعرت بثقل في جسدي.

ظللنا نمشي حتى وصلنا للعمارة..

"أنا حارس هذا العقار"، وصلنا للغرفة ثم وضعتني على السرير برفق:

- قطعت نفسي يقطع نفسك..

استلقيت على السرير بينما نهضت هي، كانت غرفتي عبارة عن متحف لوحات صغير، ظلت تتأملها منبهرة باللوحات..

"سرقتهم منين؟ ".

رددت بصعوبة:

- سرقتهم؟ هذه رسوماتي..

- يخرب بيتك، أنت "ريشجي".

- ريشجي؟

- نعم، أقصد بتلعب بالريشة، رسام..

وقفت أمام إحدى اللوحات كانت لفتاة..

سألتني:

- من السنيورة؟

رددت:

- لا أعرف، شعرت أنني في حاجة لرسم فتاة فرسمتها.

فقالت بدلالها المعتاد:

- تشبهني، لكن أنا مثيرة عنها.

- ألا صحيح، أنت اسمك إيه؟

- يقولون حدوتة.

- يقولون!

قلت: حدوتة.

- اسم الله حارسك وصاينك..

ابتسمت لها ثم غدوت في نومي، وفي الصباح وحين استيقظت وجدتها قامت بتنظيف الغرفة وأعدت الفطار.

# الفصل الثاني عشر

"شيئان قادران على اكتشاف نفسك.. الحب والسجن "

استيقظت في موعد الوردية، بدأت في مواصلة العمل، وبدأت قصتي مع "نعناعة"..

telegram: @alanbyawardmsr

كانت علاقتنا جميلة، هي الفتاة التي أنقذت حياتها رغم تعاليها، مع مرور الوقت، أصبحت صديقتي الوحيدة، كانت نعناعة مثالًا حيًا للفتاة الشعبية التي تسمع عنها، العباءة السوداء، اليد المغطاة بالمشغولات الذهبية، "اللبانة" التي لا تفارق فمها، اللسان الغليظ، وسرعة البديهة في الرد ومهاجمة أي شخص يحاول معاكستها، كنا صديقين مقربين وبدأنا نتبادل الحديث واللقاء بشكل يومي، حكيت لها قصتي، وحكت لي أنها كانت في علاقة قديمة مع شخص ما وكان على وشك الزواج بها لكن الحياة كانت أصعب منهما، لذلك قرر أن يغادر البلاد وبعدها اضطرت هي للزواج، لكن مع مرور الوقت لم تتفق مع زوجها وطلبت الطلاق وحدث بالفعل، ومعه اختفت أخبار المحبوب الأول حتى آمنت أنه مات بالفعل، عاهدتني أيضًا أن تساعدني في اكتشاف حياتي قبل الحادث، لقد ساعدتني كثيرًا ماديًا ونفسيًا في الكثير من الأمور، في الأعياد والمناسبات كانت تقدم لي الكثير من الهدايا، رغم حنيتها التي تبدو عليها أحيانًا إلا أنها كانت تلتزم العدوانية معي والردود الجافة، ولم أكن مشغولًا في الدافع الذي يجعلها تقوم بهذه الأشياء.

في إحدى الليالي كنا نجلس على شاطئ النيل، سألتني:

- لمَ لا تفكر في الزواج؟

قلت:

- لن أتزوج وأنا لا أعرف نفسي، أعرف كل شيء عني أولًا، ثم أبدأ في التفكير في الزواج.

ردت:

- اتفق معك، لكن تعرف ليس لأنك لا تعرف نفسك، بل لأنني أومن أن الحياة التي تعيشها الآن لا تشبه حياتك الحقيقية قبل الحادث يا حدوتة.

نهض ياسين وقال للنادل:

- الحساب على النوتة يابو خليل، دعنا نتمشى قليلًا..

خرجنا من المقهى ثم بدأنا سيرنا في شوارع وسط البلد، دخل أحد محلات المستلزمات الصناعية، وخرج ماسكًا في يديه "ورنيش" ثم واصلنا السير:

- لقد اكتشفت أيضًا أنني أجيد الرسم وكتابة العبارات والمتعة في كتابة العبارات العشوائية على جدران المدينة.

توقف عند إحدى الجداريات وكتب "ذاكرة الإنسان في ذكرياته الجميلة".

وقف أمامها ثم ابتسم وواصلنا المشي وهو يواصل:

- مضى كل شيء هادئًا ومستقرًا تمامًا، كنت لا أبالي بالعالم ولا أنتظر منه شيئًا، مكتفيًا بوجود نعناعة وهذا كل شيء.

حتى جاء اليوم الموعود يا دكتور..

أحد سكان العمارة دعا ضيوفه لحفل في منزله، كانت نعناعة تساعدني في إدارة العمارة بعمل بعد نهاية عملها، نظرًا للنظام الأمني المتكامل الذي أقوم به في حراسة العقار، نظرًا للمستوى الاجتماعي والوظيفي للسكان، الذي من بينهم الوزراء والدبلوماسيون والقضاة وغيرهم من المناصب الحساسة في المجتمع، من بين ضيوف هذا الساكن وقف أمامي شاب في منتصف الثلاثينات ثم سألني:

- ما اسمك؟

قلت: يقولون "أحمد حدوتة".

سأل باستغراب: يقولون؟

ضحكت: أحمد يا فندم، حارس العقار..

ظل يتأملني لدقائق..

سألته: هل هناك أمر ما؟

انقطع سرحانه، ثم قال:

- تذكرني بأحد معارفي القدامى على أي حال يا أحمد، خذ رقم هاتفي إن احتجت أي شيء لا تتردد في التواصل معي "أنا البشمهندس زياد. "

شكرته ثم واصلت يومي لكن خطر على بالي سؤال "ماذا لو كنت أنا أحد أصدقائه القدامى؟"، كان من ضمن العلاج الذي لم أقم به هو محاولة التقرب من أي شخص يحاول تذكرتي بشكل حياتي قبل الحادثة، خطرت ببالي الفكرة وطلبته على الفور.

سلام عليكم يا بشمهندس زياد، أنا أحمد حارس العقار..

- لقد اكتشفت أيضًا أنني أجيد الرسم وكتابة العبارات والمتعة في كتابة العبارات العشوائية على جدران المدينة.

توقف عند إحدى الجداريات وكتب "ذاكرة الإنسان في ذكرياته الجميلة".

وقف أمامها ثم ابتسم وواصلنا المشي وهو يواصل:

- مضى كل شيء هادئًا ومستقرًا تمامًا، كنت لا أبالي بالعالم ولا أنتظر منه شيئًا، مكتفيًا بوجود نعناعة وهذا كل شيء.

حتى جاء اليوم الموعود يا دكتور..

أحد سكان العمارة دعا ضيوفه لحفل في منزله، كانت نعناعة تساعدني في إدارة العمارة بعمل بعد نهاية عملها، نظرًا للنظام الأمني المتكامل الذي أقوم به في حراسة العقار، نظرًا للمستوى الاجتماعي والوظيفي للسكان، الذي من بينهم الوزراء والدبلوماسيون والقضاة وغيرهم من المناصب الحساسة في المجتمع، من بين ضيوف هذا الساكن وقف أمامي شاب في منتصف الثلاثينات ثم سألني:

- ما اسمك؟

قلت: يقولون "أحمد حدوتة".

سأل باستغراب: يقولون؟

ضحكت: أحمد يا فندم، حارس العقار..

ظل يتأملني لدقائق..

سألته: هل هناك أمر ما؟

انقطع سرحانه، ثم قال:

- تذكرني بأحد معارفي القدامى على أي حال يا أحمد، خذ رقم هاتفي إن احتجت أي شيء لا تتردد في التواصل معي "أنا البشمهندس زياد. "

شكرته ثم واصلت يومي لكن خطر على بالي سؤال "ماذا لو كنت أنا أحد أصدقائه القدامى؟"، كان من ضمن العلاج الذي لم أقم به هو محاولة التقرب من أي شخص يحاول تذكرتي بشكل حياتي قبل الحادثة، خطرت ببالي الفكرة وطلبته على الفور.

سلام عليكم يا بشمهندس زياد، أنا أحمد حارس العقار..

قال: أهلًا يا حدوتة، خير؟

قلت: أعذرني يا بيه، قلت إنني أذكرك بأحد معارفك القدامى، هل يمكننا التحدث عن هذا الأمر؟

قال: حسنًا سأنتظرك غدًا بعد نهاية خدمتك، متى يمكنك الخروج؟

قلت: في التاسعة مساءً..

انتهت المكالمة، وبدأت أملًا أن يكون لقائي بالبشمهندس زياد سببًا في استعادة بعض ذاكرتي المفقودة.

في التاسعة مساءً جاء البشمهندس زياد بسيارته ووقف أمام العقار، ركبت معه ثم انطلقنا إلى أحد المقاهي المعروفة في وسط المدينة، طلبنا القهوة ثم سألني:

- ماذا تريد؟

قلت: بشمهندس زياد، هل يمكنني سؤالك عن صديقك الذي كنت تعرفه من قبل؟ سألني بتعالٍ طبيعي:

- لماذا؟

قلت:

- لقد استيقظت بعد غيبوبة استمرت ثلاث سنوات، لا أتذكر شيئًا عن حياتي القديمة، لا أملك ورقة واحدة تثبت وجودي من الأساس، ضربتني الدنيا وضربتها، عافرت معها وعافرت معي، لكنني ما زلت أبحث عن حقيقة حياتي، وقد قلت إنني أذكرك بأحد معارفك القدامى، ربما الشبه قد يكون سببًا في اكتشاف حياتي.

قال البشمهندس زياد :

- علاقتي بالشخص الذي تذكرني به لم تكن طويلة كما تظن، كان مهندسًا يعمل في الخليج حسبما علمت عنه، التقيت به أكثر من مرة مصادفة، لكن كان شابًا مكافحًا اختفت أخباره فجأة، يقولون إنه تم القبض عليه هناك لأسباب مجهولة، الآخر قال إنه تم قتله بعد تورطه في إحدى القضايا، والآخر يقولون إنه ما زال حيًا يرزق، لكن لا أحد يعلم أين هو الآن "ريان" اسمه ريان.

تنهدت ثم قلت:

- بشمهندس زياد، هل من الممكن أن تذهب بي إلى أحد معارفه، أو أقاربه عسى أجد ولو

خيطًا واحدًا أسير عليه.

قال البشمهندس:

- حسنًا جهّز نفسك غدًا سأنتظرك في الحي الخامس في العاشرة مساءً.

- أين الحي الخامس؟

كتب لي العنوان وهو ينهض، ثم قال:

- ارتدِ ملابس تليق بمناسبة..

أعادني من حيث ذهبنا، ثم قال:

- لا تنس ما قلت لك..

كانت نعناعة تقف عند باب العقار، وقد سمعت تأكيد زياد..

- أين كنت يا حدوتة؟

لم أرد عليها ودخلت الغرفة..

- حدوتة، أين كنت مع هذا الرجل المريب؟

حاولت البحث عن خيط يخبرني بحقيقتي يا نعناعة، أشعر أن هذا الرجل سيساعدني في اكتشاف حقيقة ما..

قالت وقد بدأ العبوث على ملامحها:

- سمعته يؤكد عليك ألا تنسى ما أخبرك به، ماذا قال لك؟

أخبرتها أنني سألتقي به غدًا في العاشرة مساءً، أعطيت لها العنوان ثم قلت لكنه يحتاج مني الذهاب بملابس تليق بلقاء رسمي، فتشت في جيوبي فلم أجد ما يمكنني شراء ملابس جديدة، سحبتني من يدي ثم قالت:

- لا تحمل هما تعال معي..

- خرجنا إلى السوق، ثم توقفنا أمام محلات الذهب..

- ماذا ستفعلين؟

ردت:

- لا تشغل بالك..

بعد دقائق خرجت من محل الذهب..

"بيع أسورة واحدة لن يؤثر على جمالي."

تنهدت ثم قلت لها:

- أنا لا أستحق هذا..

ردت:

- أنت تستحق الدنيا..

واصلنا السير حتى واصلنا الى أحد المتاجر المشهورة، وقف الأمن معترضًا طريقنا فقالت في وجهه:

- الله في سماه، أشتريك أنت وصاحب المحل، ابعد عن وجهي أنا هنا للشراء لا تتسول يا عديم النظر..

أفسح الأمن طريقنا ودخلنا.

اختارت أغلى بدلة في المتجر، كان سعرها سبع آلاف جنيه، بينما كان تتهافت علينا النظرات المريبة كانت هي تمشي بثقة بين الحضور وكأنها صاحبة المتجر.

ونحن عند بوابة الخروج أعطت لرجل الأمن الذي اعترض طريقنا مئة جنيه:

- ميز الناس يا مسكين ثم خرجنا.

في اليوم التالي وبعد نهاية الوردية، عدت لغرفتي لأجهز نفسي للقاء فوجدتها تنتظرني في الغرفة، معها بعض المعطرات، والمرطبات.

استحمى وتعال..

ذهبت للحمام، صببت المياه على جسدي وأنا أفكر فيما سيحدث، غطيت جسدي بالمنشفة ثم خرجت لها، بدأت هي في تدليك جسدي ومحاولة تجهيزي للقاء، لم أشعر بإثارة في حركتها ولم أفكر حتى في الأمر، ما يجمعني بها هو الصداقة فقط لا غير، أثناء وضعها المرطبات وتجهيزي قالت:

- اسمعني يا حدوتة، أخبرتك من قبل أنك في مكان ليس مكانك، وحياتك التي تعيشها الآن ليست حياتك، وإنني أرى فيك شخصًا في مكانة وقيمة مختلفة تمامًا بين العفاريت، لو كان لقاؤك بهذا الرجل هو نقطة البداية، لا تكن قليل الأصل وتنسى نعناعة.

قلت لها :

- أنت تسبقين الأحداث..

تنهدت وهي تقفل أزرار القميص :

- الزمن سيكشف كل هذا..

لدي طلب آخر يا حدوتة.. إياك والغياب المفاجئ، إن كنت تحبني صحيح لا تغيب فجأة فلن أتحمل هذا الغياب..

قبلت يديها:

- لن أغيب أبدًا، وإن غبت سأعود لك..

أعادت لي الخمسة جنيهات القديمة ثم قالت:

- وإن لم تعد ستعيد رد الأمانة يا حدوتة..

ابتسمت لها ووضعت الخمسة جنيهات في جيبي، ثم خرجنا من العقار، فوجدت سيارة في انتظاري..

نظرت لها:

- لن تذهب إلى هذا العنوان بسيارة أجرة..

ركبت معي حتى وصلنا إلى المكان..

قالت:

- سأنتظرك حتى تعود.

كان البشمهندس زياد ينتظرني، ما أن رآني حتى ابتسم ابتسامة رضاء عما ارتدي، ثم قال:

- لا تتحدث مع أحد، لا تتجاوب مع أحد، حاول أن تلتزم الصمت أكبر قدر ممكن، وأنا لن أتركك على انفراد مع أي شخص.

هززت رأسي ودخلنا إحدى الفيلات..

دخلت معه..

الإضاءة القوية، الموسيقى الصاخبة، نساء يرتدين فساتين قصيرة وكلاسيكية، رجال مهندمون بملابسهم الكلاسيكية، يتبادلون الضحكات والنكات ويشربون الخمر، آخرون

يتحدثون بجدية..

جلست بجوار البشمهندس زياد أتابع الأجواء الغريبة حتى جاء أحد الرجال:

- بشمهندس ريان، حمدالله على السلامة..

ابتسمت له فهمس زياد:

- دكتور محمود الطوخي..

فرددت عليه:

- أهلًا دكتور محمود الطوخي، الله يسلمك..

سألني عن سبب اختفائي الطويل فقال زياد:

- كانت رحلة علاجية يا دكتور، عافاك الله.

ابتسم الدكتور الذي شعر بأنه غير مرحب به، ثم أدار ظهره واتجه لوجهته، لمدة ساعة كانت طاولتنا ما هي إلا نقطة ترحيب من الجميع لعودتي، وأنا لا أفهم شيئًا مما يحدث حولي.

بعد نهاية الحفل اصطحبني زيادة بسيارته، ترددت كثيرًا قبل الركوب وأنا أنظر إلى السيارة التي تنتظرني فيها " نعناعة" ، سألني إن كنت أنتظر شخصًا فركبت معه وقلت:

- لا كل شيء على ما يرام.

انطلقنا بالسيارة وأنا أتابع نعناعة التي غلب عليها النوم في السيارة، ذهبت مع زياد إلى بيته، قدم لي العصير ثم قال:

- أنت نسخة طبق الأصل من ريان، ريان كان واحدًا من أمهر المهندسين في الخارج، كان يملك الكثير من الشركات والمصانع، لا أحد يعلم ظهور ريان، حياته القديمة، فجأة ظهر هذا الرجل وبدأ في الاستيلاء على الكثير من الصفقات، وأصبح له ثقل ووزن في المقاولات، كان شخصًا في غاية الغموض لا أحد يعلم عن حياته أكثر من الطبيعي والمعتاد، لا أقارب له، لا أحباء، لا أصدقاء لا يعرف عنه أي شخص شيئًا، لكنه وفي ظروف غامضة اختفى تمامًا مثلما ظهر، وترك خلفه ثروة لا تحصى، حتى استردت الدولة كل أملاكه بحجة أن ريان قد مات بالفعل ولا يوجد وريث له

- ألا تعرف أيًا من أقاربه يا بشمهندس؟

قال:

- مع الأسف لا، لا أحد يعرف عن هذا الرجل أكثر من ممتلكاته فقط لا غير التي كان يمتلكها، لكن ما زال بإمكاننا استغلال اسمه إن أردنا.

- كيف؟

- يمكننا استغلال علاقاته بالآخرين لنستعيد بعض ممتلكاته، هل توافق؟

هززت رأسي:

- نعم..

قال حسنًا من اليوم أنت معي، سنسعى لاسترداد ممتلكاته بحيل مختلفة، فقط ثق بي.

# الفصل الثالث عشر

توقف ياسين مرة أخرى ثم كتب على أحد الجدران..

"لا الديار ديارى ولا الرفاق رفاقي.. عبث بأماكن لا تشبهني".

ثم واصل: بعد هذا اليوم يا دكتور تغيرت حياتي، لم أر نعناعة مرة أخرى، بدأ زياد في إعدادي جيدًا للقائي ببعض الذين يعرفون ريان، في خلال خمس سنوات، استطعت استخراج أوراق جديدة تثبت وجودي أو وجود ريان، وقد استرددت بالفعل بعض ممتلكات ريان، لكنني كنت لا أشعر بنفسي، ما زلت أشعر أنني لا أنتمي لهذا المكان، في خلال عام أصبحت أملك منزلًا فخمًا في الحي الخامس، سيارات متنوعة، شركة معمار، وبدأت في الاستحواذ على الكثير من الصفقات والتعاملات الحكومية، لكن لم يتغير أبدًا شعور أنني لا أنتمي إلى هنا، كان البشمهندس زياد هو دليلي ورفيقي الذي ظل يشاركني كل خطواتي، وذات يوم سألته:

- هل أنت متأكد إنني ريان؟

قال:

- لا، لكن العائد من تقمص هذه الشخصية أكبر من التفكير إن كنت أنت ريان بالفعل أم لا، ألا ترى الثراء الذي نعيشه؟

قلت:

- لكنني لا أشعر بانتمائي لهذه الشخصية..

أعطاني حقيبة ممتلئة بالدولارات:

- لا يهم، انظر لهذه الصفقة وستشعر بالانتماء لها.

تعرف يا دكتور..

زياد كان كلب للمادة، بإمكانه القيام بكل وأي شيء في سبيل الفوز بالصفقات، حتى بعض الصفقات المشبوهة التي كنت أرفضها كان يسعى لها بكل قوة في سبيل الفوز بها، وفي إحدى المرات كانت الصفقة حول أرض يستولى عليها البلطجية والباعة الجائلون، وتريد شركتنا شراءها من الحكومة، ذهبنا مساءً لمعاينة الأرض..

زياد، أنا أعرف معظم الباعة، هذه أرضهم ومأواهم لا يمكن أن أكون سببًا في تشريدهم.

قال:

- كنت تعرف معظم الباعة، الآن هم في الماضي، نحن لا نشردهم، ستتكفل الحكومة بإخلائها.

قلت:

- لا يمكن حدوث ذلك يا زياد، نشترى أي أرض أخرى، هذا المكان هو من ساعدني للنهوض والتعافي من أزمتي..

قال وهو يقدم الأوراق والعقود:

- كل هذا كان في الماضي، هذه الصفقة لا ترفض، سنبني على هذه الأرض صرحا تجاريًا هو الأضخم في المدينة، سنجني من ورائه الكثير من الأموال، ونجذب به المستثمر الخليجي..

تنهدت ثم قلت:

- لن أوافق على العرض..

قال وقد بدأت نبرته تتغير:

- لا تملك رفاهية الموافقة أو الرفض، إن لم توافق فلن تتحمل أضرار ما سيحدث لك شخصيًا..

تنهدت ثم وقعت العقود.

وبدأت بالفعل بعد شهور عملية إخلاء الأرض، في الخفاء كنت أتابع عملية الإزالة، رجال الأمن بكل قوة وحماسة يحاوطون المباني، يمنعون أي أحد من الاقتراب، الباعة يصارعون معهم، الإعلاميون يصورون ويتباهون بإزالة العشوائيات، ونعناعة وهي تضرب وتصارع مع موظفي الحي ورجال الأمن وهم يجبرون الجميع على إزالة عرباتهم، تقف كمصارعة تواجه قبيلة، لا يهمها ما سيحدث لا تخشى العصا التي تضربها من كل مكان، لا يهمها تهديدات رجال الأمن بإطلاق النيران عليها، كانت في حالة ثورة وغضب ودفاع باستماتة عن عربتها وبيتها، كنت أقف من بعيد أتابعها وهي تسب وتلعن وتتعارك مع الجميع.

"هذه أرضنا، هذه أرضنا."

بينما اللودر الضخم يزيل ويحطم كل ما هو أمامه، كان يحطم المباني المخالفة، عرباتهم التي يعرضون عليهم الخضار والفواكه والمنتجات المختلفة، يحطم أحلامهم وأكل عيشهم

وأمنياتهم ومأواهم، كنت أقف من بعيد صامتًا وفي قلبي صراخ مما أرى، أتمنى لو كان بإمكاني الخروج من سيارتي والدفاع معها عن عربتها وعن مصدر دخلهم وبيوتهم، لكنني وقفت عاجزًا تمامًا، أكثر ما كنت أخشى في هذه اللحظة، أن تراني نعناعة، كنت ارتعد وأنا أحاول وقوع نظراتها عليّ، كانت لحظة لا تنسى وأنا أراها تواجه الجميع بينما أقف مكتوفي الأيدي.

وقف ياسين أو حدوتة أو ريان أمام أحد الجدران ثم كتب..

"لو كان بإمكاني الصراخ لابتلعت مدينة بأكملها".

انتهى اليوم وتمت إزالة كل شيء، ما حطم قلبي هي نعناعة وهي تجلس على حطام منزلها وتصرخ "حسبي الله ونعم الوكيل، حسبي الله ونعم الوكيل."

لقد حطمتني، أقول لك إنني كنت أبكي في سيارتي لكن ما باليد حيلة.

بعد هذا اليوم بدأت في النفور والهروب من كل شيء، أنا لا أنتمي إلى هنا مهما حاولت التأقلم اللا انتماء سبب كافٍ للهروب، لأنك لا تجد نفسك في هذا المكان بكل بساطة، ظللت أقاوم هذا الشعور، حفاظًا على حياتي الجديدة، كانت المقاومة عناء ومجهودًا لا يحتمل، لكنني واصلت من أجل الرفاهية التي أعيشها.

وفجأة قادني الحنين لنعناعة، قررت الهروب من كل هذا وركبت سيارتي متجهًا لعربة النعناع في مكانها الجديد، مكان بعيد جدًا عن وسط المدينة، مكان بلا روح، أعرف أنه لن يناسب نعناعة، لكن فات وقت الإصلاح، وقفت أمامها بسيارتي وظللت أنظر لها، كانت كعادتها مشغولة بالبيع والسباب على الجميع، بينما أراها من خلف الزجاج، اقتربت من سيارتي التي تغطي على رؤية عربتها المتجولة.

"يا أفندي، أتقدم خطوتين، هذه عربة أكل عيش."

سحبت زجاج السيارة فظهرت أمامها..

ابتلعت ريقها وتلصمت في مكانها، ثم واصلت بثباتها وكأنها لا تعرفني:

- ألم تسمعني؟

تقدمت بالسيارة ثم ظللت أتابعها لساعات، أغلقت عربتها ثم انطلقت في طريقها للمأوى الذي جمعنا في المرة الأولى، توقفت بالسيارة ثم خرجت منها وتابعتها، رأيتها تجلس على نفس الصخرة التي كانت تجمعنا، اقتربت منها أكثر..

- نعناعة..

انتفضت ثم أخرجت سكينًا:

- ماذا تريد؟

- أنا حدوتة يا نعناعة..

- لا أعرف شخصًا بهذا الاسم، ابتعد وإلا جعلتك..

قاطعتها:

- طعامًا للأسماك..

اقتربت منها أكثر بينما زادت حدتها:

- قلت لك ابتعد وإلا جعلتك طعامًا للأسماك..

أخرجت من جيبي الخمسة جنيهات:

- أنا حدوتة يا نعناعة..

صرخت في وجهي:

- قلت لك لا أعرف شخصًا بهذا الاسم، أغرب عني وإلا قسمًا بالله سأطعنك وألقي بك في النهر.

تنهدت، ثم أدرت ظهري لها فقالت:

- حدوتة عاهدني ألا يغيب فجأة، أنت شخص تشبهه، حدوتة شخص يشبهني، بسيط، لم يخلف عهده يومًا، أما أنت فأنت تشبهه يا بيه، أنت مجرد مستثمر قذر لم يراع البيئة التي احتضنته، لم يراع الناس الذين عاملوه بكل مودة وحب، نسى كل ما قدمته له، أنت مجرد رجل قذر حطم ودمر حياة الآخرين، من أجل ثرائه الشخصي.

لم أرد عليها، ماذا عساني أن أقول لها من الأساس يا دكتور، عدت لمنزلي وطول الطريق كان ثلاثية هشام عباس وحميد الشاعري ومصطفى قمر يغنون معًا:

- "وفيه توهت المشوار..

ياما حلمنا صغار..

ببطولة في الحواديت..

صدقت في الأيام..

ومشيت ورا أوهام..

وزي ما روحت أهو جيت".

وصلت إلى المنزل فوجدت زياد ينتظرني، كان معه عقود جديدة..

- ما هذا؟

- صفقة جديدة يا صديقي..

حكى لي تفاصيل الصفقة، كان استيراد مواد كيميائية، لكن الرقم المكتوب في سبيل إتمام الصفقة لا يساوي قيمتها، سألته عن التفاصيل، فأخبرني أنها مواد بناء كيميائية، صلاحيتها قاربت على الانتهاء، علينا أن نشتريها بهذا الثمن البخس، وإعادة بيعها للمقاولين بسعرها الطبيعي.

- قيمتها أقل حتى من قيمة منتجات منتهية الصلاحية..

قال وهو يضع العقود أمامي:

- نحن لسنا معمل كيمياء، وقع على العقود..

- كيف ستدخل هذه المواد إلى مصر؟

قال: هذه ليست مسؤوليتك.. قد تتسبب في موت الناس..

رد:

- لن يحدث هذا إلا إذا وقع زلزال قوي، حينها ستسقط نصف مباني مصر.

ظللت أفكر لثوانٍ..

فقال غاضبًا:

- حدوتة، أصبحت تفكر كثيرًا، صار قلبك ضعيفًا وجبانًا، وقع ونفذ ما أمرتك به.

حين يناديني بحدوتة أعرف أن ثمة تهديدات في كلماته..

وقعت بالفعل على الصفقة وانتهى اليوم.

وقف ياسين مرة أخرى أمام إحدى الجداريات ثم كتب:

- "لن أدافع عن نفسي أنا مسؤول عن كل ما قمته به، لكن من سيحاسب الدنيا على ما

قمت به ضدي؟".

واصلنا المشي في صمت تام، حتى وقفنا أمام إحدى الأراضي الشاسعة، وقد تراكم عليها الحطام من كل اتجاه، ثم واصل:

- بعد ثلاث سنوات من هذه الصفقة، استيقظت على خبر مفجع.

هزة أرضية خفيفة تضرب القاهرة، لكن انهيار كامل لمنتجع "الوسام" وأنباء عن وجود عدد كبير من الوفيات والجرحى.

اتصلت بزياد، الذي سابقني على الفور:

- إياك أن تنطق بأي حرف وألا سيلتف حول رقبتنا حبل الإعدام.

أغلقت الهاتف في وجهه وانطلقت إلى مقر الحادث وأنا أراقبه من بعيد، هذا المنتجع بني بالمواد الكيميائية التي قمنا بإدخالها إلى البلد، نحن بطريقة ما مسؤولون عن هذا الحادث، كنت أرى حطام المنتجع بأكمله والناس يصرخون، الأمهات تصرخ وتبكي، شيوخ وأطفال يهرولون في الشارع، الدماء تسيل على الأرض والحزن يخيم على الأجواء، الصحافيون في كل مكان، والأجواء مشحونة.

طلبت زياد على الهاتف فعرفت أنه في منزله وانطلقت نحوه..

صرخت في وجهه:

- ماذا سنفعل؟

كان يتحدث مع أحد المحامين على الهاتف..

أنهى مكالمته، ثم قال:

- لا تقلق، سقوط العمارات نتيجة لزلزال..

قلت:

- الزلزال لم يحرك ساكنا في مصر، كان أضعف من هز شجرة في مكانها، كيف له أن يسقط عشر عمارات دفعة واحدة في آنٍ واحد؟

قضاء وقدر يا حدوتة..

قلت غاضبًا:

- لا.. نحن مسؤولان عن هذا.

وهو يتابع الأخبار على التلفاز:

- اذهب للنيابة واخبرهم بهذا..

يا زياد سيتم التحقيق في الأمر.

أجاب: قلت لك سيتكفل رجالنا بالأمر والحجة الوحيدة ستكون سقوطها نتيجة الزلزال..

غضبت من ردوده وقبل أن أخرج من المنزل قال:

- ريان، كل ورقة بإمضائك الشخصي، إن لم تتمالك أعصابك ستفقد كل شيء، وستكون كبش فداء لكل شيء.

مر شهران على هذا اللقاء، كانت حياتنا تسير بشكل طبيعي، بينما كانت ثورة الغضب تجتاح الشارع متسائلين عن المسؤول الحقيقي عن كم البنايات المخالفة، كان زياد يطمئنني من حين لآخر أن كل شيء يسير على ما يرام، وأننا لسنا طرفًا في القضية، لكنني قرأت آخر المستجدات أن الحصر الأخير للجثث وصل لمئتين وخمسين قتيلًا ومئات الجرحي والمصابين.

خرجت من المنزل وقادني غضبي للمأوى، المكان الذي كان يتسع لي، يتسع لتساؤلاتي ويتسع لأفكاري وأحلامي، هنا كانت سعادتي كبيرة بأول مرتب من عملي، هنا احتفلت بسترتي الجديدة، وهنا رسمت أولى لوحاتي، هنا حدث اللقاء الأول بيني وبين نعناعة، وهنا ودعتها وهنا التقيت بها ورفضتني.

طلبت الشاي وأثناء إعطائي الشاي نظرت إلي الرجل العجوز:

- يا ولدي أنت زبوني المعتاد منذ زمن، تغيرت وغيرتك الدنيا، هل تسمح لي بنصيحتك؟

تفضل يا حاج..

يا ولدي..

الحياة تشكلنا حسبما تريد، والإنسان يظل تائهًا طوال حياته حتى يستقر للمكان الذي يجد فيه ضالته وراحته.

الطمأنينة يا ولدي أن تنام وأنت لا تشعر بالذنب أو الندم، نائم لا أنت ظالم ولا مظلوم..

الرضا، أن ترضى بما كتبه الله لك، لو رزقك من فضله فلا تنسى الأيام التي قضيتها في قحط وجوع، وإن منع عنك الرزق فوالله ما منع عنك إلا وأعطاك.

الضمير، هو صوت الإنسان إن مات، مات الإنسان معه وتحول لوحش.

الوحدة أن تموت وحدك أو تعيش وأنت لا تملك شخصًا يناولك كوب مياه.

الضعف أن تكون أسير رغباتك..

والقوة أن تسيطر على نفسك أمام الطمع والجشع والظلم..

الندم هو أول طرق تصحيح المسار..

الحق أحق أن يتبع ولو كان على حساب نفسك..

والرجولة أن تكون رجلًا بأفعالك وكلماتك وتفي بوعودك..

الحرية أن تمشي في الأرض حرًا، لا أنت سجين أفكارك أو أخطائك القديمة..

والمصيبة أن تصمت على خراب أنت سبب فيه..

والغنى غنى النفس والروح..

لو كنت فقيرًا في نفسك ستبقى فقيرًا، ولو عشت في قصور مرصعة بالماس..

ولو كنت غنيًا في نفسك ستبقى غنيًا، ولو عشت في غرفة تحت سلالم منزل متهالك..

صمت العجوز لثوانٍ ثم نظر لعيني وقال:

- والعدل أن تحكم على نفسك بالعدل حتى لو كان العقاب هو جزاؤك، والحب ألا تخذل شخصًا وضع ثقته فيك.

ابتسمت للعجوز، ثم واصلت وجهتي إلى المأوى..

توقف ياسين وعند الجدار المواجه للعقار المحطم كتب:

- "أيها الموتى سامحوني، لقد مت معكم، لكنني ما زلت أتعايش في الدنيا".

كنت أقرأ كل عبارة يكتبها وأنا أفهم ما يريد قوله بالضبط..

واصل ياسين:

- وصلت إلى الصخرة وجلست أتأمل السحاب والمياه وأرسم، كنت ألطخ على الورقة بكل عدوانية، أريد أن يهدأ عقلي بأي طريقة ممكنة.

" كنت أعرف أنك ستأتي إلى هنا مرة أخرى" .

نعناعة..

أدرت ظهري واقتربت منها:

- لا تحاول الاقتراب أكثر..

اسمعيني يا نعناعة، اسمعيني، كل هذا حدث رغمًا عني..

ردت:

- يا عديم البصر والبصيرة، الرجل لا يفرض عليه شيء..

تنهدت:

- لا أحد يختار حياته يا نعناعة..

- لو كانت حياتك يا حدوتة، لو كانت حياتك ربما كنت التمست لك عذرًا لكنها لم تكن حياتك، لقد اخترت أجمل في ما في حياة هذا المهندس الملعون، لكنها ليست حياتك.

أحتاج لك..

ردت بعدوانية:

- ما يمنعني عن قتالك هو العيش والملح الذي جمعني بك..

- تريدين قتلي يا نعناعة؟

ردت:

- لاشفي ناري ونار كل شخص تأذى منك، من قُتل يُقتل ولقد قتلت أحلام الكثيرين، وتسببت في قتل المئات حتى الآن بسبب صفقاتك الفاسدة.

قلت:

- صفقاتي الفاسدة؟

ردت:

- أنا أعرف كل شيء، أعرف عن كل صفقاتك المشبوهة وحتى العقارات التي سقطت اليوم كلها نتيجة للمواد الرخيصة التي قمت بالبناء بها، هل علمت الرقم المبدئي حتى الآن؟

مئتان وخمسون إنسانًا ماتوا حتى الآن بسببك، ناهيك عن عائلاتهم وذويهم والمصابين الذين لن يعودوا للحياة كما كانوا من قبل، لا تصدق أن الحادث سيمر مرورًا عابرًا يا حدوتة،

سيلتف حبل المشنقة حول رقبتك.

قلت ضعيفًا:

- صدقيني، أتمنى لو كانت هناك فرصة واحدة لإصلاح كل شيء..

ردت:

- إصلاح؟ ستعيد كل ابن فقدته أمه، ستعيد كل زوجة باتت تحت الحطام وكسر قلب زوجها، ستعيد كل شخص فقد عائلته، وكل عائلة فقدت شخصًا في مجلسها، ستعيد الروح إلى الجسد من جديد، الإصلاح الوحيد أن تكون رجلًا لمرة واحدة في حياتك، أن تعترف بكل ما قمت به.

أنتِ تطلبين مني الانتحار..

الانتحار أن هذه الدماء ستبقى تطاردك في كل مكان، أن تعيش بذنب كل هؤلاء.

نهضت من مكاني:

- هذا مستحيل، رحلت عنها، أنت تتحدثين بهذه اللكنة لأنك لست مكاني، لو عرضت عليك واحد بالمئة من المغريات التي قدمت له لكنت أول من قتل هؤلاء.

رددت بسخرية:

- لو كنت بهذا الضعف لسلكت طرق الهوى بدلًا من الوقفة والشقاء في الشارع، لو كنت بهذا الضعف لقبلت بالمتعة في سبيل الراحة، لقبلت بالزواج من أي رجل أراد الزواج مني ليفوز بجسدي وينام معي كل ليلة في السرير، لو كنت بهذا الضعف والرخص لربما كنت الآن شريكتك في كل خطوة، لكن اعذرني أنا أشرف وأطهر وأنضف وأرجل منك يا حدوتة.

كدت أصفعها لكنني كظمت غيظي ورحلت عنها..

# الفصل الرابع عشر

وقف ياسين مرة أخرى أمام أحد الجدران وكتب:

- "على العموم، الأمور تسير دائمًا من سيئ إلى أسوأ".

ديستوفيسكي..

ثم واصلنا السير ناحية أحد الطرق المظلمة، أعرف هذا الطريق لكنني كنت أكذّب نفسي وأنه مجرد طريق يشبه الطريق الذي أعرفه، لأن لهذا الطريق معي ذكرى سيئة..

أوقفت الأصوات في رأسي وعدت للاستماع إلى ياسين، أقصد حدوتة، أقصد ريان، لا يهم المهم أنني واصلت استماعي له:

- وبعد أسبوع من هذا اللقاء اتصل بي رقم من لندن..

- من المتصل؟

- زياد!

اسمعني يا حدوتة، لن تستطيع المغادرة وفي الغالب سيتم التحقيق معك، أنت مراقب من رجالنا أي حرف ستنطق به سيتم قتلك في الحال.

أغلق الهاتف وهنا اشتعلت ثورة في رأسي، علي الهروب الآن..

أجمعت كل الأوراق وأعدت الحقائب، ثم إلى أين؟

نعناعة.. نعناعة..

فتحت الباب ثم؟

عانقتني..

لقد كنت أخشى أن يكون تم القبض عليك..

ما أن ارتميت في حضنها حتى بكيت، بكيت كما لو أنني لم أبك لسنوات..

يقطع الحب وسنينه يا مدهول..

سأذهب للنيابة وأعترف بكل شيء لكنني أريد إثبات براءتي..

ظلت تلعب بأناملها في خصلات شعري:

- لا تخف يا حبيبي، لا تخف..

في الماضي كنت لا تملك شيئًا مما تملكه الآن لكنك كنت تملك نفسك وروحك، الآن ماذا تملك قل لي؟، على العموم لن أعاتبك ولن ألومك لا تقلق لربما تظهر الحقيقة، أنا أعرف أنك وإن كنت مسؤولًا فلست وحدك المسؤول ولا تستحق العقاب والجزاء وحدك.

غدوت في نوم عميق رغمًا عني، في اليوم التالي طلبت المحامي لأسأله عما أنوي القيام به، احتفظت بصمتي لفترة طويلة ثم قال:

- حدوتة أفهمني، أنا معك ولست ضدك، لو كنت تنوي الاعتراف فأخبرني حتى أستطيع تجهيز ما يثبت أنك لست المتهم الوحيد في القضية، وأجعل اعترافك سببًا في تخفيف الحكم عليك..

قلت:

- لو علم زياد بالأمر سيرسل من يقتلني..

رد:

- لا تقلق، زياد لا يستطيع القيام بأي شيء هو خارج البلاد الآن، أنا أعلم تمامًا أنك وقعت على أغلب العقود مجبرًا، لذلك أريد الاتفاق معك عما تنوي القيام به..

telegram: @alanbyawardmsr

شعرت بالطمأنينة في كلماته فأخبرته بالفعل أنني اريد الاعتراف بكل شيء..

قال وهو يختم مكالمته:

- حسنًا لن أسألك عن مكانك لكن لا تقم بهذه الخطوة إلا بعد أن تخبرني حتى يتشابه اعترافك بالدلائل التي سأجمعها ومن ثم نسعى لتخفيف الحكم عليك..

اتفقنا على كل شيء، ثم أخبرت نعناعة بما حدث..

قالت نعناعة متوترة:

- أنا لا أثق في هؤلاء الرجال، لا أثق أبدًا فيهم..

على الأقل حاولنا يا نعناعة قد يفي بوعوده..

مر أسبوع بعد هذه المكالمة وكان أسبوعًا في غاية الهدوء والسكينة، لم نتابع الأخبار لم نهتم بما يحدث في الخارج، كانت فترة هدوء احتجتها بالفعل، لترتيب أوراقي، في اليوم الثامن استيقظت على الفطار الذي أعدته نعناعة، استقبلتني بقبلة على جبيني:

- يسعد صباحك يا مدهول يا عديم النظر..

صحيح يا نعناعة لماذا تسبين وتلعنين كل شيء طوال الوقت..

ضحكت وهي تضع البيضة في فمي:

- لانه لا أحد يستحق دلال نعناعة يا مسكين..

سألتها:

- مجنون صديقك القديم الذي رحل عنك، كيف له أن يترك كل هذا الجمال..

ضربتني على كتفي وضحكت:

- يقطع خبرك..

سألتها محاولًا إشغال رأسي بالواقع المرير الذي أعيشه، لم أسألك يومًا عن سبب رحيله عنك، فقالت:

- غبي..

لقد حاول توفير حياة تليق بنا، لكن الفقر كافر كان يحبني وحاول من أجلي، لكنه أدرك أنني لا أستحق العيش في عناء، واقعيته المفرطة كانت سببًا في أن ينسحب من طريقنا ويترك ناسه وأهله ثم غنت..

"خايفة لما تسافر على البلد الغريب تنسى أنك سايب في بلدك حبيب."

واصلت:

- كان يمكنه البقاء وكنت سأرضى بالقليل جدًا معه ومنه، كان يكفيني غرفة واحدة تجمعني به في حلاله، لكنه استسلم سريعًا للدنيا وهاجر للأبد..

- ألم يحاول التواصل معك؟

- لا.. لقد تزوجت بعدها وقطعت أي باب للوصل بيننا..

- ألم تنتظري عودته؟

ردت:

- انتظرت حتى مل الانتظار مني، للأسف لقد ماتت أمه وأخته ولم يعد يملك ما يمكنه العودة لأجله، انقطعت كل أخباره وانقطع قلبي معه..

قلت:

- هل سيعود؟

ردت:

- لا.. لقد سمعت الكثير من القصص عنه، سمعت أنه قتل، سمعت أنه تزوج وأصبحت له عائلة، سمعت أنه قرر العزلة، سمعت كل القصص إلا القصة الوحيدة التي تطمنني..

- أي قصة؟

- إنه يشتاق للعودة إلي، حتى فقدت الأمل في عودته..

"مسير الغائب يعود".

سمعت أحد الشعراء يقول "لم نفترق، لكننا لن نلتقي أبدًا."

- لم أعرف اسمه إلى الآن..

قالت:

- ولن تعرفه أبدًا لقد قررت أن أحتفظ بكل شيء يخصه في روحي..

تنهدت فسألتها إن كان بإمكاني الخروج وشراء بعض المستلزمات، وافقت ونبهتني أن أكون حريصًا في التعامل مع الناس فالأمن قد بدأ رحلة البحث عني..

خرجت من المنزل، اشتريت الفواكه والخضار والسجائر وخزين للبيت، وعدت..

فور عودتي سمعت صوت ضجيج في الداخل..

فتحت الباب فوجدتها..

خمسة رجال يقفون حول نعناعة التي تجلس على الكرسي مقيدة تمامًا..

- ماذا تريدون؟

قال أحدهم:

- السيد زياد يريد التواصل معك، أمسك هاتفه كانت مكالمة مرئية عبر أحد برامج المحادثات..

"لقد أخبرتك أنني سأقتلك إن حاولت الاعتراف".

المحامي الوغد لقد خان اتفاقنا..

سأعترف بكل شيء يا زياد..

هنا رد غاضبا:

- لا تصدق أنني سأقتلك صحيح، هذه هديتي الأولى لك..

إن لم تتراجع ستلحق بها.. هل تسمعني ستلحق بها..

فجأة أخرج أحد الرجال السكين من جيبه وزرعه في بطن نعناعة، ثم هربوا..

تلصمت في مكاني..

نعناعة! هرولت نحوها وهي تنزف دماءها، كنت أصرخ، أصرخ..

"نعناعة.. نعناعة..

بكاء، صراخ، تشنجات..

أراها وهي تتهاوى أمامي ولا أملك أي حيلة لإنقاذها..

نعناعة، نعناعة.. انهضي..

إسعاف.. إسعاف..

بدأ جسدها في انخفاض الحرارة، وهي تصارع الموت..

لا تخلف العهد يا حدوتة، لا تتراجع..

ظللت أقبل رأسها وأنا أبكي..

معًا يا نعناعة، سنمضي معًا يا نعناعة..

كانت تبتسم وهي ترى الموت يقف أمامها..

بصعوبة بالغة أخرجت من جيبها الخمسة جنيهات..

"أكمل عليهم واعمل سبيل يجعل الناس يدعو لي بالرحمة".

صحيح أنت تشبه حبيبي القديم ي..

صمتت فجأة لقد ارتقت روحها إلى خالقها..

ظللت أبكي..

مر أمامي كل ذكرى معها..

يوم لقائنا..

لسانها الغليظ..

دلالها..

وعطاؤها..

صراعها مع الدنيا..

ولينها معي..

قسوتها..

وضعفها..

ثقتها بنفسها..

واحتياجها لكلمات الغزل مني..

ظللت أبكي وأصرخ..

حتى اجتمع الناس، وتم نقل جثمانها إلى المستشفى..

تم إلقاء القبض علي وعلى كل متهم ومشارك في كل هذه القضايا..

لقد رفضت النيابة حضوري الجنازة ومراسم الدفن..

لقد رفضت إعطائي أي فرصة للدفاع عن نفسي..

حكمت المحكمة علي بالسجن عشرة أعوام..

قضيت منها ثلاث سنوات..

حتى جاء أحد المحامين المتطوعين وكانت المفاجأة..

قدم ما يثبت وفاة ريان قبل عامين، إذن أنا لست "ريان" من الأساس، لقد وجدوا جثة ريان في أمريكا، متوفى في منزله الذي اختاره لينعزل عن العالم.

إذن؟

تم إعادة البت في القضية من جديد، ليثبت المحامي أنني تعرضت للكذب والخداع لأغراض أخرى، وأنني بطريقة ما بريء من بعض الاتهامات.

تم عرضي على أطباء نفسيين لتثبت أنني من الأساس شخص تعرضت لحادث أفقدني جزءًا كبيرًا من ذاكرتي، بدأت القضية تسلك مسارًا آخر، ثم وفي النهاية تم الحكم عليّ بسبع سنوات فقط قضيت منها ثلاثًا في السجن.

وحين خرجت من السجن أول ما قمت به هو زيارة قبر نعناعة واسمها الحقيقي..

"رقية "

جلست عند قبرها وقلت:

- نعناعة، شكرًا على كل شيء، لقد تم إثبات براءتي، لقد كنت محقة حين قلت إنها ليست حياتك، وإنني لست ريان من الأساس، شكرًا لك على كل شيء يا نعناعة يا أم عباءة سوداء وخلخال يهز شوارب الرجال، نامي وارتاحي يا حبيبتي، واطمئني لقد وفيت بكل ما وعدتك به، لقد وضعت لك مئات المصاحف في أغلب مساجد القاهرة، لك آبار مياه في إفريقيا كلما شرب منها أحد دعا لك في أرض شديدة الجفاء، شجرة يستظل الناس بها، لقد حققت كل ما وعدتك به.

سألته: ثم وماذا قررت بعد ذلك؟

رد وهو يقف أمام مقابر العبور:

- قررت ألا أبحث عن نفسي، أنا حيث أنا وحيث العالم، قررت ألا أفتش عن الماضي ما دمت لا أملك تغييره، قررت أن أرضى بما أنا عليه، ما دمت أستطيع التعايش مع الحاضر فلا يهم ما كنت عليه في الماضي، قررت أن أعيش حيث أعيش، الأرض التي تحمل أقدامي هي أرضي، المكان الذي أكسب منه لقمة حلال هو مكاني، الناس الذين يحبونني هم أحبائي وعشيرتي، لا يهم ما كنت عليه في الماضي، الأهم أنني أصبحت في الحاضر.

هكذا أمضيت حياتي، عدت للعامة من جديد لكن بالاسم والشخصية التي أحبتها نعناعة "حدوتة"، شيء من الرضا عما حققته لكن بطريقة ما زلت أعاني..

- لماذا؟

قال:

- ما زال الموتى يطاردونني في كل مكان، ما زلت أراهم في كل مكان، وقد ظهر في حياتي صديق يسايرني ويهاودني في كل خطوة في حياتي لكنه لا يحبك..

ضحكت وسألته:

- لماذا؟

رد:

- لأنك تسمعني وهو يغار منك..

صمت لثوانٍ ثم مر أمامي لحظة تعارفي على حدوتة، لقد نصحني أحد الأطباء المعالجين له بالاقتراب منه، لقد أخبروني أنه أسير شخصية خيالية لا وجود لها من الأساس، وأن هذه الشخصية الخيالية تدفعه أحيانًا للقيام ببعض التصرفات المجنونة، كالركض في الشارع، الإفراط في الشرب، السباحة في النيل، وقد تدفعه للانتحار أيضًا، لقد حاولوا إعادته إلى المصحات النفسية لكنه في كل مرة كان يهرب منها، حتى فقدوا الأمل فيّ وتركوا للدنيا تفعل بها ما تشاء، لكنني صممت أن يكون تحت رعايتي خصوصًا بعدما علمت بقصته القديمة مع نعناعة..

عدت بشرودي إلى حدوتة وعبرنا بوابة "مقابر القاهرة".

المقابر هي الفكرة العامة للحياة، الناس بعد سنوات من الركض والسعي، ينتهي بهم الحال في هذا الظلام الكاحل، وهذا المستقر الصغير، هنا ناس حلموا وتمنوا وسعوا، هنا ظلموا وظلموا، وهنا كانت لديهم أحلام وطموحات، هنا أحبوا، وهنا من فارقوا أحباءهم، هنا أثرياء عاشوا في رفاهية لا تنتهي، وهنا فقراء عانوا من الجوع، هنا المستقر الأخير للحياة.

واصلنا المشي ولا صوت يعلو فوق صوت نبيح الكلاب والهواء الشديد، هدوء المقابر لا يعني صمتها ففي باطنها قصص وروايات أخرى لا يسمعها ولا يعلمها إلا خالق السماوات والأرض..

وقفنا أمام إحدى المقابر "رقية محمود" الشهيرة بنعناعة..

قرأنا الفاتحة لها وجلس يتحدث معها حديثًا لا يسمعه إلا هو وهي..

تركته في خلوته وفي القبر المجاور له وقفت وقرأت الفاتحة للمغفور له بإذن الله، ثم بدأت في حديثي..

"عزيزي لقد اشتقت لك، كنت أتمنى أن تسمح لنا الدنيا بلقاء آخر لكنها الدنيا يا صديقي، صحيح علاقتنا لم تستمر أكثر من ثلاث سنوات لكنني كنت أحبك بكل صدق، كنت أعرف أن كل الأخطاء التي اقترفتها لم تكن لولا الفقر والجوع الذي سيطر عليك، كنت أعرف أنك أردت أن تنجو سالمًا من الحياة، لكن للدنيا حسابات لن تفهمها أبدًا، نم في سلام يا صديقي وليغفر الله لك".

اقترب مني حدوتة سائلًا باستغراب خصوصًا أن قبره بجوار قبر نعناعة :

- هل تعرف هذا المرحوم؟

- نعم، أعز المعرفة..

- من هو؟

نظرت للقبر وواصلت:

- لقد كان شابًا يشبهك تمامًا يا حدوتة، يشبهك في كل شيء، الفرق الوحيد بينكما أنه كان يعرف عن ماضيه وأراد تغييره للأفضل، وفي سبيل رغبته في الثراء حطم ودمر كل شيء يحبه قلبه، حطم كل شيء ولم يفز بأي شيء..

ضحكت ساخرًا:

- هل أخبرتك نعناعة عن اسم حبيبها القديم؟

قال: لا كادت تفعل لكن أمر المولى لم ينتظر..

- ألا تعرف من هو الرجل الذي أناديك دائمًا باسمه..

رد نافيًا:

- لا، وما زلت لا أفهم لماذا تناديني بهذا الاسم..

ضحكت وأضأت كشاف الهاتف موجهًا ضوءه إلى اسم صاحب القبر..

- ياسين..

قرأ الاسم مندهشًا فقلت:

- هو ياسين حبيب رقية الأول أقصد حبيب نعناعة الذي حدثتك عنه من قبل وقالت إنك تشبهه كثيرًا، هو أيضًا صديقي الذي أناديك باسمه دائمًا، لقد قتل يوم حفل زفافه من إحدى صديقاته المختلات، لم تستوعب نعناعة الخبر وظلت طوال حياتها في حالة استنكار تام، رفضت حتى لحظتها الأخيرة في الدنيا الاعتراف أن ياسين قد مات بالفعل، وظلت تستنكر حتى أصيبت بمرض الاستنكار للموت، لكنهم وجدوا من بين أمتعتهم الشخصية وصية تطلب فيها أن تدفن بجواره، لقد نفذ أحباؤها الوصية واحترموا رغبتها، لقد اجتمعوا أخيرًا كما أرادت لكن في مثواهما الأخير بعدما حرمتهما الدنيا من بعضهما البعض.

ضحك حدوتة:

- دنيا..

قلت:

- رواية مهما حاولت أن تفهمها، ستكتشف أنك أجهل من فهم حرف واحد، ومع ذلك ستجعلك تضحك، تبكي، تتأثر، تشعر باليأس، الخوف، الوحدة، القوة، الضعف، والحماسة، ستحب أبطالها وتنكسر لفراقهما، تكره بعضهم وترفضهم، وتعتذر عن أخطائهم، تقسم أنك لن تتعاطف مع أحد وتجد نفسك أول من يدافع عن أبطالها، رواية مهما تمردت عليها تعود خاضعًا لها بكل ضعف، رواية مهما حاولت أن تتبرأ منها ستكتشف أنك جزء أصيل منها، كلما سخرت منها اكتشفت أنك بطلها، وكلما ملت لها دفعتك بعيدًا جدًا عنها، أنت الوضيع المحكوم عليه بأحكامها، وأنت البطل الذي نال منها كل شيء، أنت أسطورتها وأنت أضعف محاربيها، أنت حيث تملك فيها كل شيء ولا تملك منها كل شيء، رواية أنت قارئها وأنت كاتبها وأنت بطلها، وأنت من لا تفقه فيها أي شيء لكنك تقرأها وتتعايش معها..

كل شخص في الدنيا رواية..

ونحن يا حدوتة شخصيات متحركة لرواية كتبها القدر..

شكرًا لك يا دكتور أنك سمعتني، وشكرًا أنك احترمت رغبتي بأن أحكي لك لمجرد الحكي فصدقًا لا أريد سماع مزيد من النصائح والإرشادات، أنا أعرف حقيقة نفسي وأعرف كيف يمكنني التعايش بها، ولا أبالي كثيرًا إن كان مصيري هو الموت.

عاد حدوتة لقبر نعناعة، وواصل حديثه الخاص معها.

ابتسمت له، تركته لسكينته ثم عدت سالكًا نفس الطريق الذي سلكنا للوصول إلى هنا، لكنني اكتشفت عبارات أخرى قد كتبها لم ألحظها..

"العائلة هي مصدر الأمان والطمأنينة في العالم.."

"الأصدقاء هم البيوت الدافئة في عالم مرعب"..

"اكتشف نفسك قبل اكتشاف العالم"..

واصلت قراءة العبارات..

"الحياة ثقيلة الدم، تحتاج أن تكون مهرجًا لتبتسم لك"..

"الدنيا لا تحب الأقوياء، إما أن تهزمهم أو يهزموها"..

"إنسان بلا ماضٍ، إنسان فارغ".

"أخطاء الماضي هي قرارات المستقبل الصائبة".

"الشجاعة أن تعترف أنك كنت جبانًا"..

وصلت إلى البيت فأرسلت رسالة لإليزا:

- سنلتقي غدًا يا إليزا، في التاسعة مساءً سأنتظرك في "سكاي روف" في حي الزمالك.. إلى اللقاء.

أغلقت الهاتف تمامًا، ثم غدوت في نومي العميق..

انتهى لقائي بالحالات التي أشرف عليها..

وليشهد الله أنني ساعدت الجميع على التعافي والتجاوز..

وقدمت كل ما في استطاعتي..

تمنياتي للجميع بحياة هادئة..

# الفصل الأخير

"الأسوأ لم يأتِ بعد"..

*حديقة العجوز..*

*بعد أربعين عامًا..*

غلب النوم على الصغار الذي كان يحكي لهم قصة ديفالو، ابتسم العجوز لأحفاده ثم نادى "ديرا" ابنته الكبرى لتصطحب أطفالها إلى غرفة النوم، ثم توجه إلى إحدى سياراته رفقة السائق الذي انطلق حيثما أمره العجوز، لقد فقد العجوز القدرة على الكتابة فيداه أصبحتا ترتعشان، هذا ما تفعله الشيخوخة، لذلك اضطر مؤخرًا أن يسجل تسجيلات صوتية بدلًا من الكتابة، أخرج هاتفه وفعل وضع التسجيل ثم بدأ:

- الآن كل شيء هادئ، الآن كل شيء بخير، بعد سنوات من الركض يكتشف الإنسان أن غايته في الدنيا هو بيت هادئ مستقر، مع شخص يتبادلان الحب والعطاء، هدفهما الوحيد أن تكون عائلتهما في أفضل حال، بيت يسيطر عليه الحب والود والتفاهم، يستطيعان من خلاله تربية أولادهما بطريقة صحيحة، تحميهم من مخالب الدنيا، العائلة هي غاية الإنسان مهما ركض وسعى يبقى النوم هادئًا رفقة من يحب، وبجوارهم طفلهما هي لذة الوصول.

سنوات من الركض والبحث عن الغاية التي لا أعرفها، سنوات أركض بلا هدف، بدا شبابي في غاية القسوة، حيث التخبط والتشتت، العزلة في غرفة القاهرة حيث التعرف على دهب وسوما وفريدة وهاجر والعجوز يوستانيا، الهجر إلى إيطاليا والانضمام لعائلة ديفالو، ديفيد شاهين، ماري، لورين، جورج، مروان، داليدا، يمنى وصديقي الذي أحببته من كل قلبي ياسين، ثم العودة إلى مصر وبدء حياة مختلفة ومعها تعرفت على ياقوت، فرح، حبيبة، وحدوتة، كل هؤلاء الذين مروا على حياتي ومررت عليهم، تركت بداخلهم أثرًا وتركوا بداخلي أثرًا.

أسعدني ما حققته فريدة في حياتها، حيث أصبحت أشهر مقدم برامج في مصر، هزمني مصير دهب الذي فقد عقله تمامًا، اختفت أخبار سوما لكنني ما زلت أومن أنها أصبحت عجوزًا في غاية الجمال، بينما هاجر التي ابتسمت لها الحياة أخيرًا وأصبحت أما ليوستانيا وسراج، أولئك الذين أثروا في حياتها.

مروان الذي اعتزل تدريب ألعاب القوى بعدما كان أشهر مدرب ألعاب قوى في أوروبا، وداليدا التي أنشأت الكثير من ملاجئ للأيتام وأطفال الشوارع، بينما يمنى نالت جزاءها وتم

القبض عليها أثناء إحدى عمليات تهريب المخدرات، حزنت حين علمت بوفاة ماري، بينما اختفت أخبار ديفيد شاهين، وأظن أنه قد مات، لكنه عاش ما تبقى من حياته في هدوء.

الطلاق من مهاب كانت بداية النجاة لفرح، لقد مارس معها كل أنواع النرجسية، حين امتلكها بدأ تدريجيًا في الانتقام منها، بدا وكأنه ينتقم منها على كل المرات التي رفضته فيها، كل المرات التي ابتعدت عنها، كل المرات التي حاول الاهتمام بها ورفضته، حين امتلكها مارس معها كل أنواع السادية والنرجسية المؤذية، وبعد ثلاث سنوات من الزواج تم الطلاق بينهما، اهتمت فرح بحياتها ولم تتعاف من " الجاموفوبيا" ، آمنت أنها لا تصلح للزواج لذلك كرّست كل طاقتها لتربية شرف الدين، الذي أصبح فيما بعد من أهم الأطباء النفسيين في مصر.

أبتسم القدر أخيرًا لحبيبة، لقد نجحت في تجاوز كل مخاوفها واضطراباتها النفسية، وتزوجت من رجل أحبها من كل قلبه، عوضها عن كل الليالي الصعبة التي عاشتها، ساعدها في مشوارها ونجحوا معًا في تأسيس أكبر شركة سياحة خارجية وداخلية واستقرت حياتهما تمامًا، لم نتواصل منذ زمن بعيد لكنني حين كنت أقرر السفر كانت أول من تساعدني هي وزوجها، وقد استقبلاني أنا وزوجتي مرات ومرات أفضل استقبال، أنا سعيد من أجل حبيبة لأنها أدركت أن القيمة الطويلة ومهما طالت حتمًا سيأتي الضوء في نهاية الطريق، أنا سعيد لأنها أخيرًا عاشت مع رجل يحبها ويبادلها نفس التضحيات والحب.

في دار المسنين قضى ياقوت ما تبقى من حياته، بعدما فقد ذاكرته تمامًا ظل لسنوات في دار المسنين تحت الرعاية حتى وافته المنية، لم يستجب القدر لدعواته لم يتزوج أيلا ولو ليلة واحدة في حياته مثلما تمنى، كانت قصته مقادها أن يسعى طوال حياته لكنه لا يصل للأشياء التي تمناها، صحيح أنه حقق حلمه في التمثيل، صحيح أنه نجح في الوصول إلى أكثر من طريق سعى له، لكن يبقى حلمه الذي أراده وسعى له من كل قلبه لم يصل له، رغم قدرته وقوته على التجاوز والسعي والبدء من جديد لكن حتى الأقوياء الحالمين قد يعيشون طوال حياتهم يحققون أشياء عظيمة، وبينما يحسدهم الناس على كل ما حققوا، تبقى أمنية واحدة وربما الوحيدة، التي أرادوها من كل قلوبهم، ومع ذلك لم تتحقق.

توقف السائق عند مقابر القاهرة..

خرج العجوز من سيارته ثم دخل المقابر ووقف أمام قبر "ياسين" قرأ الفاتحة له، ثم توجه للقبر المجاور له "رقية" وقرأ الفاتحة لها، ثم وفي القبر المقابل لهما وقف وقرأ الفاتحة لصاحب القبر "مازن محمود".

أاسم مستعار لرجل عاش حياته غريبًا ومات غريبًا، عاش لا أحد يعرفه ومات ولم يمش في جنازته إلا أصدقاؤه الباعة الجائلون، "حدوتة" الشاب الذي فقد جزءًا من ذاكرته وقضى حياته يبحث عن نفسه حتى أصيب باضطرابات نفسية، من وحدته صنع عقله شخصية خيالية ليصاحبها، رغم كل محاولات الطب النفسي لمساعدته إلا أن صمم أن يتعايش مع هذه الشخصية، التي قادته للانتحار غرقًا في نهر النيل.

بعد ساعة تحرك العجوز ناحية السيارة من جديد وانطلق السائق ليعود به من حيث أتى في إحدى القرى السياحية في الساحل الشمالي، في الطريق عاد لتسجيلاته:

- الآن أقول لكم يا أصدقائي الذين أعرفهم والذين لا أعرفهم، إننا قضينا معًا سنوات طويلة جدًا، سنوات ابتسمت لنا الدنيا، ضحكنا وبكينا وتألمنا وراضينا، سعادتنا وصلت حد السماء، وضاقت بنا الدنيا حتى إن الأرض لم تتسع أقدامنا، مضت بنا أيام كنا على وشك الانهيار ولم ننهار، وأيام أخرى أردنا أن نعانق الدنيا بما فيها من فرط السعادة والبهجة، أنعم الله على قلوبنا بالحب والطمأنينة، وبكينا طويلًا من قسوة الهجر والحنين، حققنا بعض أمانينا وكسرت قلوبنا من كل الأمنيات التي لم تحقق، حياة لن تفهمها ولن تصدقها ولن تصدقك، إيمانك الوحيد أن تنجو منها سالمًا، ستدخن جرعة النيكوتين لم تحاول المضي ناحية باريس أملًا في العثور على قصة حب أفلاطونية، فتكتشف أن "باريس لا تعرف الحب"، فتغير وجهتك حيث كل الطرق تؤدي إلى روما، وهنا ستواصل البحث عن طريق يشبهك تجد ضلتك فتتعثر فتكتشف أن "كل الطرق لا تؤدي إلى روما"، فتعود بائسًا وتردد: "لن ينتهي البؤس"، حتى تضعك الدنيا في مزيد من الاختبارات وتجعلك تتساءل عن الأحداث ربما أقل "أو أشد قسوة"، من كل المواعيد والأحداث التي مرت عليك، تنهزم من جديد، على يد الشيطان الأعظم "ديفالو" تهزمك الدنيا وتسلب كل طاقتك، تفقدك القدرة على الركض والتمني والعطاء، وتحطم كل ما فيك، حتى تؤمن أنك "لن تنجو من الحياة سالمًا" مهما حاولت، وأنك ما دمت تحيا فتوقع أن الأيام التي تعيشها الآن بكل ما فيها من سعادة وحزن، ستمضي بكل ما فيها، ستمضي في طريقك وحين تظن أن الأشياء السيئة كلها قد حدثت لك، تكتشف أن "الأسوأ لم يأت بعد"، لذلك كن واقعيًا مع نفسك وتعايش فلا فراق هو النهاية، ولا لقاء هو البداية، تعايش مع اللحظة وعيشها بكل تفاصيلها فـ لا تبالغ في حزنك ولا تبالغ في سعادتك، فـ والله لم يؤلم ولم يعذب القلب والروح إلا المبالغة في المشاعر، المبالغة في الأحداث، المبالغة في الحب والهجر والسعادة والحزن، كن واقعيًا وتعامل مع الحياة بهدوء وحكمة ولا تندفع، وتذكر كل الذين اندفعوا تحطمت قلوبهم.

وصل العجوز إلى بيته وفجأة شعر بالتعب، هرولت زوجته "إليزا" نحوه وأسندته حتى وصل السرير، تهافت أحفاده عليه، بينما كان يبتسم لهم بود، اقتربت العجوز "إليزا" منه وهمست:

- سراج.. كل شيء على ما يرام؟

ابتسم العجوز بصعوبة بالغة ثم همس في أذنها:

- الآن يمكنني أن أستريح قليلًا يا إليزا، سيكون كل شيء على ما يرام، ثقي في هذا.

# الخاتمة

الآن أسدل الستار على عاشر أعمالي الأدبية، بدأت أول أعمالي في سن العشرين وأختم السلسلة الأولى في أول أيامي في العقد الثالث من العمر، قضينا معًا أيام الشباب الأولى، حيث التخبط والتشتت، الحب الأول والفراق الأول، الليلة الأولى حيث لم تتسع أقدامنا من شعور الحب، والليلة الأولى التي ارتطمنا فيها بالأرض من قسوة التعاسة والحزن، تمردنا على الواقع وتمرد علينا، سعينا وحاولنا واجتهدنا، هزمتنا الدنيا في منتصف العشرينات، ونضجت قلوبنا لتفهم أن القرارات المصيرية يتحكم فيها العقل، غلبتنا العاطفة كثيرًا وسلكنا طرقًا في غاية القسوة رغمًا عن عاطفتنا، حققنا الكثير من الأشياء ولم نحقق الأكثر، تذوقنا من كأس الهزيمة والخيبة، وتذوقنا لذة الانتصار والنشوة وتحقيق الأحلام، بنينا أحلامًا وتحطمت غيرها، وصلنا لأهداف وضل الطريق في أهداف أخرى، الحياة رمادية، تناقض لن نفهمه أبدًا، فلا تنهك عقلك في فهمها..

حاول واجتهد لتكون أنت يا صديقي، فالهدف الأسمى في الدنيا أن تعلم من تكون أنت..

الآن أسدل الستار على عاشر أعمالي الأدبية، وأسدل الستار معها على تجارب ومواقف تعلمنا فيها كل شيء، آملين أن نبدأ ربيع حياتنا بقلب سليم وعقل هادئ مستقر.

إلى اللقاء يا أصدقاء في الرواية الحادية عشرة..

وتذكروا دائمًا أن الحياة..

"بوابة، الله وحده يعلم إلى أين تؤدي".

لن أقول لكم وداعًا، بل سأقول لكم..

إلى اللقاء في موعد أقل قسوة.. ربما.